روايات





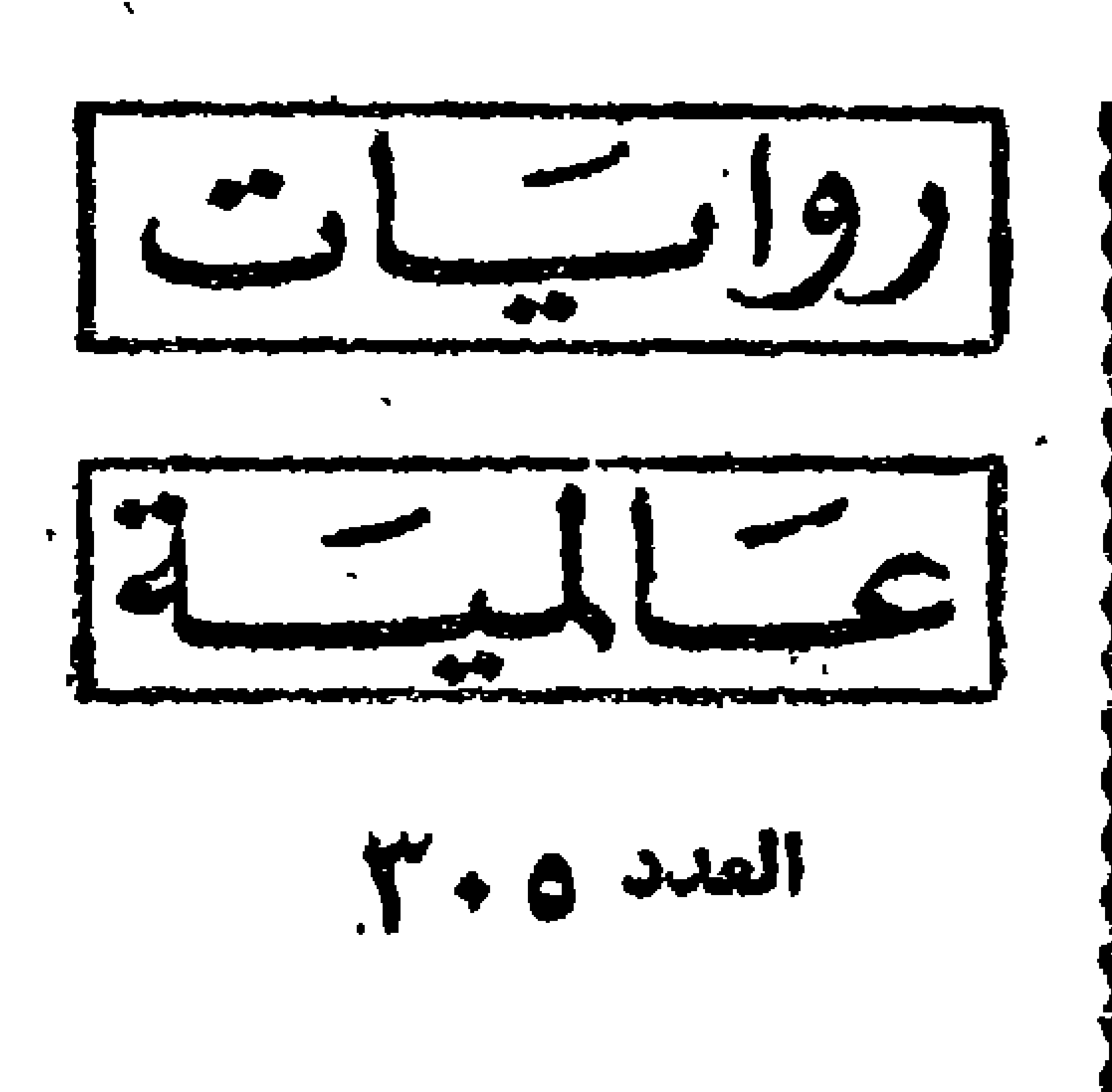
النسر الصغير

le FILS DE L'AIGLE

NAPOLEON II



عدد ممتاز


روايات
عالمية
العدد ٣٠٥

النسر الصغير

تأليف بيير نيزيلوف

ترجمة محمود عبد المنعم





١

انتهى الدرس ، والقى المدرس عصاه وقال :

ـ لعلك عرفت الخبر يا صاحبة السمو ؟.

أبتعدت الأرشيدوقة مارى لويز عن البيانو الذى نشرت فوقه احدى كونشرتات هايدن وقالت :

ـ لا ياكوزيلوش ، ماهو الخبر ؟.

أصلح المدرس رباط عنقــه المصــنوع من الموسلين الأبيض ، وتحاشى النظر الى تلميذته ، ثم قال بصوت هادىء :

ـ لقد اعلن طلاق نابليون من جوزفين يوم ١٥ ديسمبر الماضى ».

القت مارى لويز بيدها على أصابع البيانو فصدرت عنها نغمات متنافرة فيها انين وقالت :

ـ الكورسيكى . ؟ تقول أن الكورسيكى حصل على الطلاق ؟.

ـ لقد شاع النبأ ، وعرف رسميا ، يا صاحبة السمو .. ونشرته جريدة الجيمانية تسايتنج .

هنالك كلمات ، اذا ما تفوه بها انسان ، ملأت الجو بأزيز الرصاص وحجبت النور وأشاعت الأحساس بالفوضى فى كل مكان .

أخذت الشابة تتململ وهي تقول :

ــ يا الهي .. لم أكن اعلم ذلك .. انى لا أقرأ الا صحيفة جازتة فرنكفورت ولا يسمح لى بقراءة غيرها من الجرائد .. ولكن ما الذى يعنينا مباشرة من شأن هذا الطلاق ؟.

عاد مدرس الموسيقى يقول :

ــ اذا كان نابليون قد طلق زوجته ، فانما فعل ذلك ــ فى رأيى ــ ليتخذ لنفسه زوجة أخرى .

ــ بلا شــك .

بدأت آثار الكارثة تظهر ملامحها واضحة فى ذهن مارى لويز ، التى القت بنظرها من خلال النافذة ، فرأت أمامها نهر الدانوب يجرى عند أقدام القصر ، ذلك النهر الذى حملت مياهه منذ بضعة اشهر جثث الجنود القتلى مشوهة عارية ، الجنود الذين سقطوا فى موقعة اسلنج ثم فى موقعة واجــرام . معظمهم من النمساويين والقلة القليلة منهم من الفرنسيين ، وفى الجانب الآخر من النهر تنتشر مدينة بشت وسط السهل الفسيح ، تحت أشعة الشمس الواهنة فى ذلك الصباح البارد من شهر يناير .

أحست الفتاة الشابة وكأن ظلا ثقيلا قد هبط على هذا المنظر الرائع فطمس معالمه فى نظرها . وأصابتها رعدة . نهضت واقفة وراحت تسير فى قلق وسط الغرفة .انها شابة طويلة نحيفة قليلا، فى الثامنة عشرة من عمرها لها عينان زرقاوان ، وشعر طويل مفروق وسط راسها ومتهدل فى كثافة على جانبى جبهتها البارزة ، ولها خدان بهما آثار جدرى قديم وندبات حمراء وشفتان غليظتان تظهر من بينهما الأسنان بيضاء سليمة ، وذقن ثقيل متدل وجسم خلا فى جملته من الرشاقة والمرونة .

سارت لحظة ثم توقفت اخيرا أمام المدفأة ، ومدت يدها نحو النار ، كأنها تلتمس منها عونا ، ثم عادت تعبر عما فى ذهنها فقالت :

ــ سيتزوج ثانية بطبيعة الحال ... وليس عدد الأميرات قليلا فى أوروبا ..

ابتسم كوزيلوش وقال وهو ينحنى كما يفعل رجال القصر :

- هذه هى الحقيقة بعينها يا صاحبة السمو . ولكننى اتوقع منه أن يحسن الاختيار فلا يرغب الا فى احسنهن ادبا واكثرهن جمالا وأوفرهن كمالا .. تلك التى سوف تمنحه الوريث الذى يتمنى والهناء الذى يريد . ولست ارى فى أوربا كلها الا واحدة ...

ظهر الانزعاج على مارى لويز ، فالتفتت الى مدرسها تقول :

- هل يجب على أن أفهم من ذلك شيئا ، ياكوزيلوش ؟ هل كلفت بمسعى معين لدى ؟ .. مستحيل أن يتجه الى تفكير الكورسيكى .. ارجوك يا كوزيلوش ، انت الذى تذهب خارج القصر وترى أناسا كثيرين .. بالله ، قل لى ؟ ما الذى يتردد على افواه القوم ؟.

رد عليها الموسيقى فى خشوع :

- مجرد شائعات يا صاحبة السمو .. غير أن واجبى يحتم على اخبارك بان اسمك يذكر كثيرا .. والرأى عندى .. أن نابليون لن يوفق فى اختيار كهذا ...

فانتشر الرعب فى جسد الفتاة واسرعت تقول :

- اسكت .. انا .. اتزوج من هذا الرجل الذى امقته واحتقره ؟..

ثم تمنت لو استطاعت الفرار والهرب من الخطر الذى يتهددها، ولكنها كانت كالفريسة التى تشعر بدنو الصائد منها فترتعد فرائصها من الرعب والعجز. وأخذت تنتحب وتقول :

- آه .. يا الهى .. لماذا فشل فردريك ستابس فى شهر اكتوبر الماضى عندما حاول فى قصر شونبرون أن يغمد الخنجر فى صدره ؟.. لو انه نجح لأنقذ العالم ايما انقاذ .. لا ، لا . اتزوج من هذا الرجل الذى الحق كل هذا الأذى ببلادنا وبأسرتنا ؟ .. كيف .. وبعد ثلاثة أشهر فقط من فرضه علينا هذا الصلح المخزى المهين .. بعد ان سلخ من أملاكنا ساليزبرج وجزءا من جاليسيا وتريستا وايستريا وكارنيول والجانب الأكبر من كرواتيا .. وكافة مقاطعاتنا المطلة على البحر .. يطلب يد ابنة الرجل الذى غلب على أمره .. الا يشبع قط هذا الغول النهم ؟ . ولكن ابى - الطيب

الظروف ـ لن يحملني على قبول هذا الامر الكريه .. ولن يرغمني على شيء .

أسرع كازيلوش الى تأييد راى الأميرة قائلا :

ـ لم يسع الامبراطور قط الا الى تحقيق رفاهية شعوبه وهناء ابنائه الكرام . ومما لا شك فيه يا صاحبة السمو أن لا سبب يدعوك الى القلق من هذه الناحية . وارجو الا تحملي ما قلته الآن على وجه سيىء فلم اشأ الا أن أروى على مسامعك ما وصل الى علمى . من شائعات .. واقاويل مجرد كلام لا أهمية له ..

فرفعت مارى لويز يدها وقالت :

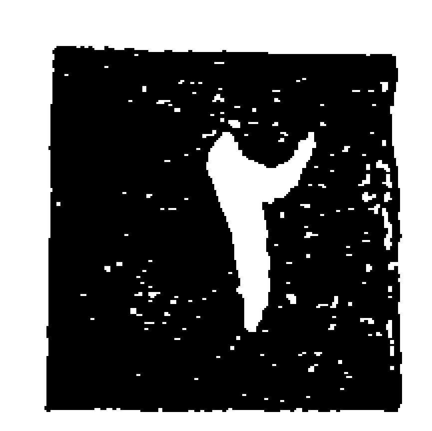
ـ حسنا يا كوزيلوش .. انصرف الآن ، وسأكون فى انتظارك غدا كموعد اليوم .. سنعيد دراسة سوناتا موزار ..

خرج المدرس وظلت هى بمفردها لحظة واقفة تفكر ثم راحت تصرخ وقد ملأها الغيظ والحنق :

ـ لقد كنت سعيدة كل السعادة .. فما الذى جعل نابليون هذا يفكر فى ؟ . الجلاد . الوحش . الظالم . الدجال اللعين .

واشتد الغضب بها وراحت تبصق ثلاثا فى النار لتفسد ما حاق بها من حظ عاثر وطالع مشئوم .





فى ٢٣ من يناير سنة ١٨١٠ حضر الامبراطور فرنسوا صباحا الى بودا حيث لم يكن يتوقع مجيئه احد . وعندما بلغ هذا النبأ الى علم مارى لويز أحست بالخوف وكادت أن تسقط رعبا . فلا يمكن أن يغادر أبوها العاصمة ويأتى الى هنا فى مثل هذه الظروف الا لامر ذى خطر .

وبعد برهة كانت مارى لويز تقف مرتعدة فى حضرة الامبراطور ، تنظر اليه فى وجل وقد توجست منه خيفة ، ها هو ذا أمامها فى ردائه الرمادى المعتاد ، سترته الرمادية يظهر من فرجتها الصدار من نفس اللون وتنسدل تحتها السراويل الرمادية أيضا التى اندست أطرافها داخل الحذاء الجلدى الطويل . وما من أثر لأى انفعال يبدو على وجهه المستطيل الكئيب الأحمر ، غير أن الفتاة أحست للمرة الأولى بأنها تلمس نفسا منطوية خائفة مرتعدة وراء هذا الفم الغليظ وهذه الجبهة التى التصق عليها الشعر الأشيب وهاتين العينين الزرقاوين الغائرتين وقد برزت تحتهما جيوب منتفخة .. قال الامبراطور :

ــ ابنتى .. أريد أن أحدثك فى أمور ذات خطر ..

فردت عليه متلعثمة :
ـ انى اصغى اليك يا والدى ...
ـ لست تجهلين بلا شك أن نابليون قد طلق زوجته فى الشهر الماضى وهو يبحث عن أميرة لكى ...
لم تدعه يكمل حديثه وقالت محتجة :
ـ أبى ، انى أفهم جيدا ما تقصد اليه .. كلا .. كلا .. لا اريد ان اتزوج من بونابرت ، لا أريد ...
فعاد الامبراطور يقول فى رقة وتودد :
ـ لم يتقرر شيء بعد ، ولا داعى لاضطرابك ، لم يصلنا للآن أى طلب رسمى ..
ـ ولكن هذا الطلب قد ياتى فى اية لحظة . على أن هذا الزواج قد لا يكون له داع بالمرة ، فسوف يريحنا الله قريبا من هذا الكورسيكى . لقد قرأ أحد منجمى فيينا طالع النجم ، وعلم أنه سوف يموت هذا العام بالكوليرا فى كولونيا فى حانة تدعى « السرطان الأحمر » .
حاول الامبراطور أن يبتسم وامسك بيد ابنته فجذبها اليه وقال :
ـ لنتحدث فى الأمور الجادة ، يا مارى لويز . لا أكتمك أن نابليون انما يفكر فعلا فيك ..
فصرخت الفتاة قائلة :
ـ يا الهى .. وهل سترغمنى على هذا الزواج ؟ ..
ـ ليس فى نيتى ارغامك . ولكن الظروف القاسية التى تجتازها الامبراطورية الآن تضطرنى أن أطلب منك العون والمساعدة .
ألقت مارى لويز نظرة ملؤها الرعب على هذا الرجل الذى كانت تنتظر منه ان يحميها ويدفع عنها الأذى ، فاذا به أول من يسارع الى التخلى عنها .. ولكنها ما زالت ترفض التسليم بامكان حدوث هذه الاهانة ، بامكان وقوع الجريمة ضد قوانين الطبيعة .. لا .. انها ستكافح الى النهاية ، الى آخر ما لديها من حجج والى آخر ما فيها من قوة .

ـ هل فكرت في الأمر مليا يا أبي ؟ . كيف تقبل أن تعطى ابنتك الى رجل الثورة ؟ . الى هذا الأفاق المغتصب الذى قطع شعبه راس عمتنا مارى انطوانيت ؟ . الست تعلم أن هؤلاء الفرنسيين هم افظع من قبائل الهون البرابرة ؟ . لقد طردوا رجال الدين من بلادهم وذبحوا قساوستهم .. لقد نهبوا وحرقوا وقتلوا فى ربوع بلادنا .. ان الاديرة نفسها لم تلق لديهم اي احترام .. فى التيرول في العام الماضى ، الم يلقوا بأربعة من الرهبان فى أتون من النار ؟ . وفي شويكات ، الم ينتزعوا قسرا لحى رجال الدين ، حتى ان ثلاثة من هؤلاء قضوا نحبهم فى لانزنسدورف ؟ . وزعيمهم هذا الذى لايقل وحشية عن اتيلا ، الم يلحق الاهانة والتعذيب بالبابا ؟ . فهو يحتفظ به سجينا بين يديه ، ويهزأ من قرارات الحرمان الصادرة ضده .. لا ، لا ، يا ابى ، لايمكنك ان ترغمنى على الزواج من هذا الرجل الذى يضرب خدمه ويقتل قواده اذا ما غضب عليهم استحلفك بالله يا أبى أن ترحمنى وتجنبنى هذا العذاب .

جثت أمامه على ركبتيها وراحت تبكى وهى تعصر اصابعها .. فأخذ الامبراطور يدها برفق وأوقفها وأزاح عن جبينها شعرها المختلط بالدموع وقال لها متنهدا :

ـ يا بنيتى ، أن الزواج بالنسبة لنا نحن الملوك والامراء ، المكلفين بأمور الشعوب ، مسألة لا تتعلق بالقلب والعاطفة وانما بالدولة .

ارتسمت الدهشة على وجه الفتاة التى أخذت تنظر الى أبيها .

ثم استجمعت مارى لويز شجاعتها فجأة وقالت لأبيها فى صوت جاف :

ـ هكذا أنت ترى يا أبى فى الزواج شأنا من شئون الدولة .. فلماذا اذن تريد اعطاء ابنتك ، وهى احدى بنات أسرتك ، اقدم الأسرات فى أوربا ، واحدى نبيلات آل هابزبورج الذين لم يرضوا منذ عشرة قرون عن زواج واحد غير متكافىء ، الى أفاق لم يجتمع له كريم المحتد ، الى كورسيكى مشكوك فى حسبه ونسبه ، الى ألد أعداء النمسا الذى سلبها أجمل أراضيها ؟ .

أحرج هذا الكلام الامبراطور فأدار وجهه وقال في صوت مرير مكتوم :

ـ ما زلت بعد صغيرة يا بنيتي ، ولا قدرة لك على فهم شيء من شئون السياسة . ولكن اعلمي انه ما من انسان في العالم يمقته أكثر مني هذا الرجل وبلاده وهذه الثورة التي استطاع أبناؤها أن يهزمونا .. نحن لسنا صنوا لهم في ميادين القتال ، ولكن لدينا أسلحة أخرى نحاربهم بها ، وأنت أحد هذه الأسلحة التي نعتمد عليها ..

اخفت ماري لويز رأسها وكأنها قد بدأت تنوء تحت ثقل المسئولية التي توشك أن تلقى على عاتقها . وعاد صوت الامبراطور يطن مرة أخرى في بطء وقسوة . انه يتكلم الآن بلسان رئيس الدولة الذي اجتمعت فيه آمال الملايين من أسرات رعاياه . قال :

ـ اني أصر ، يا ماري لويز ، على أن تكوني أنت قاهرة هذه الثورة .. فكري في الأمر يا بنيتي .. لا أريد أن أرغمك على شيء . ولكن اعلمي أن مجد أسرتنا ومستقبلها سوف يتوقفان على ماتتخذينه من قرار ..

عاود الفتاة عنادها ، واعترضت مرة أخرى تقول :

ـ واذا كان قراري هو الرفض ؟ .. واذا فضلت على هذا الزواج الالتجاء الى الدير ؟ .

ـ أنا أعرفك يا بنيتي .. لن ترفضي .. لن تهربي من الواجب الذي يدعوك . أما اذا حدث واتخذت لنفسك قرارا يتعارض مع مصالح وطنك فستضعيننا بذلك في أشد المواقف حرجا .. لقد أعطى مترنيخ كلمته تقريبا وارتبط بها .

ارتعدت فرائص ماري لويز عند سماعها اسم مترنيخ .. ان مجرد ذكر هذا الاسم يملؤها رهبة وخوفا .. أليس هو السيد الحقيقي الذي يتحكم في مصير النمسا ؟ .. وهل في البلاد كلها من يجرؤ على معارضة رغبات هذا الوزير الخطير الذي يصب الرعب في القلوب بنظراته الطويلة المنسابة من بين جفنيه ، والذي يتلعثم في حضرته حتى الارشيدوقات أنفسهم ؟ .

اجل .. انهزمت مارى لويز وقالت لابيها :

ـ حسنا يا ابى .. سأفعل كل ما تريد .. انا على استعداد لتقديم هنائى وسعادتى قربانا لصالح الدولة .

ظهر التأثر على وجه الامبراطور ، فراح يمسح بيده على رأس ابنته وقال :

ـ لم أتوقع منك غير هذا .. انى أعرف مقدار مافى قلبك من نبل .

فجـأة ارتمت مارى لويز على صـدر أبيها وأحاطت عنقـه بذراعيها .. ان روح الفتاة الصغيرة ، المرهفة الحس ، التى طالما حلمت فى ضوء القمر وعلى انغام الفالس الساحرة بالزوج الشاب الجميل وبأمير الأحلام الرائع ، هذه الروح عاودتها فى مرارة وأسى فقالت لأبيها :

ـ ولكن يا أبى ، نابليون هذا .. انه فى نفس سنك .

انها الانتفاضة الأخيرة من الطائر الذبيح .

فابتسم الامبراطور وقال لها مصححا كلامها فى رفق :

ـ بل هو يصغرنى بسنة يا بنيتى .. سنة كاملة .. انه لفارق ذو بال .. هيـا اذهبى الآن وانضـمى الى اخوتك واخواتك .. اذهبى ..





ان الحدث الذى تردد نابليون امامه سنوات وسنوات قدر له ان يتحقق هذه المرة .. ففى نهاية اكتوبر سنة ١٨٠٩ عندما عاد من شونبرون واقام فى قصر التويلرى اتخذ قراره الحاسم بالانفصال عن جوزفين .

انه يراها الآن عجوزا قد زال عنها رواؤها وبهاؤها ، وهو يعلم فضلا عن ذلك انها ، قبل أن تفرض السن عليها قيودها وهدوءها ، قد خانته وخدعته مرارا ، ولكنه ظل حتى الآن مرتبطا بها هذا الرباط القوى بحكم العادة وبدافع الشهوة وبذكريات الشباب الحلوة التى عاشاها معا . فهى التى علمته دروس الحب الأولى ومنحته احساسات الشباب المبكرة ، وهى نجم سعده وتعويذة نجاحه ، ولطالما أعجبه منها رقتها وعذوبتها وذوقها وذكاؤها والعون الذى لم تبخل به عليه فى كل الظروف .

وما دام لم ينجب منها .. أليس من واجبه أن يفكر فى أمر المستقبل ؟ . لمن يترك الامبراطورية من بعده ؟ . واذا كان لم يرزق بالولد من صلبه فقد فكر فى وقت من الأوقات أن يتبنى ولدا . غير أنه يريد انشاء سلالة وأسرة ، وهذا يقضى بأن يحمل خليفته على العرش السمات المميزة لأسرته وعنصر الدم الذى انحدر منه .

لقد رزق أخوه لويس بونابرت ، الذى تزوج من هورتانى دى بوهارنيه بغلام هو أول مولود ذكر فى العائلة ، واطلق عليه اسم نابليون شارل . فليكن هذا الوليد هو الوريث المختار للجلوس على العرش .

استقر الرأى على هذا الحل زمنا واطمأنت جوزفين الى أن فى استطاعتها الاحتفاظ بلقبها كامبراطورة الى آخر أيام حياتها . ولكن الحوادث تتالت بعد ذلك فى سرعة لم يتوقعها أحد .. ففى سنة ١٨٠٦ تورط الامبراطور فى علاقة غرامية قصيرة مع احدى وصيفات شقيقته ، كارولين مورا ، وكانت ثمرة هذه العلاقة غلام جاء صورة صادقة لنابليون . بعد ذلك بشهور قليلة ، أى يوم ٥ مايو سنة ١٨٠٧ ، مات نابليون شارل الطفل الصغير الذى اختير وريثا للعرش . مات فى مدينة لاهاى على أثر حمى خبيثة . فى هذه الفترة نفسها استولى نابليون أثناء وجوده فى بولندا على قلب مارى والفسكا الحلوة الشقراء فنشأ بينهما غرام جديد زاد فى عمق الهوة التى تفصل بينه وبين جوزفين .

لم يكف القدر عن توجيه الانذار تلو الانذار الى الامبراطور نابليون . ففى موقعة راتسبون أصيب بجرح فى ساقه . وبعد ذلك بزمن يسير بينما هو فى شونبرون ألقى القبض على الطالب فردريك ستابس فى اللحظة التى كان يستعد فيها لاغماد خنجره فى صدره . فأخذ الامبراطور يفكر : ان حياته معلقة برصاصة ، أو بسكين ومعه فرنسا كلها والامبراطورية بأسرها .. وأخيرا حدث عندما هم بمغادرة قصر شونبرون أن أباحت له مدام والفسكا ، التى كانت قد حضرت لتقيم معه منذ بضعة شهور ، انها على وشك أن تصبح أما ..

ولطالما ساءل نابليون نفسه ، فى الامسيات التى يعتصره فيها التعب والليالى التى يفر فيها النوم من عينيه : لمن كل هذا العناء والنصب ؟ . ومن اجل من يقلب الدنيا رأسا على عقب ؟ .

امن أجل أسرته ؟ . انه يعرفها حق المعرفة .. فأخوته أناس لا قيمة لهم يأكل الحقد قلوبهم ، ويكاد نكرانهم لجميله عليهم يقرب حد الخيانة . أما أخواته ، فكلهن صريعات الشهوة والغرور ، لا هم لهن الا التظاهر الكاذب والتعالى — الأجوف — بعضهن على بعض .

وما من أحد من هؤلاء وهؤلاء الا وقد رسخت في ذهنه عقيدة فاسدة توهمه بأن ما ينعم به من مركز وجاه وسلطان وعرش وحياة هانئة انما هو من صنعه اكتسبه بجدارته ، وكأنه ليس لنابليون في ذلك كله أي شيء من الفضل .. لا .. ليس منهم جميعا من هو جدير باتمام العمل الذى بدأه ، ولو انه مات اليوم لانصرف الكل الى التناحر وسط الانهيار العام .

لقد استقر رأى نابليون على الطلاق ، ولكنه لا يجهل الصعاب التى تعترض طريقه ، وانه من الواجب ، للوصول الى ما يريد ، البدء بقطع رباطى الزواج المدنى والدينى .

اضطرت الامبراطورة جوزفين ، على الرغم من دموعها ومن النوبات العصبية التى اجتاحتها ، أن تخضع لمشيئة نابليون . وفى يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٩ أعطت موافقتها على الطلاق . وفى اليوم التالى صدر قرار من مجلس الشيوخ بفسخ عقد الزواج المدنى .. واخيرا فى يوم ١٠ يناير سنة ١٨١٠ الغت لجنة الكنيسة الحكومية الزواج الدينى .

وهكذا أصبح نابليون حرا ، وبقى عليه أن يعثر على امبراطورة جديدة . لقد فكر في وقت من الأوقات أن يتزوج من لولوت ابنة أخيه لوسيان ، ولكنها ابنة اخيه ولم تتعد بعد الخامسة عشرة من عمرها . اهمل هذه الفكرة واتجه ناحية الأميرة شارلوت البافارية أخت زوجة اوجين دى بوهارنيه . ولكنه أدرك ما فى هذه الزيجة من سخف حيث سيصبح عديلا لابن زوجته . عندئذ عرض على مدام والفسكا تاج الامبراطورة ولكنها رفضت التاج .

ولقد استراح نابليون لموقف مدام والفسكا هذا . فخير له أن تظل هذه المرأة الرقيقة العطوفة وخير عون على ساعات العسرى يجد الى جوارها الوفاء والاخلاص والحنان وكل ما يفتقر اليه فى ساعات اليأس والارهاق .

مادام الأمر كذلك ، فليتخذ نابليون الاميرة التى يحقق زواجه منها اكبر قدر من الفائدة للامبراطورية وأقوى سند لسياسته .. ليتخير بوجه خاص المرأة التى يضمن منها انجاب البنين والبنات ..

الم يقل للوزير شامباني « سوف أتزوج بطنا ولودا .. »

وقد انصرف وزير الخارجية الى البحث عن هذا البطن الولود ، في مختلف بلاطات أوربا . ولم يكن هذا الصنف فيها قليلا في تلك الأيام وقد وقع الاختيار على ثلاث هن : احدى أميرات ساكس ، والجراندوقة انا صغرى شقيقات القيصر الكساندر ، والارشيدوقة ماري لويز كبرى بنات امبراطور النمسا .

لقد كانت النمسا في الواقع تفكر منذ ١٨٠٣ في الارتباط بعلاقة النسب مع فرنسا . وفي سنة ١٨٠٧ بعد معاهدة تلسيت عرض مترنيخ على نابليون احدى الارشيدوقات ولكن الامبراطور رفض هذه الفكرة في ذلك الوقت ، اذ كيف يسوغ له أن يتزوج احدى قريبات ماري أنطوانيت ، التي لم يجف بعد دمها المراق على أرض ميدان الثورة في باريس ؟ . والا فما الذي سوف يعوله الشعب ومازالت ذكرى دانتون ومارا وروبسبيير ماثلة في ذهنه ، اولئك الرجال الشجعان ذوو الشهرة الواسعة الذين قطعوا رأس ملك فرنسا لويس كابيه ؟ ..

ان الامبراطور نابليون ، من جانبه ، يميل الى الزواج الروسي ؟ لذلك في يوم ٢٢ نوفمبر ١٨٠٩ صدر تكليف من شامباني وزير الخارجية الى كولانكور سفير فرنسا في روسيا بأن يطلب الى القيصر الكساندر يد احدى الجراندوقات . ومنذ ان صدرت هذه التعليمات ظل نابليون ينتظر على أحر من الجمر .

ولما كان من المتوقع أن يأتي الرد من روسيا بغير ما يؤملون ، فقد رئي الاحتياط للامر حتى يمكن انقاذ الموقف عند اللزوم .. ولحسن الحظ تقدم مترنيخ في أواخر نوفمبر بعرض جديد يقول أن الامبراطور فرنسوا مازال مستعدا لتزويج احدى الارشيدوقات من سيد فرنسا . وقد تلقى نابليون هذا العرض ولم يبت فيه بلا أو نعم مقدرا ان هذا الزواج سوف ترضى عنه الأوساط الارستقراطية ، هذا فضلا عن انه يرضي غرور جوزفين ، اذ مما يخفف من اذلالها ان تكون احدى بنات هابزبورج هي التي حلت محلها على العرش الذي اضطرت الى النزول عنه اضطرارا .

وبعد ان مضى شهران ، أي في يوم ٢٦ يناير ، جاء الرد من

روسيا ، رد فيه تسويف ، فقد فوض قيصر الأمر فى اجابة هذا الطلب او رفضه الى مشيئة امه الامبراطورة التى لهـا وحدها حق البت فى مصائر بناتها .

عندئذ اتجه نابليون بكل اهتمامه ناحيـة الزواج النمســاوى واصبحت الارشيدوقة أهم موضوع لاحاديثـه .. ان اسرة لورين التى تطعمت بدم آل هابزبورج يرجع تاريخها الى القرن العاشر ، وقد تتابع منها الاجداد والاحفاد طوال تسعة قرون كاملة . وامامه المثل الرائع الذى يدعو الى التفكير : لقد ظل ملوك فرنسـا لمـدة ثلثمائة عام يختارون ملكاتهم من النمسا ، وكن جميعا ملكات نجائب غير شحيحات فقد انجب فرنسوا الاول من مارى تيريز ستة عشر مولودا . وامبراطور النمسا الحالى ، فرنسوا الاول هو الآخـر ، أب لثلاثة عشر ولدا ، وناهيك ببنـات مارى تيريز .. فمـارى كارولين ، ملكة نابولى أهدت الى هذا العالم سبعة عشر مولودا . ومارى اميلى ، ملكة بارما ، انجبت ستا ، أما مارى انطـوانيت فلم تلد الا اربعا ، مع ما يعرفه الجميع عن زوجها ..

جميعهن حقا معامل تفريخ لانتاج الذرارى والأولاد .

تقرر الامر اذن ، وتقرر الاسراع فى التنفيذ .. اختار نابليون اوجين دى بوهارنيه للقيام بالمسعى اللازم للحصول على تلك التى سوف تخلف امه فى فراش الامبراطور وعلى عرشه . وحـدد له ثمانيا وأربعين ساعة لانهاء هذه المهمة .. ان الامبراطور على عجل ولا يستطيع الانتظار .

فى صباح يوم ٦ فبراير توجه أوجين الى سفارة النمســا ، فوجد السفير شوارزنبرج متغيبا فى الصيد . اطلق وراءه السعاة يبحثون عنه حتى عثروا عليه وأعادوه فى الساعة السادسة مساء . شرح له اوجين ما طلبه نابليون وافهمه ضرورة اعداد العقد فى بضع ساعات ، على أن يحرر وفقا لنص عقد زواج مارى انطــوانيت .

بهت السفير أمام هذه المفاجأة واحتار أمام الاستعجال المطلوب . ولم تكن لديه تعليمات محددة فى هذا الموضوع ، ولكن هل يترك فرصة كهذه تفلت من يده ؟ . تذرع بالشجاعة ، واخذ على عاتقه المسئولية كاملة ، ووعد باعداد العقد فى الميعاد المحدد .





تلقت مارى لويز من يد مدام لازانسكى ، مدرستها الاولى ، أول رسالة غرام وجهها اليها نابليون ، فتحت الارشيدوقة هذه الرسالة وهى ترتعش وكأنها تفتح قمقما مسحورا ليخرج منه المارد الذى ينشر الخراب على وجه الأرض .

قرات الرسالة ، فاذا فيها ما يأتى :

« يا ابنة العم : ان الصفات الرائعة التى تميزت بها شخصيتك قد أوحت الينا بالرغبة فى خدمتك وتكريمك عن طريق التقدم الى الامبراطور والدك راجين اليه ان يعهد الينا بهناءة سموك الامبراطورى . فهل فى استطاعتنا أن نأمل فى أن تقبلى يا صاحبة السمو المشاعر التى دفعتنا الى القيام بهذا المسعى ؟.. وهل لنا أن نفخر بأن قرارك لن يمليه عليك مجرد واجب الطاعة لذوى قرباك فقط ؟.. ولو ان مشاعر سموك الامبراطورى انحازت نحونا ولو بقدر يسير فان رغبتنا متجهة الى تغذية هذه المشاعر بعناية فائقة والعمل دائبين على ارضائك فى كل شىء حتى اننا لنفخر بالقول اننا سوف ننجح فى اكتساب رضائك يوما من الايام . وهذا هو منتهى ما نقصد اليه ، وهو الغرض الذى من اجله نرجو من سموك

أن تشملينا بالقبول ونسأل الله ، يا ابنة العم ، أن يحفظك بسامى رعايته القدسية .

ابن عمك المخلص : نابليون

من رامبويه فى ٢٣ فبراير ١٨١٠

شعرت مارى لويز وهى تقرأ كلمات هذه الرسالة وكأن حملا ثقيلا ينزاح عن صدرها . هذا الأسلوب المنطلق السهل الذى يشبه خطابات الغرام التى يكتبها الشبان .. لقد سرت له واعجبت به .. يبدو أن « ابن العم المخلص » هذا ليس ذلك الغول المخيف الذى طالما حدثوها عنه . اعترفت لمدرستها مدام لازانسكى « يا للعجب . ان أسلوبه رقيق ورسالته جيدة .. لم أكن أعتقد فيه القدرة على مثل هذه المهارة . »

أصبح فى استطاعة برتييه ان يصل الآن الى فيينا بعد أن صدرت اليه التعليمات بالابطاء فى السير الى حين . دخل الى المدينة متخفيا يوم ٤ مارس مارا بطريق وجسر اعيد بناؤهما من أجله على عجل ليجتاز الأسوار التى هدمتها من قبل القنابل الفرنسية .

وفى اليوم التالى استقبل الاستقبال الرسمى فى موكب يتألف من عربة واحدة يسير خلفها خمسة من الياوران يمتطون خيولا سوداء .

استمرت الاحتفالات اياما ثلاثة واخيرا ، فى يوم ٨ مارس ، عقد فى هوفبرج الاجتماع العلنى الذى تقدم فيه برتييه الى الامبراطور فرنسوا بالطلب الرسمى للزواج . وعندئذ قدم البرنس دوفشاتيل الى مارى لويز خطابا من نابليون ومعه صورة له على هيئة ميداليون . فقالت مارى لويز : « انى باذن من أبى اوافق على زواجى من الامبراطور نابليون .. »

وهنا علقت لها مدام لازانسكى هذه الميداليون على صدرها فى الجانب الذى به القلب . ولقد نظرت مارى لويز طويلا الى هذه الصورة فوجدتها محاطة بثلاث عشرة ماسة كبيرة تحف بوجه نابليون وتبرز ملامحه فمالت على مدرستها وأسرت فى اذنها :

ـ ان له وجها جميلا . وان فيه عظمة وجلالا .»

أما الرسالة فكانت هي الاخرى مقبولة ، اذ جاء فيها :

« سيدتي الأخت ، ان نجاح الطلب الذي تقدمت به الى جلالة الامبراطور ابيك من أجل ارتباطي بك برباط الزواج لهو دليل جد ثمين على المودة والتقدير اللذين منحهما اياي » .

وقد ختمت الرسالة بعبارة « اخوك المحب : نابليون »

وهكذا انتقلت مارى لويز من مرتبة ابنة العم الى مرتبة الأخت وهو تقدم ملموس وقد راحت الاميرة تسأل الكونت أوتو هل سيسمح لها الامبراطور بزراعة حديقة صغيرة ؟.

هل سيسمح لها بالحصول على مدرس للهارب ؟. وباصطحاب مدام لازانسكى معها الى باريس ؟ .. وكان السفير يبتسم ويطمئنها على حسن اخلاق نابليون وطيبة قلبه وانه لن يعمل الا ما فيه سعادتها وهناؤها .

وفي ٩ مارس تم التوقيع على العقد وتنازلت مارى لويز رسميا عن حقوقها في عرش النمسا .

وفي يوم ١١ مارس ابرم الزواج وسط احتفال عظيم في كنيسة سانت اتيين . وقد اختار نابليون وكيلا عنه في العقد عدوه القديم الارشيدوق شارل فكان اختيار له مغزاه .

انقضى بعد ذلك يومان في الاحتفالات والولائم ، ثم حل يوم ١٣ المحدد للسفر من فينا في الساعة الثامنة صباحا .

صمم الامبراطور فرنسوا على مصاحبتها حتى بلدة سانت بولتن حيث وصل الركب في المساء . وتناول واياها آخر عشاء لهما معا . عشاء حزين كئيب .. وفي صبيحة اليوم التالى حضرت مارى لويز القداس ثم تبادلت مع ابيها كلمات الوداع . قالت وسط دموعها الغزيرة : « سوف اعمل على تحقيق سعادتك وسعادتي يا أبي » .

لقد افصحت الأميرة بهذه الكلمات القليلة عن خير ما تضمره لعمل خطير يمكن أن يفكر فيه انسان .

واخيرا وصلت مارى لويز يوم ١٦ مارس في الساعة الحادية عشرة صباحا ، وكانت في حالة شديدة من التأثر . لقد راحت منذ

يوم ١١ مارس تشجع نفسها وتقوى من عزيمتها باعادة قراءة الرسالة الأخيرة التي بعث بها نابليون اليها والتي وصلتها يوم عقد زواجها وقد اكثر فيها الامبراطور من العبارات المطمئنة والحديث العذب :

سيدتي : ستسلم اليك رسالتي هذه بعد الاحتفـال بعقد قراننا . ان الرسائل كلها التي تصلني من فينيا لا تتحدث الابمو فور الاعجاب عن شمائلك الجميلة . انى لا اطيق صبرا على البعد وأود ان اكون قريبا الى جانب جلالتك .. ولو اني أصغيت الى صوت قلبي لا نطلقت على الفور مسرعا ولكنت عند اقدامك قبل أن يشعر احد هنا باني غادرت باريس . ولكن هذا أمر لا يليق . سيتلقى امير نو فشاتيل اوامرك في أثناء الرحلة . وقد شاءت اختي كارولين ان تكون بر فقتك فاستقبليها بمودة ، انها عطوفة جدا نحوى . ليس يشغل بالي الا خاطر واحد هو الوقوف على ما فيه سعادتك ورضاؤك ان الاهتمام باسعادك ، ياسيدتي ، سيكون همي الدائم والمحبب في الحياة ..

الامضاء ــ نابليون

يجب عليها الآن أن تواجه هؤلاء الفرنسيين الذين تتوجس منهم خفية . ولكن حفلة التسليم بدأت وتمت دون عائق وفقا للنظـام المقرر لها . لقد تقدمت كارولين لتتسـلم زوجة اخيها ، فقبلتها وقدمت لها الحاشية التي أعدت لها .

وهنا كان عليها ان تمر بامتحان عسير . لقد كان عليها ان تخلع ملابسها النمساوية كلها ، حتى قميصها وجواربها ، وترتدى الثياب الفرنسية الفاخرة التي أحضرت من باريس . فليس يجدر بزوجة امبراطور الفرنسيين أن تخطو خطوة واحدة في وطنها الجديد وهي ترتدى ثيابا أجنبية . تجمعت النساء من حولها كالنحل الدؤوب ؛ هذه تلبسها وتلك تربط الأشرطة ، وثالثة تصفف شعرها ، ورابعة تنثر المساحيق عليها . وبعد انقضاء ساعتين طويلتين خرجت من بين ايديهن وقد ألم برأسها صداع شديد . هاهي ذى الآن شبيهة بكل هؤلاء الفرنسيات الثرثارات المتعطرات اللواتي طالما أثرن في قلبها الرهبة والضجر .

وفي ميونيخ احست لأول مرة بالحزن والالم . لقـد طالبت كارولين بضرورة ارجاع مدام لازانسكي الى فيينا ، مع ما تعلمته من

تعلق ماری لويز بمدرستها وحبها الشديد لها . ولكن ما الحيلة .
إن التعليمات صريحة وهى تقضى بالتخلص من كل ما هو نمساوى .
ولا سبيل الى الفكاك من هذا القيد الصارم حتى بالنسبة لتيسبى ،
الكلب اللولو النمساوى ، الذى كانت مارى لويز قد وعدته بالتفرج
على باريس . لقد قالت كارولين بصوت جاف خشن :

ـ ان الامبراطور يكره الكلاب ولا يريد ان يراها فى القصر .

لا مناص من الخضوع اذ اضطرت مدام لازانسكى الى العودة ومعها الكلب الصغير وجزء من قلب تلميذتها الحبيبة التى كتبت لها بعد حين تقول :

« بلغى أبى العزيز انى أزداد شجاعة وجلدا يوما بعد يوم » .

وفى سترسبورج قضت الامبراطورة يومين وسط الاحتفالات وليلتين وسط الأضواء والترحاب ، ثم عاودت المسير الى أن وصلت لونيفيل يوم ٢٤ . وهناك جاءها رسول على عجل قادم من كومبينى يحمل اليها من نابليون طردا يبرز منه بعض الريش وخطابا وجدت فيه شيئا من العزاء والراحة وسط ما هى فيه من عناء واضطراب قرأت فى الرسالة :

« ... ما أسعدنى لو استطعت أن أراك وان أبثاليك كل ما فى قلبى من حب .. علمت بطريق البرق أمس أنك مصابة بالزكام . استحلفك بالله ان تعنى بنفسك وبصحتك . لقد خرجت الى الصيد هذا الصباح وهأنذا أبعث اليك بالدراريج الأربعة الأولى التى قتلتها ، فتقبليها هدية واجبة منى الى تلك التى ملكت على صميم افكارى . كم كنت أود ان اكون مكان هذا الرسول لاقدم اليك فروض الحب والاجلال جاثيا عند ركبتيك واضعا يدى بين يديك . أما وأنا ما زلت بعيدا عنك فانى أبعث اليك بالفكر آيات اعزازى وتقديرى ، وبالفكر أيضا اكسو يديك الجميلتين بالقبلات » .

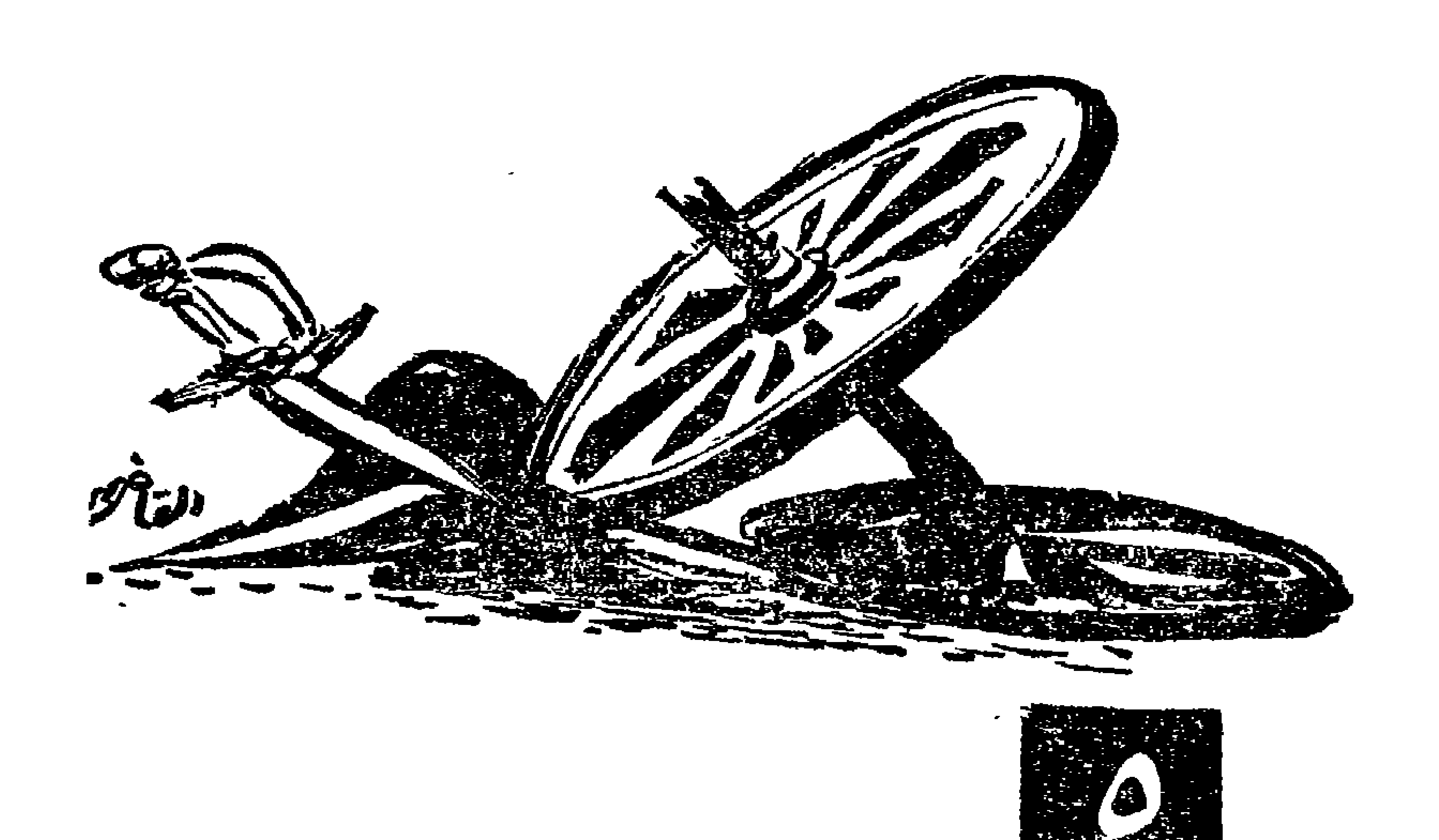
عند قراءة هذه الرسالة أحست مارى لويز بقلبها الصغير يرتجف فأعادت قراءة الفقرة الأخيرة من الخطاب الذى تلقته بالأمس .

« قال لى لابورد عند قدومه من فيينا انك بكيت كثيرا منذ أن

غادرت سانت بولتن ، وانك تكدرت ايضا فى ميونيخ ... هذه الامور تحزننى لأن رغبتى هى الا تعرف لويز غير الأيام الحلوة الجميلة العذبة التى تشبهها . انبأتنى كارولين أنك ترغبين فى معرفة ماالذى يجعلنى سعيدا . فاليك ياسيدتى على لسانى انا هذا السر الخطير . قد يبدو لك السر بسيطا ولكنه الحقيقة بعينها . كونى سعيدة بزواجنا . حينما تشعرين بميل للاستسلام الى الالم وحينمايعتريك شيء من الحزن قولى لنفسك ان هذا يحزن الامبراطور كثيرا لأنه لن يكون سعيدا ومسرورا الا اذا ملأ الحب قلب حبيبته لويز » .

هل يوجد كلام ارق من هذا الكلام ؟.. هل ينقصه غير البلبل المغرد وفيض ضوء القمر الفضى لتكتمل اللوحة الشعرية التى تمس قلب كل فتاة ؟. طفرت الدموع من عينى مارى لويز وهى تكتشف فى نابليون هذا العالم الواسع من الحب والحنان الذى لم يكن ليعلم به أحد ..ان له فى قيثارته سلكا سحريا ناعما يعرف كيف يستخرج منه بمهارة الانغام التى تسبى عقول العذارى .

أليست كورسيكا مسقط راسه ومرتع طفولته وصباه ؟.. وأليست كورسيكا على مرمى البصر من ايطاليا ارض الشعر والفن والغرام الملتهب ؟.



٥

ظل نابليون يعيش على أحر من الجمر منذ يوم ٢٣ فبراير ،يوم أن وصل اليه من فيينا نبأ الموافقة على قبول الزواج رسميا . فهناك على البعد زوجته تستعد للقدوم اليه .. ها هى ذى تغادر ديارها ، وتقطع الفيافى والقفار فى طريقها لتستقر الى جواره ، ان موعد اللقاء يقترب ويجب ان يعد لها استقبالا يليق بمقامها . فراح يعد هذا الاستقبال . انه يراقب بنفسه كل ما يتعلق بتأثيث الجناح الخاص بالأمبراطورة ، ويبدى رأيه فى وضع كل قطعة من الأثاث فى الموضع المناسب لها . انه يأمر باعداد الحفلات ويتأكد من متانة درجات السلم التى سوف تمر من فوقها المواكب ، وينظم أعياد البلاط والحفلات التى يلهو فيها الشعب ويدرس الهبات والمنح التى سوف يجود بها فى هذه المناسبة السعيدة . انه يجند الرسامين والشعراء والممثلين والحفارين . انه ينادى فى كل مكان : العجلة ، العجلة ليعمل الجميع بلا ابطاء .. انه يراقب كل شىء ويدرس كل شىء ويفكر فى كل شىء وكأن له عقولا عشرا تعمل كلها فى وقت واحد بدون توقف .

لقد اسكرته الفرحة ولكنها لم تفقده الوعى . كيف تسنى لهذا الرجل الفقير الذى تلقى تعليمه فى بريين على نفقة الملك ، والذى

يدين بكل شيء للملك .. كيف تسنى له ان يجلس يوما على عرش ذلك الملك العظيم ؟.

وها هو ذا اليوم يتزوج من حفيدة شارل كنت وسليلة لويس الرابع عشر ...

انه لايجهل بلا شك قدر قيمته ، وقد ولد للمجـــد فـكانت انتصاراته هي له بمثابة الأجداد ، وهي التي تمنحه الحسب والنسب والجاه . ان شارات النبل ترتسم عنده على الاعــلام التي استلبها من الأعداء .

ولكن ما اطول الشقة بين ما هو عليه الآن وما كان عليه منــذ ثمانية عشر عاما ... ما ابعده الآن عن تلك الايام التي كان يلجأ فيها لإخفاء فقره وعوزه الى طلاء الرقع في ثيابه بمداد الحبر الأسود . هاهو ذا ضابط المدفعية الصغير ،يعيد تقاليد ملوك فرنسا العظام: فرنســوا الاول ولويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر ولويس السادس عشر ، فيتزوج إحدى سليلات بيت هابزبورج .. هاهو ذا يرتبط برباط النسب بالأباطرة ، فيقترن ببناتهم ويتخذ منهم النسيب والقريب .. ان زواجه هذا يرتفع بعرشه الى مستوى العروش الأخرى ويضمه في صف واحد مع القياصرة ، ويثبت قدمه في سجلات المجد الغابر ، ويضمه الى اسرات الملوك العتاة التي سيصبح لها بعد اليوم حليفا .

بل ان هناك ما هو أهم من ذلك كله في نظر نابليون : ان من بين اجداد ماري لويز ثلاثة عشر جدا ينتمون الى البوربون ، وبذلك يمكن القول بأن الابن الذي سوف تلده له الأميرة النمساوية انما يجري في عروقه دم من ملوك فرنسا ، وهذا يكفي لاضفاء غلالة من الشرعية على ملكه اذا ما ثار الجدل يوما حول شرعية الملك . وليس مما يثنيه عن هذا التفكير لحظة واحدة كون البوربون آخذين في التســفل والانحراف منذ عدة اجيال . فليس لهذا الامر من خطر ، ان دماء نابليون سوف تبدل من هذه الاوضاع كلها كما بدلت من قبــل صفحة العالم .

كيف لا يتعلق نابليون بالزوجة التي توفر له كل هذا المجـــد وتحقق له كل هذه الأحلام ؟.. انه لا يكف عن النظر مليا الى صورها

التى امكنه الحصول عليها . تلك الحبيبة مارى لويز .. هل هى نقية الأصل ، كريمة المحتد طاهرة الدم ؟.. حقا ، ان سمات آل هابزبورج قد اجتمعت كلها فيها من قمة الرأس الى اخمص القدم . هذا الفك البارز وهاتان العينان المنفرجتان وهذا الأنف الاقنى ، وخصوصا تلك الشفة ، الشفة النمساوية الشهيرة ، التى تعتبر وكأنها العلامة المميزة التى تضعها اسرة هابزبورج ، اقدم الاسرات الحاكمة فى أوربا على بناتها ، ضمانا لصحة المصدر — انه يملأ ناظريه فى اعجاب وتقديس من تلك الملامح والقسمات التى اذا اجتمعت لاحدى بنات الشعب نفرت خاطبها وأورثت بعلها الكرب .

***

يوم ٢٧ مارس ١٨١٠ . نابليون فى مكتبه فى كومبين ، يذرع الغرفة طولا وعرضا ، وقد عقد ذراعيه وراء ظهره ، وحنى راسه فوق صدره خلف منضدة صغيرة جلس مينيفال ، سكرتيره الخاص براسه الصغير المكور كأنه راس طفل ، واذنيه الكبيرتين ، وقد امسك بالقلم فى يده ، وراح ينتظر . من وقت لآخر يتوقف الامبراطور عن المشى ليحك احدى ساقية بكعب حذاء الساق الاخرى واخيرا قال :

— هل كل شيء معد تماما فى سواسون ، يا مينيفال ؟..

— نعم ، يا مولاى ، لقد نصبت الخيام القرمزية المطرزة بالذهب ..

عاد نابليون يقول فى صوت اكثر حدة وتأكيدا :

— لا ينقص شيء اليس كذلك ؟.. أريد أن يكون كل واحد فى المكان المخصص له بالضبط . لقد نظمت قدوم الامبراطورة دقيقة بدقيقة . وسوف تترتب على اقل تأخير أو على اهون خطأ نتائج خطيرة وكوارث فظيعة ... هل طلبت القوات اللازمة من الجهات العسكرية ؟...

— نعم ، يا مولاى ، واعدت الأطعمة ... لقد قام مسيودى بوسيه بجميع ما يلزم ..

— هل اعدت حجرتى ؟..

ـ لقد حجز لكم جناح خاص فى سراى الشانسلرى ..

عنـدئذ اقترب نابليون من مينيفال ، وجـذبه من اذنـه وهو يقول :

ـ الست تفهم ، يا مينيفال، انه مما يخالف قواعد الذوق السليم واللياقة ان أبيت الليلة الأولى تحت سقف واحد مع الامبـراطورة انها لم تصبح بعد زوجتى تماما .. وأنا اجلهـا واحتـرمهـا ؟ يا مينيفال ..

ـ بالتأكيد ، يامولاى ، بالتأكيد ..

لقد تعلم هذا السكرتير ، من طول ما خدم مع سيده هذا ، ان يكون فى حديثه كثير جدا من « نعم » وقليل من « لا » فى هـذه اللحظة اعلن للامبراطور قدوم رسول لم يلبث أن ادخل عليه لا هنا يغطى الوحل ملابسه ، وتحيط بعينيه علامات التعب والاجهاد . قال الرسول :

ـ انى احمل اليك ، يامولاى ، رسـالة من صاحبة الجـلالة الامبراطورة .

أسرع نابليون يتناول الرسالة ، ويمزق غلافها بعصبية ، ويلتهم ما فيها بعينيه ثم وقف بعد ذلك لحظة لا يتكلم ، واخيرا صاح ينادى خادمه الخاص :

ـ كونستان .. انت ياكونستان ..

أقدم الخادم يهرول .

ـ اذهب سريعا واحضر لى مورا ..

بعد لحظـة كان مورا ، ملك نابولى وزوج كارولين أخت الامبراطور ، واقفا امامه براسه الضخم وشعره الفـزير الأكرت وجسمه الهائل . قال له نابليون :

ـ اسمع يامورا ، ان الامبراطورة تغادر بلدة فيترى هذا الصباح وستصل عما قريب الى سواسون ... فعليك أن تستعد . سنقوم معا بعد ساعة .

انحنى زوج كارولين وخرج . فالتفت نابليون نحو خادمه الخاص وقال :

ـ ياكونستان ، اطلب لنا عربة لا رسميات فيها ولا شارات عليها وتعال البسنى ثيابى ..

بعد لحظة كان نابليون قد تعرى عارضا جذعه للخادم يقول له :

ـ دلك يا كونستان .. وأكثر من ماء الكولونيا .. هيا .. اشدد قبضتك ودلك بقوة كما لو دلكت ظهر حمار .

ان الاوامر تصدر منه قصيرة حاسمة كانه فى حصار احدى المدن :

ـ بذلتى الرسمية . بذلة فرسان الحرس ..

وسرعان ماوضع أمامه الرداء الصوفى الأخضر ذو الحليات الحمراء فاخذ يفكر قليلا ثم قال :

ـ وسترتى الرمادية .. تلك التى ارتديتها فى موقعة واجرام.. هاهو ذا على اهبة الاستعداد ، ومورا مستعد ايضا ، والعربة أمامهما . راح نابليون يربت على كتف زوج أخته ويقول :

ـ انها قادمة ، يامور ، انها قادمة ..

ثم التفت الى مينيفال يوصيه :

ـ اياك ان تخبر احدا بغيابى .. يجب الا يعرف مكانى احد ..

انطلقت الخيل تنهب الارض فى الطريق الموصل الى سواسون ثم فجأة انشقت السماء عن مطر مدرار، وأخذ الماء المنهمر يدق بعنف فوق كابوت العربة ، التى تخطت بلدة سواسون وراحت تدرج مسرعة على الطريق الى فيترى . ما زال المطر يتساقط بغزارة ويطمس مناظر الطبيعة المحيطة حتى ليكاد يحجبها تماما عن الأعين .

ولكن شيئا من هذا لم يكن يؤثر فى هناء نابليون ، الذى كان يرى فى ذلك اليوم اجمل ايام حياته ، والذى امتلأ قلبه بشمس الحب فاصبح لا يحفل بشمس السماء . انه يترنم بالاغنيات ،ويدق أرض العربة بقدمه ، ويلقى من وقت لآخر فى فمه بقطعة من الحلوى يمصها ، وينظر الى الافق يفحصه وهو يمد رأسه فوق عنقه . غمز زوج أخته بكوعه وقال له مداعبا فى سعادة :

ــ سيقابلَ كلّ منا الليلة زَوجته ، ياموراً . . الا يفرحكَ ان تلتقي بكارولين ؟ .

ولكن ملك نابولي ، الذى كان يشكو ألما فى معدته ، لم يجبه، وتظاهر بالنوم ..

توقفت العربة فى بلدة كورسيل لتغيير الخيل ونزل منها الامبراطور وموراً فى اللحظة التى اشتد فيها هطول المطر،واسرعا يطلبان الحماية تحت بوابة الكنيسة من الماء المنهمر والريح العاصفة، وكان مورا دائم التململ لايستسيغ هذه المداعبات من صديقه وشقيق زوجته .

فجأة ظهر هناك على ناصية الطريق رسول ، اسرع نابليون نحوه، فعلم ان الامبراطورة ستصل الى هذا المكان بعد ربع ساعة لا يزيد ربع ساعة .. انه اطول من الدهر .. ظل واقفا فى عرض الطريق غير مبال بالمطر الذى يبلله ... هذا صوت يسمع على البعد ... اخيرا ... ظهرت العربة الكبيرة التى تجرها ثمانية خيول . ووصلت الى حيث يقف نابليون .. انها الامبراطورة .

تقدم نابليون من العربة ، واشار الى الحوذيين أن يتوقفوا ، رآه أحد الفرسان الذين يسيرون الى جوار الركب ، فعرفه ،وظن أن من حسن التصرف أن يعلن وجوده ، فأنزل دواسة العربة وهو يصيح :

ــ جلالة الامبراطور ..

القى نابليون نظرة حنق على هذا الفارس الأخرق . ثم فتح باب العربة واندفع الى داخلها وهو يقول :

ــ لويز ...

انطلق فى داخل العربة صوت رقيق كصوت العصفور عند وقوعه فى الفخ اخذها بين ذراعيه ، وضمها الى قلبه ، وغمرها بالقبلات .

ــ لويز .. هذه انت ، يالويز .. كم أنا سعيد .

كادت الامبراطورة ان تختنق تحت فيض هذا العناق وتلك القبل لولا ان سارعت كارولين الى نجدتها . ففرقت ما بين الزوجين وأجلست أحدهما فى مواجهة الآخر . ظلا لحظة لا يتكلمان وقد أمسك نابليون بيدى زوجته ، وراح ينظر اليها .. لم يلحظ شيئا

منها فيهـــا من عيوب : لم ير اطــرافها المعـــوجة ، لا ولا صدرها الضخم غير المتناسب مع باقي اجزاء الجسم .. لم يلفت نظره منها غير البشرة البيضاء ، وغير العينين الزرقاوين ، وغير الشعر الاشقر الجميل المتهدل ، وغير الانف والفم بوجه خاص هذه هي احـــلامه جميعها قد تحققت امام عينيه .. انه عاشق واقع تحت سحر غرامه انه يقول :

ـ كم أنا سعيد ..

اما ماری لويز فقد راحت تتفحصه فی دهشة ... أهذا هو الكورسيكي الذى بلغها عنه كل هذا القدح والذم ؟ .. ياللعجب .. انها لاتجد له قرنين في راسه ، ولا أنيابا بارزة من بين شدقيه .. ولا مخالب حادة في اطراف انامله .. كلا .. لا شيء من ذلك .. وانما رجلا كسائر الرجال جميعا بل لعله أرق واجمل من كثير من الرجال . ان لون عينيه الازرق القاتم وشفتيه الرقيقتين المنفرجتين عن اسنانه البيضاءالسلمية ، وشعرهالناعم وانفه المستقيم ، وصدره العريض ، وبشرته الذهبية ، كل ذلك ترك في قلب الفتاة اثرا ازال كل ما تركته فيه الاقاويل والشائعات التي طالما القيت عليهـــا من قبل .

راحت ماری لويز تتأمل اذنيه الصـــغيرتين .. واذا بنـــابليون يســـالها :

ـ هل مازلت تخافين منی ؟..

هزت راسها وابتسمتواشارتالى الميداليونالمعلق في صدرها وقالت بصوت خافت وفی لهجة المانية ظاهرة :

ـ هل تدری انك اجمل كثيرا من صورتك ؟..

كانت هذه هي أولى الكلمات التي سمعها منها ، وهو في حالة شديدة من التأثر يكاد يفقد معها القدرة على النطق . بعد برهـــة صمت قال :

ـ ما أصغر يديك يا لويز .. وما اجمل قدميك .. لم أر احلى منهما قط ..

في هذه اللحظة انطلقت العربة مسرعة ، واطل نابليـــون من النافذة وصرخ بالحوذيين :

ـ الى كومبينى ؟ مباشرة ...

انتشر هذا الأمر من عربة الى عربة حتى عم الركب جميعا ومعه قدر كبير من علامات التعجب والاستفهام .. أين التوقف المفروض حدوثه في سواسون ؟.. أين حفلات الاستقبال المعدة ؟.. أين العشاء الضخم الذى ينتظره الجميع ؟.. ضاع كل هذا ..وانطلقت العربات براكبيها وما يحيط بهـــا الى كومبينى . وهل اوامر الامبراطور تقبل المناقشة ؟..

سارت القافلة بكل سرعة ، وفى العربة الامبراطورية استمر الزوجان يتعارفان وفى لحظة سعلت مارى لويز : فسألها نابليون فى قلق ظاهر .

ـ أمزكومة انت ؟

ـ ان حنجرتى ضعيفة ..

ـ سننظر فى ذلك غدا .. سيعنى بك كورفيزار . انه سيد الأطباء ويكاد يحيى الموتى ..

عاد الموكب يسير تحت المطر المتزايد وعند مروره ببلدة سواسون فى سرعة جنونية من غير أن يتوقف رفع الرسميون الذين كانوا فى انتظاره أيديهم الى السماء تعجبا ، وراحوا يعيدون الى جيوبهم خطب الترحيب المعدة من قبل ، ويطوون الأعلام ، ويلتهمون الطعام الذى كان من المفروض أن يتناوله الامبراطور وعروسه وحاشيتهما .

لم يلتفت نابليون لشىء من ذلك وانما الأمر الذى يهمه الآن دون غيره هو اسعاد مارى لويز وارضاؤها ـ قال لها :

ـ لقد أصدرت أوامرى لتقدم لك الحلوى والفطائر مع كل طعام ، و « البيتى فور » مع اكلة العصر .

صفقت بيديها استحسانا وقالت :

ـ كم أنا مغرمة بالجاتوه ...

ـ سيكون فى استطاعتك أن ترسلى الى جميع افراد عائلتك الهدايا التى تعرفين انها تروق لهم .. لا تحسبى حساب المال... فان مخصصاتك كبيرة ..



ـ ما اطيب قلبك ..

ـ بطبيعة الحال سوف يكون أمامك أعظم مدرسى الموسيقى والرسم تختارين منهم من يعجبك .. اما عن الأزهار ، والكلاب والطيور فلك منها ما شئت يكفى أن تعربى عن رغباتك لتتحقق لك الرغبات .

ـ هل فى استطاعتى أن تكون لى بعض اليمامات ؟

ـ نعم وسنعلمها معا كيف تغرد ..

احمر وجهها واضافت فى صوت خافت !

ـ ... وان يكون لى زوج لطيف ؟

ـ بل زوج يفضل الموت على اغضابك ..

انتفض جسمها تحت تأثير هذا الصوت الدافىء العميق . واحست بالطمأنينة تحتل جانبا أكبر من قلبها . وفى خارج العربة كان الليل قد اقبل واصبح الركب يسير على ضوء المشاعل .

فى الساعة التاسعة والنصف وصل الموكب الى كومبينى . فنزل نابليون من العربة مادا يده الى الامبراطورة . هناك حشد كبير من الناس فى الانتظار، أبعد نابليون بيده الجمع المزدحم ، وفى مدى فترة لا تزيد على الدقيقتين انتهى من تحية أفراد عائلته وتلقى تهانيهم ، واستعجل القصائد والأشعار المعدة له ، وازاح الزهور والفتيات الصغيرات اللواتى تقدمنها ... انه يريد أن يكون بمفرده مع زوجته .

فى وسط هذه الزحمة ، وبين ذلك الهرج والمرج ، كادت مارى لويز ان تفقد أنفاسها . وقد استندت الى ذراع مدام دى مونتيلو التى قادتها الى جناحها الخاص . وقالت لوصيفتها :

ـ ان الامبراطور رجل ساحر وطيب على الرغم من أنه رجل حرب يخشاه الجميع . أظن الآن انى سوف احبه كثيرا .

أصدر نابليون اوامره فأعد عشاء سريع فى جناح مارى لويز ، عشاء لثلاثة هم : الامبراطور والامبراطورة وكارولين . وقد ساد المرح ، وشربت مارى لويز الشمبانيا لأول مرة ووجدتها لذيذة ..

وقبل أن ينتهى العشاء انسحبت ملكة نابولى وبقى الزوجان كل منهما فى مواجهة الآخر .

نظر نابليون الى الساعة المعلقة على الحائط . انها تشير الى منتصف الليل . تذكر أن عليه أن ينتقل الآن الى سراى الشانسلرى حيث اعد له فراشه . انصت الى أشجار الحديقة وهى تتلوى وتئن تحت صفعات العاصفة . فى الخارج المطر والريح والصقيع، وهنا فى الداخل الدفء والراحة والأمان . نظر الى زوجته التى نال منها الاعياء منالا ، فألقت بنفسها على احدى الأرائك وابرزت الأضواء لون بشرتها البيضاء ونثرت هالة من الذهب حول شعرها الأشقر ..

قال نابليون :

ـ لويز ...

ـ نعم يا حبيبى ...

ـ ما هى التوجيهات التى زودك بها أهلك ؟

خفضت عينيها وقالت فى صوت منخفض :

ـ ان أكون لك دائما وان اطيعك فى كل أمر ...

قام من مكانه مسرعا ، واتجه الى باب الحجرة ففتحه ،وصرف كل المجتمعين وعاد فأغلق الباب وأحكم مزلاجه . ليست به من حاجة الى أحد ، وانما هو يريد أن يكون بمفرده هذا المساء فى خدمة زوجته ... اقترب منها . ونظرت هى اليه ... ولم تشعر بأى خوف منه ... وانما رأت فى عينيه بريقا لامعا كأنما اجتمعت فى حدقتيهما النجوم ...

لم يعد هو الامبراطور . لقد ارتد فجأة الى الوراء سنوات بعيدة الى أيام الملازم الصغير بونابرت المملوء بالحماس والاندفاع والاقدام والاصرار ايام مرسيليا ونيس وطولون .

***

فى صباح اليوم التالى استيقظت مارى لويز فوجدت الى جوارها رأس نابليون بشعره الرمادى على الوسادة . قالت فى

نفسها ان وظيفة الامبراطورة ليس فيها ما ينفر ، وانما على العكس ، لقد كانت البداية حسنة ومطمئنة . حمدت الله على أن نابليون ليس كآخر ملوك فرنسا من البوربون الذى تزوج من مارى انطوانيت وهو فى سن السابعة عشرة .

استيقظ نابليون بدوره سعيدا هو الآخر . انه يشعر بنفسه وكأنه عاد أدراجه عشر سنوات من العمر ، وبوده لو اشترك جميع من حوله فى هنائه وسعادته . خرج من حجرته فصادف مرور المارشال دوروك ، صديقه الحميم ونجيه فقال له ناصحا :

ـ تزوج من نمساوية ، يا عزيزى ، انهن خير نساء العالم ، صالحات ، ساذجات ونضرات كأنهن الورود .

ثم أصدر أمره بأن يعدله ولزوجته الفطور فى غرفة الامبراطورة وعاد الى جوار مارى لويز فوجدها فى فراشها تكتب رسالة :

ـ انى أعد رسالة الى ابى ، هل تريد أن تقرأها ؟.

أمسك الورق فى يده وقرأ فيه هذه السطور :

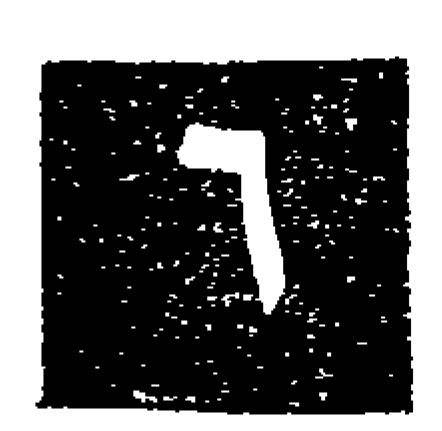
« ... أنا على وفاق تام معه ، وهو يحبنى حبا عميقا الأمر الذى يسعدنى جدا ويجعلنى استجيب الى حبه هذا من كل قلبى. يجب فى رأيى أن يعرفه الناس عن قرب فهو يختلف كثيرا عن الاعتقاد السائد عنه . أن له سحرا أخاذا ، واندفاعات يتعذر على الانسان أن يقاومها ».

ابتسم نابليون وقال فى ذهنه :

« هذا اعلان بنصر جديد ، مما يؤسف له الا يمكن نشره فى جازتة المونيتور الرسمية » .

***





راح نابليون يسأل طبيبه الخاص كورفيزار كل يوم ؟ويستشير المولد انطوان دوبوا الذى يتنافس على الشهرة مع زميله بودلوك. ويلح فى السؤال محاولا أن يستخلص منهما كلمة واحدة :

ـ هل هى حامل ؟.. هل تظن حقيقة أنها حامل ؟.. قل لى الحقيقة .. ولا تخشى أن تكدرنى .

ولكن رجال الطب والعلم يتذرعون بالحيطة ولا يبدون الرأى الا افتراضا :

ـ اننا نعتقد ذلك يا مولاى ، ولكن للتأكد من الأمر يجب أن ننتظر بعض الوقت ...

الانتظار .. الانتظار .. انه لم يعد يطيق الانتظار .. واخيرا بعد اسبوعين تأكد الأمر فى نطاق ضيق جدا : ان الامبراطورة حامل فعلا .

ان هناءه لا حد له ، ويجب عليه أن يذيع النبأ فى كل مكان. ففى يوم ٢٦ يوليه كتب الى امبراطور النمسا يقول : « سيدى الأخ وحميمى العزيز » ثم راح يزف اليه النبأ الذى شاع وانتشر: ان مارى لويز تعانى من الوحم ، الأمر الذى يكاد نابليون أن يبكى

له فرحا وسعادة ان من طبعه الا يطيق منظر النساء الحوامل ولكن هذه الحامل ليست كغيرها من النساء ..

انه يريد ان يطلع جميع افراد شعبه على قدرته وما يستطيع وهو لذلك يصحبها الى جانبه فى جميع انحاء باريس : فى الأوبرا .. وقاعة المعارض .. ودار الكتب حيث حاولت مارى لويز أن تضع فوق راسها الخوذة الأثرية التى كانت لفرنسوا الأول من قبل ، فكادت أن تصيب عينها بأذى .

لم يعد نابليون يفترق عنها لحظة بل ظل يرقبها كما ترقب الدجاجة صغارها . ان أوامره تقضى بعدم ارهاقها وبعدم اغضابها ليعطى لها كل ما تطلب وليستجاب لكل ما تريد ...

واخذ الحمل يسير سيره الطبيعى بمرور الزمن ..

وفى نهاية سبتمبر انتقل البلاط الى فونتنيلو حيث راح نابليون يفكر وسط حفلات اللهو والمرح ، فى تنظيم حياة ابنه القادم ... فسيرزق صبيا .. انه واثق من ذلك ... ان الحظ الذى طالما داعبه لن يحجم هذه المرة عن الاستجابة الى رغباته أيضا .. اليس هو السيد المطاع ؟ ...

ان اهم ما يشغله الآن هو اختيار المربية ، وهى وظيفة كانت تتزاحم عليها سيدات أكبر العائلات من أمثال كونتيسة مارسال واميرة جيمينيه ودوقة بولينياك .. فمن يعين ؟.. ومن يختار؟..

تذكر فجأة انه فى شهر اغسطس الماضى كان قد استضاف على مائدته مدام دى مونتسيكو ، زوجة كبير الأمناء . انها امرأة فى الخامسة والأربعين وزوجة لا غبار عليها وأم لخمسة اطفال .. سيدة لا يرقى اليها الشك ، فلم يتردد لحظة . وفى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٨١٠ أصدر قرارا بتعيين مدام دى مونتسكو مربية الأولاد الامبراطور ... وقال لها :

ـ انى أعهد اليك يا سيدتى بمصائر فرنسا . واريد منك أن تجعلى من ابنى فرنسيا صالحا ومسيحيا صالحا ... فهذا لا يستقيم من غير ذلك .

ان المربية هى التى تتولى فى الواقع مهمة تنشئة وتربية ابن الامبراطور ولا يكون لأمه عليه سلطان . فهذه الأم تلده ولا شيء غير ذلك ، وبمجرد خروجه من أحشائها يصبح ملكا للدولة .

بعد ذلك راح نابليون يفكر فى اعداد باقى أفراد حاشية الأمير الصغير : مساعدتان للمربية ، وياور ، وطبيب ، وخادمات، فى ثياب حمراء وبيضاء مثل خادمات الامبراطورة ، ثم الخدم والطهاة وغير ذلك فكان العدد يقرب من الثلاثين .

ثم المراضع ؟.. انهن لم يغبن عن بال الامبراطور الذى لم يغفل عن أهمية اختيارهن . أمر باستشارة مدام مالار مرضعة لويس السادس عشر التى ما زالت على قيد الحياة ، كما أمر باستشارة غيرها من مراضع الأمراء . وحصل منهن على البيانات اللازمة والاشتراطات الواجب توفرها فيمن تحظى بشرف ارضاع ملك روما : يجب أن تكون صحيحة الجسم سليمة اللبن . ما لبثت العروض ان جاءت تتوالى وقام البوليس بالتحريات الضرورية . عرضت المتقدمات على القوابل لفحصهن ثم اجتمعت اللجنة الطبية وأجرت الغربلة الأولى ثم الغربلة الثانية ولم تستبق غير نساء ثلاث يطفحن صحة وقوة وضخامة : هن السيدات آوشار وكورفيل وموريه اللواتى حبسن فى بيت استؤجر لهن خصيصا وحرم عليهن الخروج منه قبل حلول موعد الولادة . ربطت لهن الأجور المغرية ، ورتب لهن الطعام الدسم وراحت النساء الثلاث ينعمن بأطيب العيش داخل سجن رهيب .

فى خلال هذا الوقت راحت مارى لويز تكتسب سمنة وضخامة . ان صحتها جيدة ولكنها لا تطيق أية مضايقة مهما هانت . انها لا تكف عن الشكوى من المعدة مرة ومن الكلى مرة أخرى . انها تتأوه وتستدعى الطبيب كورفيزار . فحضر على عجل . واذ يراه نابليون يبتدره ممازحا :

ـ هذا أنت أيها الأفاق الكبير .. هل قتلت حلقا كثيرين اليوم ؟..

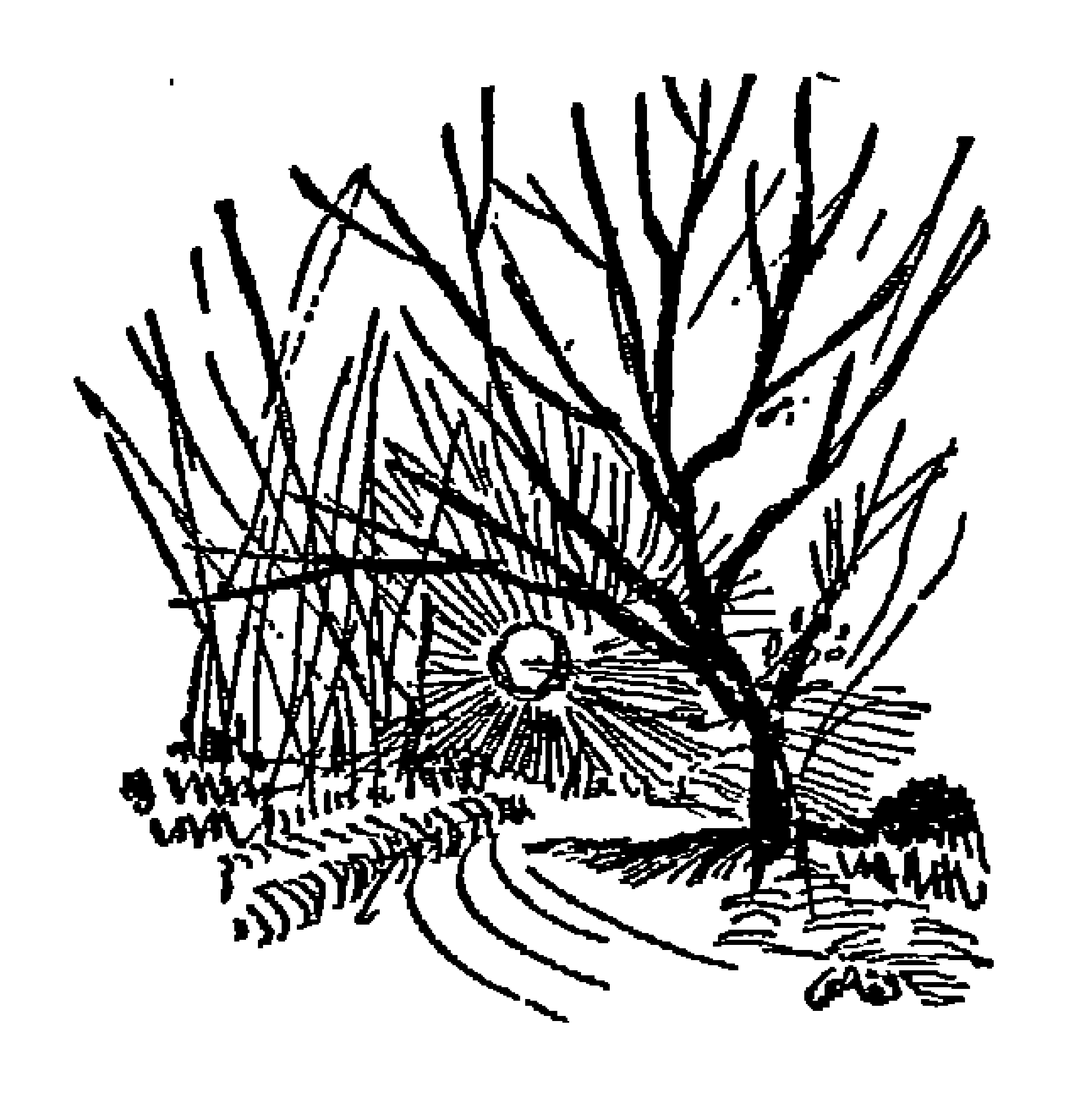
فيجيب الطبيب فى تواضع :

ـ ليس كثيرا يا مولاى ...

ـ بل اظن قتلاك غير قليلين .. هل يعقل أن يكون مرضـاك بجميعهم اليوم أصحاء معافين ؟.

لم يرد كورفيزار الا بابتسامة صغيرة ثم راح يفحص الامبراطورة ويصف لها حبوبا من لباب العيش المخلوط بالسكر وقطرات من الماء القراح فتشفى لساعتها بفعل الدواء الذى لا ضرر منه .

***





يوم ١٩ مارس ، أعد حفل استقبال فى التويلرى تكريما للدوق دى ورتزبورج عم مارى لويز . اقتربت الساعة الثامنة وبدا المدعوون يفدون تباعا .. حدث أمر عجيب .. دوقة مونتبلو تخرج من جناح الامبراطورة وهى بثياب النهار .. كيف ؟.. أيجوز لمثل هذه السيدة أن تبقى الى ما بعد الساعة السابعة مساء وهى بملابس النهار ؟.. لا بد أن هناك أمرا جللا هو السبب فى هذا الانتهاك الشنيع لقواعد اللياقة والذوق ؟..

انتشرت الشائعات التى لم تلبث أن تأيدت : ان صاحبة الجلالة بدأت تشعر بآلام المخاض .. تفرق الجميع سريعا وانصرفوا الى منازلهم ثم مالبثوا أن عادوا فى ثيابهم الرسمية ليحتل كل منهم المكان المخصص له فى التويلرى لهذه المناسبة العظيمة .. ليس هناك اضطراب .. ولا تردد .. لقد أعد نابليون النظام الذى يجب أن تتم الولادة وفقا له وكأنه انما أعد التخطيط اللازم لاحدى المواقع الحربية ..

عندما شعرت الامبراطورة بالآلام الأولى ارسل نابليون يستدعى الطبيب المولد دوبوا الذى صدرت اليه الأوامر منذ بضعة ايام

بالمرابطة بصفة مستمرة فى القصر . ثم بعث بالرسل الى الأمراء والأميرات والى رئيس مجلس الشيوخ والى حكام مقاطعة السين، ثم عاد الى جوار زوجته .

فى هذه الاثناء كانت مارى لويز فى حجرتها تتأوه ، وقد تزاحم حولها الطبيب والوصيفات ومدام دى مونتسيكو والمرضة . انها تصرخ من وقت لآخر من شدة الألم . ان الاستلقاء فى فراشها يتعبها فينهض نابليون ويأخذها بين ذراعيه ويسير بها فى جنبات الحجرة ، يسندها ويقبلها ويضمها الى صدره ويهدهدها بكلمات التشجيع والحب .

واذا ما خف عنها الألم لحظة سارع الى الصالون المجاور لينقل الأخبار الى أفراد العائلة المجتمعين. لقد كان أول من أسرع بالحضور أم نابليون ، السيدة الأم ، كما كانوا يسمونها . لقد سبقت أوجين وهورتانس ولدى جوزفين ، كما سبقت البرنس بورجيز ودوق ورتزبورج ، وجلست بعينيها اللامعتين السوداوين ويديها المتدليتين على ركبتيها ، تنتظر الفرج فى صمت وجمود . كذلك اجتمع فى هذا الصالون خمسة من الأطباء وعلى راسهم كورفيزار على أهبة الاستعداد لمواجهة أى خطر .

اجتمع البلاط بكامل هيئته فى انتظار قدوم المولود الامبراطورى واخذت أجراس كنيسة نوتردام تدق ، وظل الباريسيون سهارى فى الشوارع وأمام أسوار التويلرى الذى أضيئت جميع نوافذه فبدا كالشعلة وسط الليل البهيم .

طال الانتظار وأخذ الجميع، وهم بلا عمل ، يتململون ويضجرون دقت الساعة العاشرة ... ثم الحادية عشرة .. ونابليون لا يكف عن التردد بين غرفة الامبراطورة والصالون الذى اجتمع فيه أفراد الأسرة .. سأل كورفيزار فى لهجة الجد :

— هل تعتقد أن من الممكن الآن تحديد نوع المولود ؟.. هل هو ذكر أو أنثى ؟.. هل لديك بعض الدلائل ؟..

— يجب أن تنتظر يا مولاى ..

لم يعد القوم فى الصالونات يطيقون الصبر والتزام النظام .

فراحوا يتحدثون فى شتى المواضيع . هل سيكون المولود ذكرا أو انثى ؟.. بل بدأت المراهنات حول هذا التكهن ، وارتفعت نسبة الرهان على الولد الى ١٠ أضعاف نسبة الرهان على البنت .

فجأة ارتفع صوت انتصبت له كل هذه الأجساد النائمة وهبت على اقدامها .. انه صوت أحد الضباط يلقى بلاغا رسميا حرره الطبيبان كورفيزار ودوبوا : « بدأت صاحبة السمو الامبراطورة أمس مساء حوالى الساعة الثامنة تحس بآلام المخاض ، وقد خفت هذه الآلام فى أثناء الليل وتوقفت تماما عند شروق الشمس . صحة جلالتها على خير ما يرام » .

الساعة السادسة ، صعد نابليون الى جناحه والقى الى خادمه كونستان ببعض الأوامر قال :

ـ أعد لى حماما ساخنا جدا ... وقدم لى افطارى فى خلاله ...

خلع الامبراطور ملابسه ودلف الى حجرة الحمام ، واستلقى فى الحوض حيث تمدد واستراح . ولكن الحمام بارد على غير ما يهوى ، فأسرع يفتح الصنابير وتدفق الماء ساخنا يغلى وامتلأ الجو بالبخار الكثيف .

وسط هذا الضباب الذى يكاد أن يحجب الضوء ، برز الخادم كونستان وهو يصيح :

ـ مولاى ، مولاى ...

ـ ماذا بك ؟. تكلم بسرعة ..

ـ الدكتور ... الدكتور دوبوا .. انه هنا .. يريد مقابلتك فى الحال .

ـ فليدخل ...

دخل الطبيب المولد على نابليون ، وقد ارتسم الرعب على وجهه وثار الشعر الأشعث على جانبى يافوخه الأصلع ، وقال :

ـ مولاى ، آه ، مولاى ...

ونظر اليه نابليون . لا شك أنه يحمل له خبرا سيئا . ولكن الأخبار السيئة لا تأثير لها على الامبراطور فى اللحظة التى يفاجأ

بها . وانما تأثيرها يظهر عليه بعد ساعة كاملة من تلقيها . خرج الى منتصف جسمه من حوض الحمام وصرخ فى الطبيب يسأله فى ضجر :

ـ هل ماتت ؟.. اذا كانت قد ماتت ، فلتدفن ...

أسرع دوبوا يقول :

ـ كلا يا مولاى ... ولكن كيس المياه قد انفجر .. وهذه حالة قد لا تحدث فى كل ألف حالة الا مرة واحدة ... ويشاء الحظ أن تكون هذه المرة الواحدة هى هذه المرة ... وهنا بالذات ..

ولكن نابليون قال بصوت حار قاطع :

ـ تكلم !.. ماذا حدث ؟.

ـ مولاى .. ان موقفى دقيق ...

أخذ نابليون يتململ فى موضعه من الحمام وأخيرا قال الطبيب .

ـ تمالك أعصابك ، وانس انها الامبراطورة وعاملها كما لو كانت احدى نساء الرعاع من شارع سان دينيس ..

ـ ذلك أن .. الجنين فى وضع شاذ .. انه مستعرض بقدميه ..

ـ وما العمل اذن ؟ ..

قال الطبيب بصوت خافت :

ـ سأكون مضطرا الى استعمال الكماشات الحديدية ...

عند سماع هذه الكلمة ارتعدت فرائص نابليون وقال :

ـ وهل فى ذلك من خطر ؟.

ـ كلا بالطبع . ولكن قد اضطر حتما الى اختيار الأم أم الطفل ..

راح الامبراطور يفكر لحظة ثم رفع رأسه الى دوبوا ونظر فى عينيه وقال :

ـ ابق على الأم ... هذا حق لها ..

وبعد هنيهة عاد يقول :

ـ معها ، ساحصل على ابن آخر ... هيا ، اسرع الى جوار الامبراطورة وأنا لاحق بك حالا ...

خرج من الماء ومن غير أن يجفف جسمه تماما ثم اندس في ملابسه وأسرع الى غرفة مارى لويز فدخلها في اللحظة التي كانوا ينقلونها فيها الى سرير آخر لامكان استعمال الحديد ، وهي تصرخ وتضطرب وتبكي :

ـ لا ، لا ، لا أريد هذا ... ستقتلونني ... لا أريد ان اموت

لمحت نابليون في الغرفة فمدت اليه يديها متضرعة :

ـ هل سيضحون بي .. لأنني الامبراطورة ؟..

اقترب نابليون منها واحتضنها بين ذراعيه محاولا تهدئتها ووقفت الى جوارها مدام دى مونتسكيو تحدثها بلغة العقل والتجربة :

ـ لا تجزعي يا سيدتي ، أنظري الى انا ... لقد استعملوا الحديد معي مرتين .. وهأنذا الى جوارك سليمة معافية .. ؟

ووقفت أم نابليون جامدة لا تتكلم ، تنظر الى كنتها وتقول في نفسها يا الهي ، ما كل هذه الحركات في عملية الوضع ..؟ ما الذي كانت تفعله اذن لو انها حملت وولدت ثمان مرات مثلي ؟..

نظر نابليون الى دوبوا الذي وقف الى جانب الفراش لا يتحرك :

ـ اذن ... ماذا تنتظر ؟.

ـ أنتظر كورفيزار ، يا مولاى ، ان وجوده معي ضروري ...

فهم نابليون ان دوبوا يريد الا ينفرد بالعمل فقال له

ـ اذا كنت تريد شاهدا على عملك ، فهأنذا شاهد عليك .. هيا .. أد واجبك .. وليكن سلوكك كما لو كنت تتلقى الآن مولودا اسكافيا حقيرا ..

أخذ دوبوا يخلع ملابسه واذا بكورفيزار يدخل عليه ومعه ايفان ودى بوردوا . أمسك الأطباء الثلاثة بذراعي الامبراطورة وساقيها بينما استعد المولد للعمل . وتعالت الصرخات متباعدة

افى اول الأمر ثم ما لبثت أن تلاحقت واخشنت واصبحت صرخة واحدة فيها وحشية ورعب وضراوة .

لم يستطع نابليون أن يحتمل هذا الصراخ وهذا المنظر ، سد أذنيه بكلتا يديه وأسرع خارج الغرفة الى مكتب صغير لم يكن الصوت ليصل اليه الا بعيدا من خلال الحوائط . أسند رأسه الى زجاج احدى النوافذ وظل هكذا ينتظر والدقائق تمر كأنها قرون.. أما لهذا العذاب من آخر ؟.

استمر هذا العذاب ثلاثا وعشرين دقيقة ، واخيرا دخل عليه الطبيب الجراح ايفان يقول :

ـ لقد تم كل شيء يا مولاى يمكنك أن تأتى ...

اسرع نابليون الى حجرة مارى لويز ... كتلة من اللحم الاحمر لا حراك بها ملقاة فوق البساط ، فقفز من فوقها ليصل الى زوجته يكسوها بالقبلات والاحضان .

ـ لويز ، حبيبتى لويز انتهى .. لن تتعذبى بعد اليوم أبدا...

كانت مارى لويز مستلقية لا حراك بها متقطعة الانفاس تتصبب عرقا وفى حالة تكاد تقرب من الاغماء . لم ترد على زوجها ولكنها ابتسمت ابتسامة ضعيفة . فى هذه الاثنـــاء امسك كورفيزار ومدام مونتسكيو بالمولود وغمساه فى الماء الدافىء وراحا يدلكانه ويقطران فى فمه قطرات من روح الخمر . بعد سبع دقائق انطلق من صدر الطفل صوت ضعيف ما ان وصـــل الى اذن الامبراطور حتى نظر نحوه فجأة يقول :

ـ ابنى ...

قال كورفيزار :

ـ انه حى يرزق ..

قدمت اليه مدام دى مونتسكيو المولود وسط اللفائف الساخنة . تردد نابليون لحظة ثم تناوله وضمه الى صدره وراح فى شـــبه غيبوبة وقد اغمض عينيه ولانت ساقاه واســتند الى امه مدام لوتيتيا ، التى اقتربت منه . بعد برهة التفت الى امه وقال :

ـ قبليه يا اماه ...

وانطلق كورفيزار يعطى البيانات المعتادة فى مثل هذه الظروف :

ــ انه ذكر .. كامل الخلقة .. سليم البنية .. يزن ما يقرب من تسعة أرطال .. ويبلغ طوله عشرين بوصة ...

عاد نابليون يقبل ابنه وقدمه الى مارى لويز التى كانت دوقة مونتبلو تجفف لها جبينها من العرق وتصفف لها شعرها . قال لها :

ــ هذا ابنك .. ابننا .. شكرا لك ، يا لويز ..

ما كادت الامبراطورة تطبع قبلتها الاولى على جبين ملك روما حتى انتزعه منها نابليون وتوجه به الى الصالون الذى اجتمع فيه افراد الأسرة .. وما ان وصل الى عتبة القاعة حتى رفع الوليد بين يديه فى الهواء ليراه الموجودون جميعا . ثم اصدر الأوامر بحمل النبأ السعيد الى اربعة اركان فرنسا وبأن تطلق بطاريات المدافع فى كل مكان مائة طلقة وطلقة .

افلت نابليون من جيوش المهنئين المحيطين به ، وصعد الى جناحه ليرتدى ملابسه فقد قاربت الساعة التاسعة والنصف . قال لخادمه كونستان :

ــ ارأيت يا كونستان .. لقد رزقنا صبيا سمينا ... لقد تأخر كثيرا فى الحضور واضطر الطبيب الى جذبه من اذنه .. آه ، لقد تعذبت عزيزتى لويز كثيرا ــ فاذا كان هذا هو ثمن الأولاد ، فلست أريد أولادا بعد اليوم ...

ثم هز رأسه وأضاف يقول :

ــ لقد كان أسهل على كثيرا أن أقضى هذه الساعات فى ساحة الوغى على ان اقضيها الى جوار هذه المرأة وهى تضع مولودها ...

فى أثناء ارتداء الملابس الرسمية ، راح يصغى باذنه الى مدافع الحرس الامبراطورى وهى تطلق طلقات البشرى . واقتداء بأجراس كنيسة نوتردام ــ راحت الكنائس الأخرى فى باريس وضواحيها تدق اجراسها هى الأخرى .. اختلطت أصوات المدافع باصوات الأجراس ... النار والفولاذ .. وراحت تعلن للجميع مولد الطفل الامبراطورى العتيد .

اقترب نابليون من النافذة ونظر من خلالها الى المدينة الكبرى تطن وقد ايقظتها فجأة طلقات المدافع ودقات الاجراس . راح ينظر الى الجماهير المتراصة حول اسوار التويلرى تنتظر بلا حراك . انها تفرح لفرح مليكها وتشاركه هناءه ولكنها لم تدر بعد هل المولود ذكر أم أنثى . راحت طلقات المدافع تتوالى : ١٥ - ١٨ - ٢٠ طلقة اذا توقفت الطلقات عند الحادية والعشرين كان ذلك ايذانا بأن المولود فتاة ، اما اذا توالت الطلقات بعد الحادية والعشرين فالمولود ذكر . ساد صمت رهيب بعد الطلقة الحادية والعشرين ... واذا بطلقة أخرى تدوى ... انطلقت الأصوات من الحناجر والهتافات من الصدور : « يعيش الامبراطور .. يعيش ملك روما » ..

وراح الناس يرقصون ويهللون ويتعانقون ويلقون بقبعاتهم فى الهواء .. وانتشر السرور فى كافة الأركان المحيطة بالقصر وزحف منها الى باقى الاحياء ...

نظر نابليون الى هذه الفرحة التى تنبعث من فرحته .. هو والشعب وابنه .. هذا هو الثالوث القادر . الذى كتب له الخلود لم يعد يطمع فى شىء .. لقد نال كل ما يتمنى .. ولم تبخل عليه العناية الالهية بنعمة من النعم ، بل كانت عليه سخية .. نال منه التأثر ومن قوته ، فأحس بالدوار وكأنه واقف على شفا هاوية سحيقة ، قال يخاطب نفسه :

- لقد اصبح المستقبل ملك يدى ...

واتكأ بيده الى الستارة المسدلة على الحائط ، واسند جبهته الى لوح الزجاج البارد ، واطلق لدمعه العنان ، فانساب ساخنا على وجهه .





ظل نابليون لبضعة أيام فى شغل شاغل بابنه الوليـد ، فقد فرض عليه هذا الحادث التزامات رسمية عديدة حرص على اتمامها بكل دقة وعناية . وما أن تتوافر له لحظة من الانطلاق حتى يسرع يقضيها الى جانب فراش الصغير حيث يقضى اللحظات الطويلة فى التأمل والنظر الى هذا الراس الكبير وهذا الأنف الأشم وهـذه الجبهة العريضة وهذا الشعر الذهبى الناعم الذى بدأت فيه تجعدت لولبية خفيفة . ان اليدين الصـغيرتين تسحرانه ، انهما تضطربان فى حركة دائبة وكأنهما تحاولان القبض على شىء ما .. لعله العالم بأسره ... انه لك انت هذا العـالم يا بنى ... هاتان اليـدان الدقيقتان بأصابعهما الوردية الصغيرة هما اللتان اقتلعتا من أرض فرنسا جنس البوربون كما يقتـلع العشب الخبيث من الأرض الطيبة .

لم يكن من شأن هذه الجلبة الشـديدة التى اثيرت حول مولد الطفل الملكى لتمنعه من أن ينام نوما عميقا فى فراشه الوثير، ولا من أن يرضع بشراهة ثدى مدام أوشار واضعا يديه الصغيرتين فوق

صدرها الأبيض العريض . وكم ود نابليون لو أن ابنـــه هذا شب سريعا عن الطوق وجلس الى جانبه يشـــاركه اطايب المأكولات في الولائم ... انه يتعجل الزمن ... وقد حدث في احدى امسيات شهر ابريل أن وضع الاب لابنه بين شفتيه برقوقة يمصها .. ليرى ما يكون من أمره .. ولكن الطفل سعل وعطس واوشك أن يختنق، فاسرعت مدام دى مونتسكيو تنتزع منه الصغير وهى تنظر اليـه نظرة عتاب وتأنيب جعلته يحمر خجلا ويقول لها معتذرا :

ـ لم أكن أعرف .. لقد أخطأت .. اقسم لك يا سيدتى .. لن اعود الى ذلك مرة أخرى أبدا .

وفى مرة أخرى راح الامبراطور يسأل المربية عن احوال ابنه وعن اخباره فقالت له المربية :

ـ سيدى ، لقد بدأ صاحب الجلالة يتلقى التماسات النـاس وطلباتهم ..

فرد عليها نابليون :

ـ كم عند الناس من دهاء وفطنه ... وماذا قال عنها صاحب الجلالة ؟.

ـ لم يقل شيئا قط يا مولاى ..

ـ اذن ، فالسكوت علامة الرضا ..

***

يوم ٨ من يونية ، اعيد ملك روما من سان كلو الى التـويلرى وفى اليـــوم التالى ، ابتداء من الســـاعة التاســـعة اخذت المدافع ـ كما هى العادة ـ تعلن عن الاحتفال بعمـــاده ، وسرعان ما رددت النداء الأجراس والنواقيس العديدة فى كنيسة نوتردام.

وفى القصر الامبراطورى توالت الاســـــتقبالات الرســـمية والتشريفات . وفى الطرقات منـــذ الظهر اصطف الجنـود على الجانبين من قصر التويلرى الى كنيسة نوتردام ، وظلوا فى اماكنهم أكثر من خمس ساعات ينتظرون مرور الموكب .

ها هو الموكب قد أقبل أخيرا تتقدمه فرق من الفرســـان

والشرطة والرماة والمماليك الخيـــالة ، ثم يلى ذلك أربع وعشرون عربة تحمل رجال القصر والامناء والوصيفات وكبـــار القـــواد والمسئولين فى الدولة ، ثم بعـد ذلك أربع عربات فيهـا الأمراء والاميرات ومن خلفها العربة الفخمة الخاصة بالامبراطورة تجـرها ثمانية جياد وتحيط بها فرقة خاصة من الحرس حملة الرماح ، وقد جلست فى صدرها مدام دى مونتسكيو وهى تحمل على ركبتيهـا الملك الصغير وأمامها جلست مساعدتاها ومدام اوشار المرضعة .

ويلى ذلك عربة التتويج العظمى جلس فيها الامبراطور وعلى رأسه قبعة يعلوها الريش وقـد ارتدى بذلة من المخمل الاحمـر القاني فوقها معطف من نفس اللون قد انتشرت على صدره الماسات والجواهر . والى جواره جلست الامبـــراطورة فى ثوب رائع من الساتان الأبيض تزينه حرملة من نسيج الفضـة الرقيق . وعلى رأسها التاج وحول عنقها القلادات وفى معصمها الأساور فكانت هى وزوجها بملابسهما الفخمة يبهران الأعين من البريق واللمعان .

سار الموكب وئيدا وسط خلق عظيم خيم عليهم صمت عجيب وشعور مريب . مظاهر الفخفخة والاسراف هذه التى تذكر رجل الشارع بأبهه النظام الملكى البائد أليس فيها كثير من التحدى لهذا الشعب الذى لم ينس بعد أنه قام بالثـورة ؟ . ألم تسفك الدماء الغزيرة من اجل التخلص من هـذه الابهة الفارغة ومن هذا النظام الملكى البالى ؟ ... ها هو الشعب ينظـــر فى حسرة ومرارة الى الرجل الذى خرج من صفوفه وامسك بيده ازمة الحـــكم فيه ، الرجل الذى هو مدين للشعب بكل ما هو فيه من قوة وعز وسلطان ، لقد جمع من حـــوله الارستقراطيين الذين نشـــئوا وتربوا فى البلاط الملكى القديم وفتح ذراعيه للمهاجرين الذين عارضوا ثورة الشعب ، وفروا من غضبته ، فاستقبلهم واعادهم الى ما كانوا عليه من قبل من سطوه وحظوة فعادوا الى وقاحتهم وشراستهم يحتقرون أفراد الشعب ويلهبون ظهور المـــارة بالسياط اذا لم يسرعوا الى اخلاء الطرق أمامهم وتقديمهم عليهم فى المسير .

هذا الترف أثار ثائرة الشعب الجائع المحروم وحمـــــله على

التفكير فى أمر مستقبله الذى لم يكن يبشر بغير المجاعة والضرائب وساحات الحرب التى تترك فيها عظام القتلى فى العراء .

دقت الساعة السابعة عندما دخل ملك رومااالى كنيسةنوتردام الكبرى محمولا على ذراعى مربيته فوق وسادة من نسيج الفضة ملفوفة فى اكثر من سبعة أذرع من فرو السمور الثمين . لقد البسوه اجمل أرديته الموشاة بالمخرمات الانجليزية ، وغطوا راسه بقلنسوة هى تحفة من أندر التحف . كذلك وضعوا على صدره الوشاح الأكبر لنيشان جوقة الشرف العظيم الشأن ، وقد راح صاحب الجلالة يسيل عليه من لعابه الشيء الكثير حتى بلله وافقده رواءه . ومن خلف المربية سارت المرضعة تعرض بدانتها فىجلال ، وقد ارتدت ثوبا من الحرير الأبيض الغالى وقد تولى "هيبوليت" الحلاق الذائع الصيت ، تزيينها زينة خاصة بهذه المناسبة الفريدة ، فأحاط قبعتها الصغيرة بمئات من خصلات الشعر المعقربة فبدا وجهها العريض غريباً يلفت الانظار ..

جلست الأسرة الملكية فى صدر الكنيسة ومعها « الشبينان » و « الشبينتان » واحتل كل واحد منهم مقعدا تعلوه الستر الحريرية وانتشر خلف العظماء الجالسين جميع أفراد البلاط العظيم ..

وبعد أن تمت اجراءات العماد تناول نابليون ابنه بين يديهوقبله فى وجهه ورفعه الى أعلى ما يستطيع ليريه لجميع الحاضرين . عندئذ دوى بين جدران الكنيسة العالية وتحت عقودها واقواسها الشاهقة هتاف ردده الصدى طويلا : « يحيا ملك روما » .

بعد ذلك القى رجل الدين صلاة وانتهى الحفل وعاد الملك الصغير الى سان كلو فى صحبة مربيته . اما الأمبراطور والامبراطورة فقد ذهبا الى وليمة اقامتها بلدية باريس تبعتها حفلة موسيقية واجتماع للسمر . وأما الشعب فقد انصرف من ذلك كله الى ما يهمه فراح يرقص ويغنى ويطعم الى ما بعد منتصف الليل .





٩

نعم ، لقد اخذ الجو يزداد برودة يوما بعد يوم ... فى يوم ١٤ سبتمبر دخل نابليون مدينة موسكو ، وظن ان متاعبه والامة قد انتهت ، وان القيصر الكساندر سوف يعترف بالهزيمة ويسارع الى طلب الصلح . ولكن الروس قد احرقوا المدينة ودمروها قبل رحيلهم عنها ... ولم تأت من جانبهم أى عروض لعقد الصلح .

ظل الامبراطور ينتظر عبثا ، الى جوار مدينة موسكو التى احترق ثلاثة أرباعها ، أن يبعث الكساندر بمن يتحدث فى امر الصلح . وطال الانتظار شهرا . وكلما مر عليه الوقت وهو فى هذا الانتظار زادت وساوسه ، ولكن شيئا مما يشغل باله لم يظهر له اثر فى الرسائل التى كان يبعث بها كل يوم تقريبا الى الامبراطورة ويخاطبها فيها وكأنها طفلة عزيزة . ألم يكتب لها يوم ١٤ اكتوبر من موسكو هذه الرسالة :

« عزيزتى لويز . ان اهم ما يسعدنى هو أن اقرأ رسائلك ، فهذا أول عمل اعمله عندما يحضر الى الرسول . انها خطابات ساحرة مثلك ، تصف لى روحك الجميلة واستشف منها مزاياك الحلوة .

أنت كاملة الصفات ؟ صحتي جيدة جدا . لقد تلقينا الفوج الأول من ثلوج هذا الشتاء ومع ذلك فالجو ليس باردا . لا أظن ان في استطاعتي الآن القدوم الى باريس وهي جد بعيدة ولا يمكن احضارك الى بولندا . قبلي ابني ثلاث مرات من أجلي . وداعا يا حبيبتي . كلي لك . نابليون »

لقد قرر نابليون الانسحاب الذي بدأ يوم ١٩ اكتوبر . فقد بدأ الروس يستقبلون أحسن حلفائهم : الشتاء ... انطلق فرسان القوزاك يناوشون جيش نابليون العظيم ، وبدأ البرد القارص فقص من اجنحته ، وهو يتقهقر بلا تموين ولا وسائل نقل ولا مستشفيات في العراء المميت، فيفقد كل يوم جانبا من رجاله وأسلحته ومعداته هبط عدد الجيش الى ٥٠٠٠٠ رجل لا يزيدون وراحوا يقطعون - وسط مظاهر البؤس والفقر والشقاء - تلك الفيافي التي اجتازوها في الصيف الماضي وسط هالات المجد وعلامات القوة وبشائر الانتصار .. هبطت درجة البرودة الى أقل من ثلاثين سنتيجراد تحت الصفر .. وفي كل ليلة يرقد الآلاف من الرجال ولا ينهضون من رقدتهم ابدا .

لم يذكر نابليون في خطاباته الى ماري لويز شيئا يشير الى الكارثة المحيطة به . وكانت رسائله كلها متفائلة تقول : « اموري تسير سيرا حسنا ... وكل يوم يمر يقربني منك .. »

ولكن الضربة القاسية التي تألم لها نابليون كل التألم ، لم تأت من جانب فرسان الكوزاك الذين يقودهم كوتوزوف ، ولكن جاءته من داخل فرنسا نفسها .. فقد حضر اليه في يوم ٦ نوفمبر ، وهو في دوروجو برج على مسيرة ثلاث مراحل من سمولنسك ، الكونت دارو حاملا برقيات عاجلة من باريس . أسرع نابليون يفض هذه البرقيات ، فعلم منها ذلك النبأ الفظيع . لقد قام الجنرال ماليه في باريس يوم ٢٣ اكتوبر بمحاولة انقلاب كاد أن يطيح بالامبراطورية .

استولت الدهشة على كيان نابليون ، ثم اتجه تفكيره الى ماري لويز لاشك انها لم تصب بأي رعب ، وانهم هناك كتموا عنها الحقيقة

صـــوروها لها على انها عبث لا أهميـــة له من بعض المجرمين ؟ سرعان ما تبعه الهدوء .. ولابد أنها صدقت ذلك ...

ولكن الامبراطور لم يقنع بالنظر الى الأمر هذه النظرة السطحية العجلى . لقد ابرز هذا الحادث أمام عينيـــه العيب الدفين الذى يعيب نظام حكمه كله . اليس يكفى أن تجتمع ضده حفنـــة من المغامرين الافاقين ليهدموا كل ما شيده ويخربوا كل ما بناه ؟... ذلك ان الأمبراطورية كلها لا تستند الا الى شخصه هو ولا تعتمـد الا عليه . فاذا زال هذا السند زال كل شيء ولم يبق من جهـوده اثر كيف لم يفكر احد فى زوجته وفى أبنه ؟ .. فيما مضى كانت الصرخة التى تنطلق عند موت الملك هى : « مات الملك ليحيا الملك » فكانت الملكية بذلك تستمر وكأنها نهر يسيل بلا انقطاع . فهل تكون اسرة نابليون مجرد جدول صغير يستطيع أول مغامر أن يطمس معالمه ويمحو أثره ؟.. المثل هـذه النتيجة الواهية قام بحروبه وكفاحه المستمر طوال خمس عشرة سنة ، وافترق عن المرأة التى كان يعشقها ، واقترن باحـدى سليلات آل هابزبرج ، ورزق منها بولده ؟.

لو أنه استمع الى صـوت غضبه واندفاعه لطار لساعته الى باريس ولكن هل يستطيع فى هذه الظروف أن يترك جيشه العظيم الذى لم يبق فيه من عظيم غير الأهوال والكوارث التى مرت به ؟. بقى اذن مع جنوده .. بضعة آلاف من الهياكل العظمية ، عليها خرق بالية تسير متثاقلة وسط الســـهول البيضاء التى ملأها الشتاء والكوزاك بالفخاخ القاتلة فى كل خطوة ... وفى خلال الفترة من ٢٦ الى ٢٩ نوفمبر عبرت فلول الجيش نهر البيريزينا .. واخيرا فى يوم ٥ ديسمبر ، وصل الجيش الى بلدة سمورجونى .. وهنا اسند نابليون القيـــادة الى مورا واســتقل هو وكولنكور احدى زحافات الجليد ..

لم تكن مارى لويز لتشعر ، منذ بضعة ايام ، الا بالضـــيق والتوجس من الخوف وانحراف المزاج. لم ترد اليها اية رسالة من الامبراطور ، وها هى ذى تحس فيما حولها بالأسى يتزايد وبالشكوك تقوى وتتضاعف ... النساء يتململن لغيبة الأخ أو الأب أو الزوج

أو الابن ... الشائعات المثيرة تنتشر فى كل مكان ... والبلاغات الرسمية التى تصدرها ادارات الجيش لا تقوى على تدفئة الرأى العام وشد أزره ... بل ان آخر بلاغ من هذا النوع ، وهو الصادر يوم ٧ ديسمبر يشير من طرف خفى الى كارثة متوقعة .

فى ليلة ١٨ ديسمبر ١٨١٢ باتت مارى لويز مهمومة القلب شاردة الفكر .. البرد يقرصها والوحدة تقتلها ... لقد أصابها الهزال واصبحت تعالج النوم لتحصل عليه .. فجأة انتصبت فى فراشها . ما هذا الصوت ؟ . يا الهى هل هذه هى مؤامرة أخرى ؟ . هل هم المتمردون الآثمون قد عادوا ؟ هناك على عتبة باب الحجرة نهضت الحارسة ذات الرداء الأحمر التى تستعرض فى رقدتها المدخل ، تحاول عبثا سد الطريق أمام رجل اكتسى وجهه شعرا فبدا كالدب القطبى... ازاحها الرجل بيديه ودخل الحجرة مندفعا ونزع من على رأسه قلنسوته ومن على كتفيه معطفه المبطن بالفرو صرخت مارى لويز :

— نابليون ؟..

— حبيبتى لويز ...

تناولها بين ذراعيه واخرجها من فراشها وراح يمطرها قبلات وعندئذ رأت الحارسة ذات الرداء الأحمر ان وجودها اصبح لا لزوم له ، فانسحبت على أطراف اصابعها .





لقد مرت بنابليون فى الشهور الأولى من سنة ١٨١٣ ســاعات كلها قلق وخوف . فقد فهم في نهاية الأمر أن انجلترا هى التى تثير ضده أوربا بأسرها ، وهى التى تعمل فى صبر وتؤده ، من داخل جزيرتها التى تتحصن فيها ، على نشر تلك الشباك الحية من حوله ، تلك الشباك التى تعود فتلتئم كلما قطع بسيفه جانبا منها.

انها حرب دينية تلك التى تستعد لها الحكومات فى سائر انحاء أوربا وقد بذل نابليون جهدا هائلا حتى استطاع جمع جيش جديد قوامه خمسمائة الف رجل ، ليست غالبيتهم مما يعتمد عليها كثيرا فى الحــــرب . واخيرا ثارت مسألة ذات بال : ماذا يكون موقف النمسا ؟

لا يريد الامبراطور ان يصدق أن حماه قد ينقلب ضده ويعمل على غير ما يحفظ مصالح ابنته وحفيده ... انه على كل حال يرى ضرورة اكتساب النمسا الى جانبه ، وسوف تساعده مارى لويز فى ذلك . والى أن يتحقق هذا الفرض قد تؤدى بعض الانتصــارات العسكرية السريعة الى ارهاب امبراطور فيينا وامبراطورتها ووزرائهما

وهكذا قام في يوم ٢ مايو بالحاق الهزيمة بالجيشين الروسي والبروسي في لوتزن . لعل هذا النصر يهز النمسا التي لم تبد أي استعداد حسن حتى الآن . وفي يوم ١٠ مايو كتبت ماري لويز الى ابيها وحرصت على تضمين رسالتها هذه العبارة : « انى أعتقد جازمة ، بيني وبينك ، ان الامبراطور سيكون لديه عما قريب مليون من الرجال تحت السلاح » .

ولكن هذا التلميح لم يحدث أثرا لدى حكومة فيينا . وفي يوم ١٦ مايو استقبل نابليون الكونت بوبنا ، رسول امبراطور النمسا ، الذي جاء يعرض عليه الشروط التي يمكن أن يعقد الصلح على أساسها . احس نابليون بالخنق يمزقه وهو يستمع الى هذه الشروط العجيبة... التخلى عن المقاطعات الاليرية وعن بولندا وعن اسبانيا وعن اتحاد الراين وعن جزء من ايطاليا ...

صاح الامبراطور في غضب :

ـ هل المطلوب يا كونت بوبنا ، أن أشترى الصلح في مقابل شرفي وكرامتي ؟. هل المراد هو تحقيرى واذلالي ؟. اعلم ان شرفي أولا ثم يأتي بعد ذلك زوجتي وولدى وبعدهما تأتي أسرتي ...

ان ما يطلب منه يحرقه ويؤلمه :

ـ اذن ، ستكون زوجتي وهي خير الزوجات ، الضحية الأولى ؟... هل تسلم فرنسا مرة أخرى الى ايدى اليعقوبيين ، يعيثون فيها فسادا ؟. هل هذا هو الذى يقصدون اليه ؟. لا يا كونت بوبنا ، لا اريد أن يصبح الدم النمساوى مكروها في فرنسا ...

لقد فهم نابليون كل شيء ؟ وكشفت النمسا عن أوراقها. يجب الا تترك لها حرية العمل... وليس لذلك من سبيل غير النصر...

وفي يومي ٢٠ و ٢١ مايو انزل بالروسيين والبروسيين هزيمة منكرة في بوتزن ... هزيمة ظن انها حاسمة ..

ولكن الدلائل على افول نجمه لم تلبث أن ظهرت من حوله يوما بعد يوم . حلفاؤه السابقون : البافاريون والورتمبرجيون

والسكسون بدءوا ينصرفون من حوله ... وأخذ مورا في الجنوب وبرنادوت في الشمال يستعدان لطعنه في ظهره ... واخيرا احس بريح الحظ العاثر يلمح وجهه .. فقد قتل المارشال بسبير في لوتزن ، وفي بوتزن انفجرت قنبلة على بعد خطوات منه وراح ضحيتها دوروك . دوروك صديقه من عشرين سنة ، واخلص رفاقه وزميل آلامه ... لا ، ان هذه الضربة قاسية حقا ... لقد كان القدر جائرا معه ... استولى عليه الغضب وراح يبكي دمعا حارا، واذ نظر اليه جنود حرسه القدامى ، وهو على هذه الحال رثوا لحاله قائلين :

– ياله من رجل بائس مسكين ... لقد فقد احد اولاده ...

في لحظة اليأس هذه ، أقبلت النمسا في مهارة تعرض وساطتها رسميا من اجل الصلح . فقبل نابليون هذه الوساطة ووقع في يوم ٤ يونية اتفاقية الهدنة في بلسوتز ، وكان مترنيخ بطبيعة الحال هو المكلف بالتقدم الى امبراطور الفرنسيين بالشروط التي يقبل الحلفاء التفاوض على اساسها . وقد استقبله نابليون يوم ٢٦ يونية في درسدن داخل قصر ماركوليني . وقد بدأت الجلسة بينهما في ساعة الظهر .

وبينما مترنيخ سائر في الدهليز الموصل الى الحجرة التي سيستقبله فيها نابليون نظر الى القلق المرتسم على وجه رجال البلاط وكبار القواد ، في ثيابهم المطهمة بالذهب ، وقد اقترب منه برتييه وهمس في أذنه قائلا :

– لا تنس أن أوربا تنشد الأمن والسلام ، وان فرنسا بنوع خاص لا مطلب لها الا السلم والهدوء ...

احس السياسي النمساوي وهو ينصت الى هذا الهمس بفرحة دافقة تغمره ... ستتاح له الفرصة ليهزم بكلمة منه هذا السيف القاطع الذي لم يهزم قبل اليوم أبدا ...

تقدم منه نابليون وسيفه الى جانبه وقبعته السوداء تحت ابطه وقال له :

ـ هذا انت ، يا مسيو مترنيخ ، مرحبا بك . اذا كنت تسعى الى السلام حقا فلماذا جئت متأخرا ؟...

احنى مترنيخ راسه الكبير تادبا وقال في صوت وئيد .

ـ انما الأمر يتوقف عليك أنت يا مولاى ، اذا شئت ان تمنح العالم السلام والهدوء والأمن..

ـ انت تظن ذلك ؟. أيا كان الأمر ، فان سيدك لا يريد أن ييسر لى مهمتى ... لقد كسبت موقعتين حربيتين ، وأصيب اعدائي بالوهن ، وقبلوا التفاوض ... واذا بكم فجأة تندسون بيننا تحدثوننى عن الهدنة وعن الوساطة ... وتحدثونهم عن التحالف ... فيسود الارتباك كل شيء ... لولاكم لكان السلام مستتبا ... هيا ، يجب أن تعترف بذلك ، لم تعد النمسا فى جانبى ... لقد اصبحت عدوة لى ... أن المائتى الف رجل الذين جهزتموهم هم اليوم على أهبة الاستعداد ، يقودهم شوارزنبرج أنتم تظنون ان في استطاعتكم املاء احكامكم على ...

ـ ليس بعد ، يا مولاى ، انك تسيء فهم نوايانا بشكل عجيب..

ولكن نابليون أحس بأن اعصابه تثور ، فراح يمشى بسرعة فى الدهليز وهو يجر معه السياسي النمساوى ويقول له :

ـ اصغ الى يا مترنيخ ، انى مستعد لعقد الصلح ... ولكنى أفضل الموت على أن اقبل صلحا غير مشرف لى ... لقد كتبت ذلك الى الامبراطور قلت له ان شرفى وكرامتى قبل كل شيء .. وبعد ذلك يأتى الصلح ... ان ملوككم الذين ولدوا على العرش يستطيعون أن يقبلوا الهزيمة عشرين مرة وبعدها يعودون دائما الى عواصمهم وعروشهم ... أما أنا فليس هذا متاحا لى ، لانى جندى وصلت الى ما وصلت اليه بسيفى وعزيمتى ... أن سلطانى لن يعيش يوما واحدا بعد اللحظة التى افقد فيها قوتى ، اى بعد اللحظة التى تزول فيها هيبتى ويهتز فيها سلطانى .

ظل النمساوى صامتا ومغمض العين ، منطويا على نفسه ، مستعدا للوثب على عدوه . وقد توقف الامبراطور عن الكلام وحاول

التقاء نظره بنظر الوزير الذى ظل متهربا ، واخيرا قال له بلهجة الواثق :

ـ لقد فهمت ما يدور فى خلدك ، يا مترنيخ ، أن حكومتك تريد انتهاز فرصة الضيق الذى اعانيه وتحاول مضاعفة هذا الضيق بقدر ما تستطيع لتسترد ولو جزءا مما فقدته .. هناك سؤال يثار امامكم . هل فى استطاعتكم أن تبتزوا منى ما تريدون من غير ان تحاربونى ؟. من غير أن تجردوا الحسام وتنحازوا الى جانب اعدائى ؟... لنبدأ المساومة ... فانا راض عنها ...

انطلق مترنيخ عندئذ فى حديث دبلوماسى طويل . تكلم عن الاحترام الواجب للحقوق وعن السلم الذى تضمنه مشاركة من الدول المستقلة ... راح يحلق فى السحب البعيدة ويتحدث عن اشياء مبهمة ... فتضايق نابليون من هذا الهراء وصرخ يقول :

ـ قل كلاما أكثر وضوحا من هذا ، ولا تنس انى جندى خبير فى القطع جاهل للانحناء ... لقد عرضت عليكم المقاطعات الايليرية ثمنا لحيادكم : فهل يرضيكم هذا ؟... ان جيشى كاف تماما لحمل الروسيين والبروسيين على التعقل والخضوع .. لا اطلب الا حيادكم ...

اجابه مترنيخ قائلا :

ـ آه يا مولاى ، لقد تطورت الأمور بحيث لم يعد فى استطاعتنا ان نلتزم الحياد ... يجب أن نكون أما معك ، واما ضدك ...

هذا الصوت المعسول ... لقد فهم نابليون كل شىء ... انها صفقة تعرض عليه ... استدرج الوزير النمساوى فى احدى القاعات وقال له :

ـ قل لى ، ماذا تريد ؟.

هبطت يد الوزير على خريطة اوربا وكأنها مخالب كاسرة . وكل حركة من هذه اليد تبدو وكأنها تقتلع من قلب الامبراطور هبرة من اللحم والدم ... لقد خنقه الغيظ وكأن رباطا شد حول عنقه :

ـ ما هذا؟..الم تكفكم ايليريا فتطلبون ايضا نصف ايطاليا... وهولندا واسبانيا ، وبولندا واتحاد الراين ؟... كل شىء ؟ ...

أهذا ما تسمونه روح الاعتدال ؟.. ان مجمل القول هو أن السلم ليس الا حجة تتعللون بها ... انتم جميعا لا تقصــــدون الا الى تقسيم الامبراطورية الفرنسية .. لو أمكنكم لهدمتم بجرة قلم واحدة اسوار دانترج ومجد بورج وانفرس ومانتو وعشرين مدينة اخرى لم احصل على مفاتيحها الا بالنصر والفتح ...

وعاد فاصطحب مترنيخ مرة أخرى الى الدهليـــز حيث راح يسير كالمجنون وهو يقلب قبعته ويقول :

ـ وفى أى وقت تفخر النمسا بمحاولة حملى على قبول هذه الشروط ، من غير ان تجرد ســيفها ؟.. فى أى وقت ؟... فى الوقت الذى ما زالت فيه أعلامنا ترفرف فوق مصاب نهر الفستولا؟ والذى تطرق فيه جيوشى المنتصرة ابواب برلين وبرسلاو ، والذى اقود فيه بشخصى جيشا من ثلثمائة ألف رجل ؟.. لا .. ان هذا القول لهو اهانة لى لا تحتمل ...

واخذه الغضب فالقى بقبعتــه على الأرض ، وراح يدوسـها بحذائه ، لقد شحب لونه وزاغ بصره وتقطعت انفاســه ... ظل مترنيخ جامدا لا يتحرك ، تاركا الزوبعة تمر ، وقد ارتسمت على شفته ابتسامة لا يفهم لها معنى ، عاد نابليون يقول فى غضب :

ـ وحميى هو الذى يتلقى مشروعا كهذا ؟... هو الذى بعثك الى به ؟.. انه لمخطىء أشد الخطأ لو انه ظن أن عرشا مهشما فى فرنسا يصلح مأوى لابنته ولحفيده ...

وفجأة استدار نحو الوزير النمساوى وسار اليه فى عزم جعل الوزير يتراجع ثم امسك بخناقه وسلط عينيه فى عينيه وقال له :
ـ قل لى ، يا مترنيخ ، كم دفعت لك انجلترا من المال لتحملك على القيام بهذا الدور ضدى ؟...

ارتجف الوزير عند سماعه هذا الكلام ، وانقلب لون وجهــه الى لون الرماد ، وانبعث من عينيه بريق مضطرب لم يلبث أن انطفأ بين الجفنين الثقيلين . عض نابليون على شفتيه وادرك ان الكلام قد افلت من لسانه وانه قد أشعل فى قلب محدثه نارا لن يطفئهـا غير الموت ... عاد النقاش بينهما ، وعادت الساعات تمر مسرعة .

واستمر الخصمان يتبارزان ويتصارعان . النمر الهـائج الذى يضرب بكفه الفضاء ضد الثعبان الماكر الذى ينساب ويفـلت من القبضة ليعود ناشرا حلقاته المميتة حول فريسته بلا ملل ..

قال مترنيخ فى هدوء وبأسلوب الناصح :

ـ هل ستعاود الحرب يا مولاى ؟ .. قد يخون الحظ فرنسا هذه المرة ... وليس لديك غير جيش من الصبيان ..

انتفض نابليون تحت وخزة هذه الاهانة ، واسرع يفحم محدثه وقال :

ـ انت لست جنديا ، ولست تدرى ما الذى يجول فى صدر الجندى ... أما أنا فقد شببت وترعرعت فى ميادين القتال ... ان رجلا مثلى لن يهتم الا قليلا بحياة مليون من الرجال ... على كل حال ، لم يمت فى روسيا غير ثلاثين الف فرنسى .. أما الباقون فكانوا من البولنديين ومن الألمان ...

رد عليه مترنيخ :

ـ هل نسيت انك تخاطب المانيا ؟...

سكت نابليون مشدوها ... لقد ارتكب خطئا آخر . فانتهـز الآخر هذه الفرصة وقال فى وقاحة :

ـ ما الذى يجعلك تبوح لى بهذه الحقيقة بين اربعة حوائط؟... لنفتح الأبواب ولترن كلماتك هذه فى فرنسا من أقصاها الى أقصاها.. ولن يلحق من ذلك خسر بالقضية التى ادافع عنها ...

امسك الامبراطور عن الكلام لحظة طويلة ، وانحنى يلتقـط بنفسه قبعته ، لو ان السنوات عادت الى الوراء لكان مترنيخ هو الذى يقدم له هذه القبعة راكعا عند قدميه . واخيرا قال :

ـ هكذا ... لقد ارتكبت خطئا كبـيرا بزواجى من احدى ارشيدوقات النمسا ؟..

أخذ مترنيخ يزن كلماته وهو يرد على نابليون :

ـ ما دمتم جلالتكم تريدون رأيى ، فانى اقولها لكم صريحة : ان نابليون الغازى قد جعل منها ...

ـ هل يريد الأمبراطور فرنسوا ان يضع اخرى على العـرش بدلا من ابنته ؟.

احس مترنيخ أنه قد أحكم قبضته على خصمه فقال :
ـ ان الامبراطور ملك قبل كل شيء ، وسيكون صالح شعوبه دائما هو الدافع الأول لقراراته كلها .
هز نابليون كتفيه وقد عاد الغضب اليه ثانية :
ـ ليكن ، لقد ارتكبت غلطة لا تمحى بزواجي من الارشيدوقة لقد أردت أن ادمج الماضي في الحاضر ، ولكنني أخطأت التقدير ، وهاأنذا اشعر بمدى ما وقعت فيه من خطأ ... قد يهتز عرشي وينهار ولكنني سوف أدفن العالم كله تحت انقاضه .

كانت هذه هي الانتفاضة الأخيرة ،واقبل المساء واقتربت الساعة من الثامنة . شعر نابليون بالتعب فراح يبحث عن الراحة بالتفكير لحظة في ابنه ، انه انما يكافح من أجل هذا الملك الصغير ، من اجل هذا الرأس الأشقر الذي أقام له هذا المستقبل الباهر ، فأبى الحظ الا أن يقلب أسس هذا المستقبل . ثم ادار نظره نحو مترنيخ ، هذا الرجل الذي أجزل له في العطاء ووثق فيه لحظة من قبل ، هذا المتملق الذي كان يهتف بحياة ملك روما قبل أن يولد ملك روما ... يالمرارة القدر . يالسخرية الحظ ... انه على الرغم من كل شيء يشعر نحو هذا الرجل بنوع من الاحترام والتقدير ، ويفكر في تاليران الذي غدر به وخانه .. كم كان يتمنى أن يكون في خدمته مثل هذا الرجل المخلص الأمين ...
عاد نابليون يبذل جهدا اخيرا . فربما نجح اللين حيث فشل التهديد والعنف ولطالما كسب كثيرا من المواقف بجاذبيته وسحر شخصيته فتكلف الرقة والدعابة وقال وهو يصحب مترنيخ ليودعه :
ـ هيا ، سوف نلتقي ثانيا أرجو ذلك ...
ثم وضع يده على كتف الوزير وقال ببراعة :
ـ هل تعلم ما الذي سيحدث ؟ لن تحاربوا ضدي ...
وصل الرجلان الى خارج الباب ولفهما الظلام باستاره . ادار مترنيخ عينيه اللامعتين ببطء شديد نحو الامبراطور ، وقد اطلت منهما نفس حانقة وقال هامسا من غير أن يخفض نظره :
ـ لقد قضي عليك ، يا مولاي ...





- نظر نابليون حوله فوجد الهاوية تحيط به ، هل يلقى بنفسه فيها ؟ انه يريد قبل ان يموت أن ينظر مرة أخرى الى تلك المرأة التى احبها كثيرا ، وان يغمس نفسه ، قبل المغامرة الأخيرة ، فى بحر من الحنان . ان مارى‌لويز قد «وحشته» .. انه يريد أن يضمها للمرة الأخيرة على صدره ... أخذ يدعوها الى الحضور اليه فى ماينس يوم ٢٤ يولية . منذ أن افترق عنها لم يترك يوما واحدا من غير أن يكتب اليها . فهى زوجته الصغيرة التى لا تدرى من حقيقة ما يحيط به شيئا . وهو يكتم عنها الواقع الذى تتضح معالمه يوما بعد يوم والذى ينذر بالهلاك والدمار . انه يلجأ فى احلك الساعات واخطرها ، الى الكذب والتمويه حتى لا يزعجها ، ويتكلف الانبساط والثقة ويحاول مداعبتها ... لقد كتب اليها فى اليوم التالى للقائه مع مترنيخ يقول : « ... أضحكنى كثيرا كلامك عن الغيرة التى يبديها الملك الصغير . كم أنا مشتاق لرؤيته ... قبليه ثلاث مرات نيابة عنى ... هل شاهدت الفيل فى حديقة الحيوان ؟ ... »

تركت الامبراطورة ابنها ملك روما ، فى سان كلو ، فهى تحبه كثيرا ولكنها لا تهتم بشىء من أمره الا عندما تأمر ايزابى أو جيرار

برسمه وتصويره ... تركته في رعاية مدام دي مونتسكيو ، التي اظهرت جدارة فائقة واستحقت الثقة التي وضعها فيها نابليون . ان اهتمام المربية لا يقتصر على صحة الطفل فقط وانما يمتد ايضا الى تربيته وتعليمه ، وتنمية ذهنه وادراكه . لقد شب الفتى قويا ناميا ولكن ذكاءه ما زال خاملا .. وقد رات المربية أن تضم اليه زميلا يلاعبه ، لعل الزمالة تفتق ذهنه ... فاختارت لذلك البير ، ابن مدام فرومان ، احدى سيدات الحاشية ... البير هذا يكبر الملك بسنة واحدة ولكنه يجهل ما يجب من احترام للملوك ...وقد انطلق الطفلان في اللعب والشجار والتضارب أيضا..وقد حدث في أحد الايام أن أراد البير الاستيلاء على العجلة التي يتمسك بها الملك ولا يريد النزول عنها ... وارتفع الصراخ ... وراح الأمير يقول في غضب : « لن تأخذها ... لن اتركها لك ... » ولكن البير تشبث ببغيته ، وظل يجذب العجلة من يد زميله الذي أمسك بها في قوة واذ عجز الطفل عن استخلاص ما يريد انهال على الأمير ضربا ولكما...ولم يغفل الملك الصغير عن مدى هذه الاهانة واحس بفداحة الجرم الذي ارتكبه زميله في حقه ، فنظر اليه وقال : « ... لو أن احدا رآك الآن ؟.. ولكن ... اطمئن .. لن اذكر من ذلك شيئا ... »

كان من نتيجة هذه الزمالة أن تقدم الأمير تقدما ملموسا وانطلق لسانه في الكلام ، فبدأت مدام دي مونتسكيو تعلمه الأبجدية ..انه يطفح حياة وقوة لا يكف عن الحركة ، ولا يهدأ في مكان ، حتى اضطرت المربية الى اقامة الشباك حول سريره ومقعده لتتلقفه اذا ما سقط او مال .

وقد رات المربية ، بعد ان تفتح ذهنه للفهم والادراك ، الا تترك فرصة تمر من غير أن تلقي عليه درسا في آداب السلوك والاخلاق . فعندما حدث ، وهو في احدى حالات الغضب ، ان القى بنفسه على الارض وراح يتمرغ ويصرخ صرخات عالية ، قامت مدام دي مونتسكيو الى النوافذ فاغلقتها والستر فاسدلتها ، من غير أن تنبس بكلمة واحدة ، وعندما رأى الأمير الصغير نفسه وقد احاطت به الظلمة فجاة توقف عن الصراخ ، وقال لمربيته :

ـ ماما كيو ... لماذا اغلقت النوافذ ؟...

ـ خوفا من أن يسمعك أحد ... هل تظن أن الفرنسيين يرضون لانفسهم اميرا مثلك ، لو انهم علموا انك تثور وتصرخ هكذا ؟...

وقف الأمير مشدوها ، واخذ يفكر لحظة ثم قال :

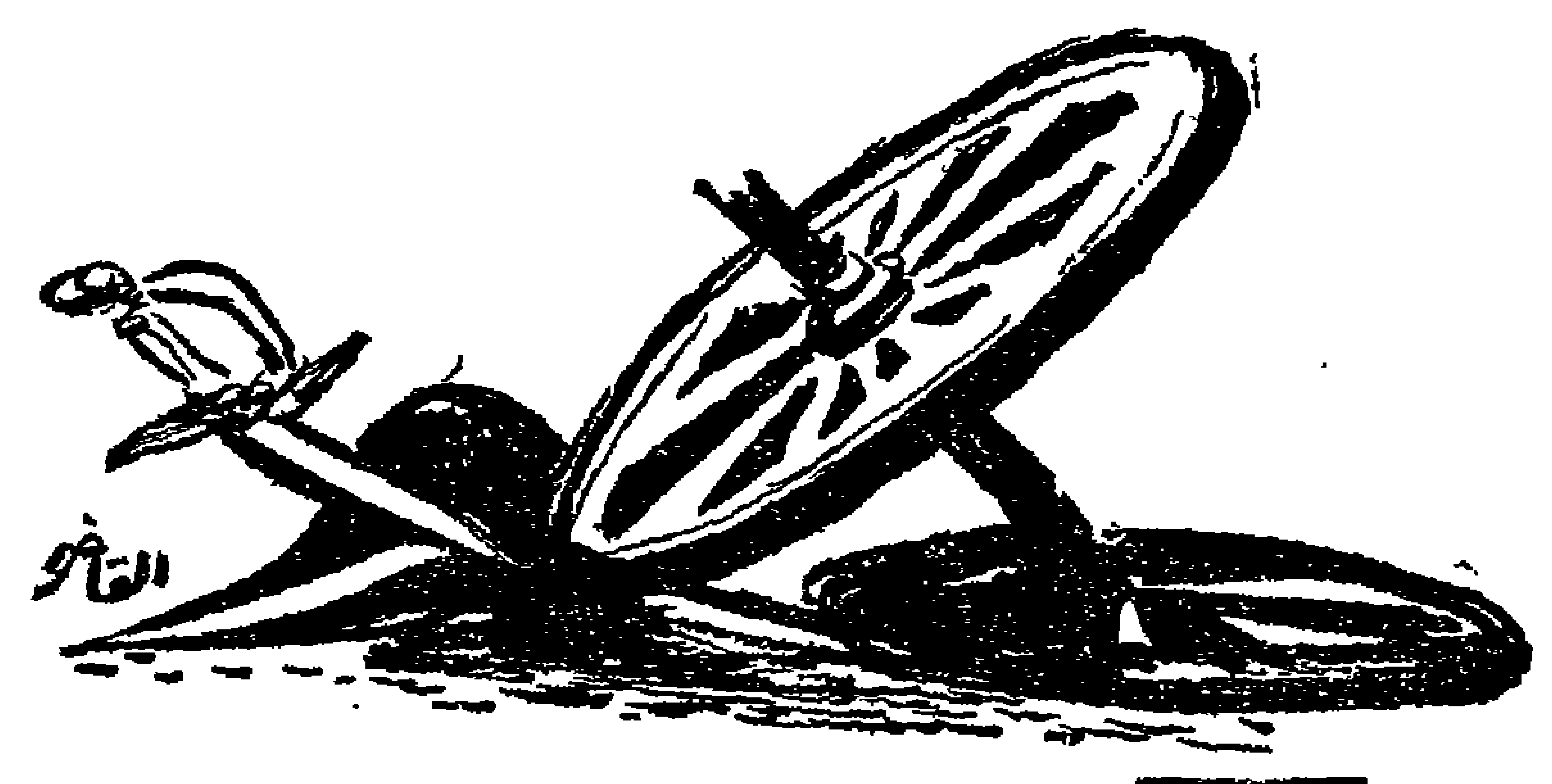
ـ هل تظنين أن أحدا قد سمعنى ؟.. لكم يحزننى ذلك كثيرا ..

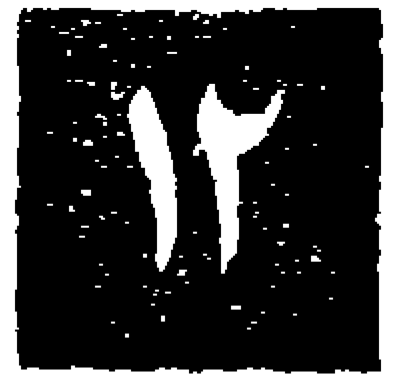
اغفرى لى يا ماما كيو ، لن أعود الى مثل هذا أبدا ..

وفى مرة اخرى ، رأى ملك روما ، فى احدى نزهاته ـ خارج القصر ـ صبيين فى مثل سنه يلعبان فى مجارى الطريق ... كانا قذرين فى ثياب مهلهلة . ولكن فى متعة عظيمة بلهوهما هذا . وقد انصرف الأمير بكل انتباهه الى ما يقوم به الطفلان من مرح ولعب وسط الطين والماء القذر ، فاضطر مرافقوه الى حمله بما يشبه القوة على الانصراف ومغادرة هذا المشهد الذى لا يليق بالأمير أن يراه ... لم يقل الملك الصغير شيئا لتوه ... ولكن بعد ساعة عندما وصل الى القصر ، احست مدام دى مونتسكيو بيد صغيرة تجذبها من طرف ردائها ، وبصوت غلام عليه حلل الحرير والمخمل ويحمل من المجوهرات أغلاها يقول لها فى استعطاف وتذلل :

ـ ماما كيو ؟.. اذا بقيت عاقلا تماما ... هل تسمحين لى بأن أذهب لاتمرغ فى الوحل ...







٢ اغسطس غادرت مارى لويز الامبراطور فى ماينس ، وعادت الى سان كلو عن طريق كولونيا واكس لاشابل وليبيج وكومبينى. وكان عليها ان تتعجل السير فقد قرر نابليون ان تقوم هى، فى نهاية الشهر ، بافتتاح أحواض السفن الجديدة فى ميناء شربورج .

اما الأمبراطور فقد ذهب لينضم الى جيوشه . فالساعة حاسمة وهو يعرف الآن ما يجب عليه عمله ... فلم يسفر مؤتمر براج عن اى شيء وانضمت النمسا علنا الى جانب بروسياوالروسيا عدو جديد يجب محاربته .. وقد أصبح ، لما وصلت اليه الاوضاع ، لا يهتم بعدد اعدائه ...

٢٧ اغسطس ، فى درسدن ، ب ١١٠٠٠٠ رجل هزم ٢٠٠٠٠٠، من الروسيين والبروسيين والنمساويين معا . وفى ٢٩ اغسطس كتب الى مارى لويز يقول : « عزيزتى لقد حاربت فى موقعة رائعة، واعطيت علقة ساخنة للبرنس شوارزنبرج والامبراطور الكسندر اما قوات بابا فرنسوا فلم تكن فى يوم من الايام أسوأ مما كانت عليه فى يوم الواقعة ... بلا نظام وعارية تماما ... لقد اخذت منها ٢٥٠٠٠ اسير و ٣٠ علما وعددا كبيرا من المدافع سأبعث اليك بكل هذا ... »

وفى اليوم التالى كتب اليها يقول : « اطبعى قبلتين من جانبى على جبين الملك الصغير .. لقد قيل لى أنه يتكلم الآن كما يتكلم الخطيب ... انى اتحرق شوقا لرؤيته ... لقد أحرق الروس أكثر من عشر قرى صغيرة فى بوهيميا ... لست أظن ان ذلك مما يسعد كثيرا بابا فرنسوا » ..

ها قد حلت موقعة لايبزج ، موقعة الشعوب التى استمرت اياما ثلاثة من ١٦ الى ١٨ اكتوبر . لقد ظن نابليون ان النصر أصبح فى يده ، ولكن النصر أفلت من يده عندما انصرف عنه حلفاؤه السكسون فى وسط المعركة وخانوه . ها هو بدوره قد ذاق مرارة الهزيمة وفقد من رجاله خمسين ألفا .

أنه يتقهقر الآن مسرعا بما بقى له من فلول جيشه ، وقد تصدى له عدو جديد رهيب ، هو التيفوس ... أنه يفر سريعا وفى فراره هزم يوم ٣٠ من اكتوبر فى هاناو جيشا من البافاريين والنمساويين حاول أن يقطع عليه الطريق ... ولقد ارسل الى مارى لويز الاعلام العشرين التى استولى عليها فى خلال المواقع السابقة ... لعلها تخفف من وقع الكارثة فى باريس ... يوم ٢ من نوفمبر عبر نهر الراين وبعد ذلك بسبعة أيام كان فى المساء فى سان كلو حيث كان الجميع يعيشون منذ شهر كامل فى قلق زائد لانقطاع اخباره عنهم .

احتضن مارى لويز وبحث عن ابنه . اين الملك الصغير ؟ ... أنه فى حجرته يستعد للنوم ... قال الامبراطور : « سأذهب اليه فى حجرته » دخل نابليون الجناح الخاص المخصص لابنه ووقف عند الباب ينظر ... ها هو ذا الطفل فى قميص أبيض طويل راكعا عند مقعد صغير ، وقد جمع ما بين يديه ، وانتشر شعره الذهبى حول رأسه فبدا كالهالة الشقراء فى ضوء الشموع وراح يلقى صلاته مرددا فى خشوع الكلمات التى توحى اليه بها مدام دى مونتسكيو الواقفة الى جواره : « يا الهى ... اجعل ابى ... يمنحنا السلام ... من اجل هناء ... فرنسا » .

ازاح نابليون خصلة الشعر التى تتدلى على جبهته ، واستند الى جدار الباب لقد استحال عليه الدخول الآن ... ان ابنه يطلب السلام .. وهل فى استطاعته الآن أن يتحكم فى أمر السلام ؟ .





٢٣ يناير ١٩١٤ ، اليوم يوم أحد ، والجو بارد ، والاخبار السيئة تجتاح باريس وتنشر فيها رياحها المسمومة ... فى الشمال ، وفى الشرق ، العدو يتقدم ، والاهالى يفرون امام جنود القوزاق والأوهلان يخربون البلاد ويحرقون القرى ويعتدون على النساء ...

أحس نابليون بأن هذه الريح ، ريح الخوف والرعب ، قد قتلت الشجاعة فى قلوب الباريسيين ... لقد انتظر حتى آخر حدود الانتظار ... ولم يبق أمامه الآن غير التوجه بنفسه الى الحرب والعمل على طرد الغزاة خارج اراضى الوطن .. ولكن من ذا الذى يدافع فى غيبته عن العاصمة ، وعن الزوجة والابن اللذين سيتركهما فى العاصمة ؟...

اطال التفكير فى الأمر ، وأخيرا اهتدى الى ما يجب عليه عمله ؟ وأمر باعداد التمثيلية اللازمة لذلك ... ففى ذلك اليوم ، بعد سماع القداس فى الكنيسة ، غادر نابليون المكان ومعه مارى لويز واتجه نحو قاعة الماريشالات حيث اجتمع ستمائة من ضباط الحرس الوطنى . وما ان دخل الى القاعة حتى انفتح فى الجهة

المواجهة له باب برزت منه مدام دى مونتسكيو تحمل بين ذراعيها ملك روما .

وقد روعى بهذه المناسبة أن يرتدى الأمير الصغير زيا من ازياء ضباط الحرس الوطنى مع قبعة صوفية ذات علامة مثلثة الالوان يزينها الريش الابيض ، وعلى صدره الصليب الاكبر لنيشان جوقة الشرف وقد حلى بالماس .

امسك نابليون ومارى لويز كل منهما باحدى ذراعى الطفل وتقدم الجميع وسط الضباط الذين اجتمعوا على هيئة دائرة ، وقال الامبراطور بصوت قوي :

ـ انا ذاهب لاقود الجيش واهزم أعداءنا .. وأنتم على علم بالأخطار التى تتهدد الوطن ... وستمكننا همتنا وشجاعتنا من مواجهة هذه الأخطار وهزيمتها ...

وراح نابليون يصف فى عبارات مؤثرة جحافل البرابرة التى تلوث بوجودها تراب فرنسا ، والمصائب التى حلت بالاهالى الفلاحين ، والأمة بأسرها التى نسيت خصوماتها وهبت الى سلاحها تدافع عن الحرية ... وفجاة ، ارتجف صوته وتكسرت نبراته تحت تأثير الانفعال الشديد الذى لم يستطع كتمانه وقال :

ـ أنتم الذين انتخبتمونى .. فانا صنيعتكم .. وعليكم أن تدافعوا عنى وتحمونى ..

ثم دفع امامه مارى لويز وملك روما وقال :

ـ انى اترك فى حمايتكم اعز ما املك بعد فرنسا ... زوجتى وولدى .. انى اعهد بهما اليكم ... اعهد بهما الى حب مدينتى الوفية باريس ... انتم المسئولون عنهما ... اليس كذلك ؟.. انتم المدافعون عن حياتهما ...

توقف عن الكلام وقد رفع ذراعيه وشمخ براسه ، وجال بعينيه فى وجوه هؤلاء الرجال الستمائة المصطفين حوله ثم عاد يردد فى ثقة .

ـ ستدافعون عنهما اليس كذلك ؟... ستحمونهما ...

سرى بين الموجودين ما يشبه التيار الكهربائى ، فاهتـــزوا بعنف وارتفع من حناجرهم صوت يدوى كأنه الرعد :
ـ نقسم على ذلك ... نقسم على ذلك ...

ما كاد نابليون يسند مارى لويز التى اغمى عليهـا من شـدة التأثر لما رأت حتى سارع الى تركها بين يدى حاشيتها ، واخذ الملك الصغير بين ذراعيه وسار به امام رجاله الذين راحوا يهتفـون له ويهللون . ثم خرج به الى ميدان الكاروســـيل حيث كان رجال الحرس الوطنى مصطفين للاعراب عن حماستهم وتأييدهم وسار الامبراطور أمام صفوفهم ، يريهم الصبى ، ويرفعه فى الهواء ، ويطبع عند كل خطوتين قبلة على جبينه . ان السعادة تغمره وقـد كسب مرة أخرى ، وسط الهتافات والدعوات ، قلب مدينة باريس وحبها لقـد اسكره الهناء ، وملأته الثقـة واستولى عليه الكبرياء ، وراح يخاطب نفسه :

ـ انا على يقين ، هذه المرة ، من النصر المؤزر .

***

حان موعد الرحيل ، وأصدر نابليون توصياته الاخيرة الى أخيه والى شامبانى ، أمين الوصاية على العرش ، والى منيفال ، القـائم على شئون مارى لويز . وكان يقول للجميع :

ـ اجعلوا الامبراطورة فى حالة انشراح دائم وجنبوها الهموم والاحزان . واذا ما وقع لى مكروه ، فهونوا الأمر عليها ، وخففوا من وطأته حتى لا تصدم به صدمة عنيفة ...

يوم ٢٤ يناير ، طوال فترة ما بعد الظهر ، اغلق باب مكتبـه الخاص عليه وعلى ملك روما . فقد ابدى رغبته فى أن يكون الطفل له وحده بضع ساعات . لم يغادر الصغير ذراعى أبيه فى هذه المدة ولم يخرج بعيدا عن أحضانه ... ها هو ذا للمرة الأخيرة يعيد على البساط دراسة التحركات التى أعدها فى رأسه للموقعة المرتقبـة انه يستخدم فى ذلك قطعا من الخشب ... هنا بلوخـــر ... وهنا شوارزنبرج ... وفى الوسط ... جنود سوكن ويورك ...

اسند نابليون راسه فوق كفه وراح يفكر ... هل الخير له أن يهاجم العدو من اليمين او من اليسار ؟ . اليس الاحكم أن ينقض عليه في الوسط ؟.. فجأة مد الطفل يده ، وحرك بعض القطع ورفعها من مكانها ، ثم راح ينظر الى ابيه في وجل ... هل سيؤنبه على ما فعل ؟... ولكن الامبراطور اسرع يقبل ابنه وهو يصيح :

ــ مرحى ، مرحى ، ... هذاهو النصر يا بني .... هكذا كان يجب أن تقاد المعركة .... مرحى بك ، ايها الشقي ، هاانتذا تعلمني الدروس منذ الآن ....

وراح نابليون يلاعب صغيره ، ويدحرجه على البساط ، ويقص عليه الحكايات ويهدهده على ركبتيه ويقول له :

ــ هيا بنا ، هيا بنا ، نهزم بابا فرنسوا ....

ويضحك الصبي من قلبه ويصفق بيديه ويسيل الدمع من عينيه سرورا .

لقد أوى الملك الصغير الى فراشه ينعم بالنوم الهادىء .

وها هوذا نابليون يتناول العشاء مع ماري لويز وهورتنس ثم يصحبهما الى مكتبه . جلست كل منهما الى أحد جانبي المدفأة التي ارتفع منها اللهب عاليا ، بينما راح هو يسير في طول الغرفة وعرضها ، يفتح الخزائن ، وينظم الأوراق ، ويقذف بلفافات كبيرة منها في النار ، فيتصاعد ضوء باهت ينعكس على وجه المرأتين الساهمتين وقد وضعتا كلتاهما يديها على ركبتيها لا تنبس بكلمة وفي أثناء رواحه ومجيئه يقبل ماري لويز ويمسح بيده على صدغ هورتنس ويقول :

ــ ما هذا ؟... اصرفا هذا الحزن ، وضعا في الثقة .... أم أني لم اعد اتقن مهنتي التي شببت عليها ؟....

ــ كلا ، بل ثقتنا كلها فيك ....

واخذت الساعات تنقضي .. وانتصف الليل .. ودقت الساعة الثانية... لقد جاء الخادم أكثر من مرة ليجدد الشموع التي ذابت ويلقي في المدفأة بدلا من الخشب الذي احترق .... ها قد حانت ساعة الفراق ... قالت ماري لويز !

ــ سينالك منك التعب كثيراً ...

ــ سأنام في العربة ، كما هي عادتي .. وسأكون في شالون هذا المساء ...

ثم اخذ زوجته بين ذراعيه وقبلها بقوة،وحاول مداعبتها فقال :

ــ سوف اهزم بابا فرنسوا هذه المرة أيضا .. ارجو الا يحزنك هذا .

رفعت ماري لويز نحوه عينين اثقلهما الدمع،والخوف وتشبثت به وهي تقول :

ــ ستعود الينا قريبا ؟...

لم يرد بشيء ... ان في قلبه قوة تفرض عليه الا يهزأ بالقدر ولا يكابر في الغيب ... وبعد فترة من الصمت قال :

ــ اما هذا ، يا غرامي ، فعلمه عند الله ...

ترك الامبراطورة مغمى عليها بين يدي مدام مونتبلو واسرع نحو جناح ملك روما ... ان آخر وجه حبيب يود ان ينظر اليه ويملأ منه ناظريه هو وجه ابنه ...

دخل الغرفة التي يضيئها سراج خافت ... ها هــو الملك الصغير في مهده وقد انتصب عند قدميه النسر البرونزي الصغير يحدق بعينيه في النجم الامبراطوري الذي ينشر اشعته فوق رأس الطفل وكأنه يظلله ويحميه ... انه ينام وقد انتشرت حول وجهه خصلات الشعر الذهبي فكست الوسادة ضوءاً ...

راح نابليون ينظر مليا الى هذا الوجــه الحبيب ... الرمش الطويل ينشر ظلاله على الخد الوردي المســتدير ... ومن بين الشفتين تظهر الأسنان الدقيقة البيضــاء ... ومن خلال القميص المفتوح تلمع البشرة الحريرية نابضة بالحياة ...

عسير على الامبراطور ان يهرب من سحر النظر الى هذا الكائن الصغير ... أحب انسان اليه في هذه الحيــاة ... اخذ يتمتم « ابني ... صغيري »

انه يستمد من النظر الى ابنه عونا له وامنا ، وفي اعتقاده ان

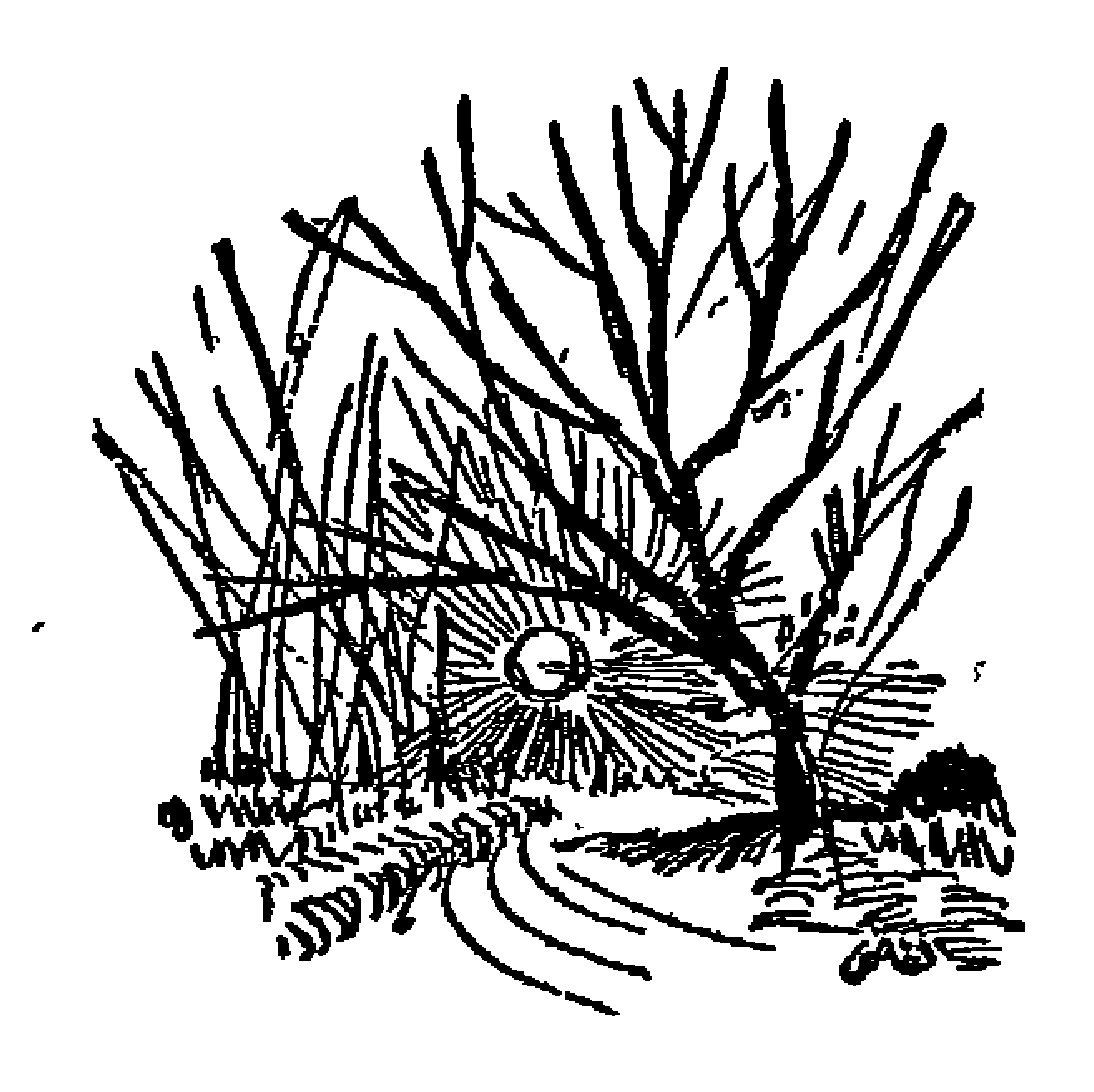
الصورة التي سيحتفظ بها من هذا الطفل سوف تحميه من الأذى وتصونه من الموت ... آن وقت الرحيل .. ان العربة الصفراء التي طالما حملته الى أربعة أركان أوربا تنتظره منذ ســـاعات أمام باب القصر .. الخيل تضرب الأرض بحوافرها ، وقائد الركب برتران قد بدأ يفقد الصبر على الانتظار .

انحنى نابليون فوق المهد ، وفي رقة عظيمة ، وضع شمعتة على جبهة الطفل النائم عند منبت الشعر .. تقلب الطفل وعاد يغط في نوم عميق ، كأنه الماء الجارى في خرير عذب .

انتصب الامبراطور واتجه نحو الباب ... وعند العتبة توقف والقى نظرة أخيرة في اتجاه هذا الطفل البرىء ذى الشعر الأشقر الذى سيموت من أجله خلق عظيم ...

انتهى كل شيء ، وانطلق الامبراطور وسط الظلام وفي غياهب المجهول . ومن خلفه ارتفعت يد خفية لتجذب ذلك الستار الحديدى الذى يفرق ما بين الأحياء ، ويفصل بعضهم عن بعض الى الأبد ..

بعد اليوم ، لن يرى نابليون زوجته ولا ابنه ابدا ..





١٤

يبدو منذ أسابيع ان هناك اشباحا ثقيلة تحـوم حول قصر التويلرى وقد اخذت الانباء على الرغم من الخطـر ، تتسرب الى داخل القصر وبدأت مارى لويز يخامرها القلق والشك . أما ملك روما فهو يعيش وسط الاحداث لاهيا عنها فى ميوعة الصبا . ولكن ناظريه لم يغفلا مع ذلك عن بعض التغيرات التى حدثت فيما يحيط به ... لماذا يلبسونه كل يوم بذلة رسمية ؟... لماذا يفرضون عليه فى الامسيات ان يستعرض الجند ويحضر الاحتفالات ؟... لماذا يتوارى الناس من حوله ليبكوا ثم هم بعد ذلك يضحكون ؟... لقد أصبح الطفل عصبى المزاج ، مضطرب النوم ، كثير البكاء .. لقد اضطرت مدام مارشان الخادمة التى تشرف على نومه ، أن توقظه وتهدىء روعه ... وعندما سألته أمه فى الصباح عما اقلقه فى نومه ، لم تستطع أن تحصل منه على شىء غير هذه الكلمات « لقد حلمت بأبى الحبيب ... »

وكان ذلك فى الليلة ما بين ٢٠ و ٢١ مارس ، فى نهاية ذلك اليوم الذى حاول فيه نابليون عبثا ان يلتقى مع الموت فى موقعة

اوستيس سير آوب . وكان الطفل قد اكمل فى اليوم السابق ثلاث سنوات من عمره .

***

٢٨ مارس .. انتشرت الشائعات الملحة تذيع الرعب فى القلوب ... لقد اصبح العدو على بعد خمسة فراسخ من باريس وصار واجبا على الحكومة ان تتخذ لنفسها قرارا حاسما ...

اجتمع مجلس الوصاية فى الساعة الثامنة والربع فى مكتب نابليون وحضره كل من مارى لويز والكبراء والوزراء ورئيس مجلس الشيوخ .. الكل ينظرون بعضهم الى بعض متسائلين : ما الذى يجب عمله ؟... ان السؤال الذى يطلب جوابا هو : هل تغادر الامبراطورة ومعها ملك روما باريس ، أم تبقى فيها .. ؟ بدأ وزير الحربية ، كلارك ، الحديث فقال ان المدينة لا حصون لها ،ولا يمكن الدفاع عنها ، وان الجنود لا يكفى عددهم للقيام بأى عمل .. عندئذ سأل تاليران :

— وكم عددهم ؟...

— لا يزيد على اربعين الفا ... أما الروسيون والبروسيون فلديهم أكثر من مائة ألف رجل ...

ابدى الوزير كلارك رايهبضرورة سفر الوصيةعلى العرش ومعها ملك روما فى الحال . وثار جدال ... شامبانى وسافارى ومعهما أكمبا سيريس وتاليران يرون من الخطأ الجسيم أن تترك الامبراطورة باريس ، والا انهارت معنويات الاهالى وسلموا بالهزيمة ... من رأيهم ان تكون الوصية على العرش هى محور المقاومة وقلبها النابض ... وقام بولاى دى لامورت يخاطب مارى لويز قائلا :

— تذكرى يا سيدتى الدور الذى قامت به جدتك العظيمة مارى تيريز .. افعلى كما فعلت ... واظهرى الى الشعب حاملة ملك روما على ذراعيك وسيعود الينا النصر ...

ظلت مارى لويز تصغى مطأطئة الراس دامعة العين من غير أن تنبس بكلمة .. انها على استعداد لعمل كل ما يقرره المجتمعون . تقرر اخذ الأصوات فكانت النتيجة اجماع على ضرورة بقاء

الامبراطورة فى باريس ما عـــدا كلارك الذى رأى ضرورة رحيلها وجوزيف الذى امتنـــع عن ابداء الرأى .. عندئذ طلب جوزيف الكلمة ، ثم اخرج أوراقا من جيبه وقال :

ــ اليكم ايها السادة خطابان من الامبراطور فيهما الرد الحاسم على هذا السؤال الذى يشغلنا . واحد الخطابين تاريخه ٨ فبراير والآخر تاريخه ١٦ مارس ، أى منـــذ اثنى عشر يوما فقط . وكلا الخطابين يحتمان الرحيل ..

وأخذ جوزيف يقرأ الرسالتين .. وكأنهما وصية رجل ميت وبهما فقرات تنبأ فيها نابليون بكثير مما حدث : « اذا خسرنا الموقعـــة وجاءت انباء موتى فستعلم بها قبل وزرائى .. فعليـــك أن تبعث بالامبراطورة وبملك روما الى رامبوييه ثم أصدر الأمر الى مجلس الشيوخ والى مجلس الدولة والى القوات جميعها بالتجمع على نهر اللوار . ولكن لاتترك الأمبراطورة وملك روما يقعان فى يد الأعداء . واذا اردت رأيى فاعلم انى افضـــل أن يذبح ابنى على أن يربى فى فيينا باعتباره احد الامراء النمساويين ... ولى ثقة كبيرة فى أن تقتنع الامبراطورة بصحة هذا الرأى وان تتقبلة كما تقبـــله امراة عاقلة وأم حنون ... لا تترك ابنى أبدا ، وتذكر انى افضل أن أراه فى قاع السين على أن أراه بين يدى اعداء فرنسا ... »

اصغى المجلس الى هـــذه التلاوة ، وتنفس الصـــعداء ، فقد وقع عن كاهله حمل المسئولية الثقيلة .. إعيد التصويت من جديد وتقرر هذه المرة الرحيل الى رامبوييه .. فان أوامر نابليون حتى على البعد لا يمكن أن يناقشها احد وانفض الجمع فى الســـاعة الواحدة صباحا وعاد جوزيف وكامبا سيريس يلحـــان على مارى لويز من جديد ... هل فكرت تفكيرا سليما ؟ ... ان القرار الذى تتخذه ستكون له نتائج جسيمة ... وعليها ان تقرر ... ولقـــد انحازت هورتانس الى رأى الرجلين وقالت لمارى لويز :

ــ يا صديقتى ... لست تجهلـــــين أنك اذا غادرت باريس ستضعفين من جهد المقاومة وبذلك تفقدين عرشـــك ... اراك تضحين بتاجك من غير احتياط ...

ـ انت على حق؛ ولكن الذنب ليس ذنبي .. لقد قرر المجلس ذلك ...

ولم يمكن الوصول معها الى غير هذا الخضوع الذي شبت عليه من صغرها . وراحت الى فراشها على حين اخذت حاشيتها تعد العدة للسفر . وفي السابعة من صباح يوم ٢٩ من مارس كانت ماري لويز مستعدة للرحيل .. ولكن جوزيف طلب منها الانتظار الى أن يذهب لاستطلاع الأمر في خارج باريس .. فاذا لم تأت منه تعليمات حتى التاسعة كان عليها أن تغادر التويلري فورا .. وراحت ماري لويز تنتظر في جناحها وسط حاشيتها وقد أخذن يداعبن ملك روما ويضحك الطفل فترن ضحكاته رنة أسى وسط هذا الجو الرهيب المخيم على الجميع .. على أن هذه المشاغل كلها لم تمنع الامبراطورة من ان تتناول افطارا دسما ... فللشهية حقوقها عليها ... ولكنها لا تستطيع اخفاء وساوسها . فهي تروح وتجيء في الغرفة قلقة مضطربة في رداء السفر الذي ارتدته ... وكثيرا ما تقترب من النافذة وتنظر منها ... آه ... لو أن نابليون برز أمامها الآن فجأة !.. او لو انه ارسل اليها الامر بعدم مغادرة باريس ...

مر الوقت من غير ان يرسل جوزيف تعليماته ... بعثت ماري لويز تطلب التوجيه من وزير الحرب ... حلت الساعة التاسعة ورأت الامبراطورة ان تنتظر فترة أخرى على الرغم من التحذيرات التي ذكرها الوزير ... وقد عرضها هذا الانتظار لمزيد من القلق والاضطراب ... لقد حضر اليها وفد من رجال الحرس الوطني يلتمسون منها عدم مغادرة المدينة ... ثم جاء جيروم شقيق نابليون وأمرها بدوره أن تظل في العاصمة ... لم تعد تدري ماذا تفعل ، وفي اى اتجاه تسير ، اخذت تبكي وتعصر يديها ، وتلقي بقبعتها على السرير ثم ترتمي على احد المقاعد وتقول : « يا الهي فليستقروا على رأى وينقذوني من هذا العذاب الأليم ... »

ارسلت كفاريلي مرة أخرى الى كلارك ، فعاد هذه المرة ومعه الرد الحاسم . اذا لم ترحل الامبراطورة حالا فلن يتحمل وزير الحرب أية مسئولية .. سيحتل جنود القوزاق الطرق جميعها بعد

ساعات .. تنهدت ماري لويز عند سماع هذا التحذير وقالت : « هيا بنا » فاندفع الجميع الى العربات ولكن ما هذا ؟... عجبا ملك روما يرفض الرحيل ... وكأنه فهم بحاسته أن هؤلاء القوم الذين يأخذونه معهم انما يسعون به الى حتفه.. لقد احس الطفل بروحه الذى هو انبثاق من روح ابيه ان هذا الرحيل هو الخطأ الكبير وان نابليون لو كان حاضرا لما وافق على هذا الفرار ... اخذ الطفل يبكى ويضطرب ويتشبث بالستائر والأبواب ويصيح لا اريد أن اذهب الى رامبوييه : انه قفر كريه اريد ان ابقى هنا ... بذلت سيدات الحاشية الجهود لتهدئته واقناعه بقبول السفر وكانت مربيتة مدام دى مونتسكيو تكرر له الوعود : « سنعود الى هنا .. سنعود قريبا .. » ولكنه لم يرض عن شيء وأمسك بسياج السلم وتعلق به ، ومانت اصابعه الصغيرة على الحديد ، واخذ يصرخ :

ـ لا اريد ان اترك بيتى هذا .. لا اريد أن اذهب من هنا .. وما دام ابى غائبا فانا السيد الآمر هنا..

وظل الطفل فى عناده وتشبثه هذا حتى أن اليساور ، دى كابنزى ، اضطر الى حمله قسرا الى العربة التى بها امه تنتظره .

وتحرك الركب بطيئا ... عشر عربات كبار وعربة للأحمال وعربة التتويج وقد غطيت كلها بالأغطية ... والف ومائتى فارس هم رجال الحرس المرافق .. تجمع أبناء الشعب ينظرون فى صمت وحقد الى هؤلاء الكبار الذين جبنوا عن ان يحموهم وفضلوا الركون الى السلامة والفرار تاركين كل شيء فى يد العدو .





وصلت مارى لويز الى بلدة بلوا من غير أن يبدو عليها أى ادراك لخطورة الحالة . انها تعيش على أمل أن يتدخل ابوها لصالحها قريبا ويسوى كل شيء . انها تعتقد فى نفسها المرض ... ولذا كانت صحتها فى نظرها اهم كثيرا من شئون الدولة . ولم تشعر الامبراطورة بالكارثة الا عندما جاءها الكولونيل جاليوا رسول الامبراطور ، ينبئها فى صبيحة يوم ٧ ابريل بخبر التنازل عن العرش . عندئذ اهتزت أعصابها وقالت :

— لا ... لا .. هذا مستحيل .. لن يرضى ابى بذلك .. لقد وعدنى عشرين مرة انه سوف يسندنى على هذا العرش الذى أجلسنى عليه بنفسه ... وعلى كل حال فهذا نداء منى اتوجه به الى فرنسا كلها ... انى اضع ولدى فى حماية الامة .

ثم اخبرت مارى لويز مبعوث الامبراطور انها تريد ان تلحق بزوجها فى فونتبلو ، واذ عرض عليها الكولونيل جاليوا ما تتعرض له من اخطار اذا قامت بمثل هذه الرحلة صاحت فيه :

— لماذا ؟... الست تقوم انت بهذه الرحلة ؟... ان الواجب يقضى على بأن اكون الى جانب الامبراطور فى تلك اللحظة التى هو

اليها بلا شك في حاجة الى العطف والحنان ... أريد أن الحق به وسأكون على خير حال فى أى مكان اكون الى جانبه فيه ...

ولكن جاليوا اصر على أن تبقى حيث هى فى بلوا ، فرضخت وكتبت رسالتين احداهما لزوجها تؤكد له فيها عطفها وحبها ، والأخرى لأبيها تطلب منه العون والحماية مرة أخرى .

وفى اليوم التالى ، غيرت مارى لويز رأيها واستعدت للسفر الى زوجها . وساعدتها على هذا التفكير مدام دى مونتسسكيو ومدام دى لوساى . واعدت لها عربة خاصة عند السلم السرى ... واذا بمدام دى مونتبلو تكتشف الأمر وتصرخ فيها : كيف يجوز لها أن تربط مصيرها بمصير آل بونابرت الذين سوف يحرمون حق الاقامة فى اوربا كلها ؟... اليس الواجب عليها ، بدلا من ذلك ، أن تسعى أولا الى اعداد المركز اللائق بمقام ملك روما ؟... وليس غير الحلفاء يستطيع أن يوفر له هذا المركز .. فيجب ألا تظهر بمظهر الراغب فى الفرار من هؤلاء الحلفاء ... استمعت مارى لويز الى هذا الحديث الماهر واستجابت له وساعدها على ذلك ما جبلت عليه من تراخ ومن كره للجهد ومن اهتمام زائد بصحتها أقلعت عن فكرة الرحيل ولكن مدام دى مونتبلو ما زالت تخشى مفاجأة أخرى ، فارسلت الى شوارزنبرج صديقها البارون دى سان اينيان ليعلم بالأمر .

ولم يكن هذا هو نهاية الاضطراب الذى اعترى مارى لويز . اذ حضر اليها يوم ٨ ابريل شقيقا زوجها جيروم ولويس ، وارادا ان يصطحباها مع الجيش والحكومة الى ما وراء نهر اللوار . ولكنها رفضت فأصر الرجلان واخذا يصرخان فيها ويهددانها ، فخشيت غضبتهما وان يقوما على اختطافها واستدعت رجالها فورا لنجدتها ...

بلغت حيرتها الذروة فى هذه اللحظة ... لقد عادت تتحدث عن السفر الى فونتنبلو على الرغم من الدم الذى كانت تلفظه مع القيء .. ولكنها لم تستطع أن تنفذ هذه الرغبة الأخيرة فقد عجل شوارزنبرج بالعمل وفى الساعة الثانية من يوم ٨ ابريل حضر الى

بلوا الكونت شوالوف مندوب الحلفاء وقد كلف بمهمة اصطحاب الامبراطورة وملك روما الى أورليان .

كان عليها ان تطيع ... تفرق البلاط المحيط بها ، وراح الوزراء والوصيفات والامناء كل يسعى لمصلحته مزودين بالهدايا الثمينة ... واستأذنت مارى لويز من حماتها مدام لوتيتيا وقالت لها :

ـ أرجو يا سيدتى أن تحتفظى لى بالمشاعر الكريمة التى طالما طوقت بها عنقى .

نظرت اليها أم نابليون بعين جامدة وقالت لها فى صوت جاف يظهر من خلال نبراته الحقد الدفين الذى تشعر به نحو هذه المراة التى لم تعرف كيف تحافظ على كرامة ابنها فى تلك اللحظات الحرجة ..

ـ سيدتى ان هذا يتوقف عليك انت وعلى سلوكك فى المستقبل ..

٩ أبريل الساعة العاشرة صباحا غادرت الامبراطورة بلوا الى اورليان فى حراسة الكونت شوالوف . واخذت معها زيناتها ومجوهراتها وماسات التاج .

وقد تولى مينفال حراسة الماسة المسماة ريجانت . واذ وصل الركب الى بوجنسى هجم عليه الكوزاك ونهبوا بعض العربات وسرقوا محتوياتها .. وفى الساعة السادسة مساء وصلت مارى لويز الى اورليان حيث نزلت فى « أبروشية » البلدة .

هاهى قد اقتربت المسافة بينها وبين نابليون وما زالت بها رغبة للقائه ولكن هذه الرغبة لن تتحقق لها أبدا . فقد صدرت الاوامر المشددة بالحيلولة بكافة الطرق دون اتجاه الامبراطورة الى فونتنبلو .

***

أخذ نابليون يتقلب بين اليأس القاتل والأمل الباسم فهو احيانا يفكر فى الموت واحيانا يعود فيتعلق بالحياة ويبنى الآمال للمستقبل فيما يتعلق به ، فهو يكتفى بجزيرة البا ، ولكنه يطالب بتوسكانيا لزوجته ولابنه .. انه يفكر فى تأمين مستقبل اوجين ومستقبل

أمه واخوته واخواته .. انه يريد أن يجنب العوز كل الذين احبهم وكل الذين خدموه .. وراح ينظم حياته للمستقبل انه على أستعداد للحياة مع مارى لويز اذا رغبت هي في الحياة معه . أما اذا رفضت ذلك فلن يجبرها على شيء ..

قال لكولانكور :

ــ قد يقبل قيصر أن يعود مواطنا عاديا ولكن يعز على زوجة قيصر ان تتنازل عن القابها .

ان نابليون يتلقى كل يوم اخبار ملك روما الصغير ، الذى راح يتسلى بهذه التنقلات المتتابعة .. غافلا عن كل ما يدور حوله ، قانعا بثوبه البحارى وقبعته الحريرية السوداء .. وبساعات اللهو التى يقضيها فى حديقة الابروشيه حيث يقيم له مرافقوه أوتادا تمثل الجند . ويمر امامها فى استعراض وهمى وقد امتشق سيفا خشبيا .. انه يضم قبضة يده الصغيرة ويقول :

ــ بلوخر هو أكبر أعدائى .. أما الملك الخبيث العجوز ، فقد اخذ مكان ابى واستولى على جميع لعباتى .. ولكنه سيرد لنا ذلك كله قريبا ..

ما أكثر شوق نابليون الى رؤية هذا الصغير الحبيب .. ولكنه على الرغم من ذلك مازال حريصا على راحة زوجته وولده .. هل يوافق جو جزيرة البا صحتهما ؟ .. ان مارى لويز لم تكف فى خطاباتها اليه عن الشكوى من ضعف صحتها . انها تتألم من صدرها وتتقيأ دما . لقد اتجه الامبراطور الى طبيبه كورفيزار الذى يخصه بثقته ، وراح يسأله الرأى . ولكن الطبيب خان سيده وخضع لتوجيهات مدام دى مونتبلو التى دبرت المؤامرة الجهنمية وشتتت شمل هذه الأسرة .. وضع كورفيزار تقريره بارشاد مدام دى مونتبلو وتحت نظرها .. وكان فى تقريره هذا قاطعا : لا الامبراطورة ولا ملك روما يستطيعان الحياة فى جزيرة البا .. اما اذا لزم ذلك فيجب على مارى لويز أن تقضى فترة طويلة من الزمن فى مياه اكس لاستعادة صحتها واكتساب القوة . وقد رد نابليون على هذا

التقرير مبديا تعجبه ومشيرا الى ملاءمة جو البحر المتوسط لمثل هذه الحالات ، فأجاب كورفيزار بلا تردد :

ـ فى اكس النجاة .. وفى جزيرة البا الهلاك للأم وللابن معا ..

استسلم الامبراطور امام هذا القرار الحاسم .. ولكنه ما زال يداعبه بعض الأمل : قد يستطيع وهو ذاهب الى جزيرة البا ، أن يحظى بمصاحبة زوجته وابنه مسافة طويلة من الطريق .. كتب لمارى لويز بهذا المعنى وحتى يتأكد من عدم تعرض أحد لرغبته هذه ارسل الجنرال كامبرون الى أورليان على رأس كتيبة من رجال الحرس لاحضار الامبراطورة وملك روما الى فونتنبلو .

ولكن عندما وصل كامبرون الى اورليان يوم ١٢ من ابريل وجد الامبراطورة وابنها قد رحلا ..

***

كانت مارى لويز تتلقى كل يوم تقريبا رسالة من نابليون يخاطبها فيها بأسلوب بسيط مؤثر . انه مازال يحاول تشييد صرح من الهناء للمستقبل مستخدما فى ذلك أنقاض حلمه العظيم « صديقتى الحبيبة : ان آلامك كلها فى قلبى وهى وحدها التى لاأطيق عليها صبرا .. حاولى أن تتغلبى على الحظ العاثر .. سأرسل لك هذا المساء الاتفاق الذى تم ابرامه .. انهم يعطوننى جزيرة البا ويخصونك أنت وابنك ببارما وبليزانسا وجواستولا . ستجدين على الاقل مأوى لك وبلدا جميلا عندما ترهقك الحياة فى جزيرة البا ، وعندما تضجرين منى .. بعد أن تتقدم بى السن وتبقين انت شابة .. سأذهب بعد أن يتم كل شىء الى بريار حيث تحضرين للقائى .. ثم نذهب معا بطريق مولان وشابيرى الى بارما ومن هناك أبحر من سبيزيا .. صحتى جيدة . وشجاعتى لا يعلو عليها شىء ، خصوصا اذا رضيت بحظى السيىء ورأيت انه ما زال لك بقية من الهناء .. وداعا ياصديقتى .. انى افكر فيك وآلامك قاسية جدا على نفسى لك دائما .. نابليون ـ فونتنبلو ١١ أبريل ـ فى التاسعة صباحا »

تلقت ماري لويز هذه الرسالة في صباح يوم ١٢ ابريل وفي مساء اليوم نفسه احضر لها بوسيه رسالة أخرى من الامبراطور يسألها فيها رأيها فيما عرضه عليها من السفر الى بارما . ولكن بوسيه جاء برسالة أخرى بخط مترنيخ الذي وصل الى باريس في اليوم السابق .. راح الوزير النمساوي في رسالته هذه يكذب ويخادع اذ يقول : ينوي الحلفاء أن يوفروا للامبراطورة السابقة حياة حرة تنتقل من بعدها الى ابنها العظيم .. ولكن من الخير لها أن تبادر أولا استجابة الى رغبة أبيها الامبراطور فرانسوا – بالذهاب الى النمسا ومعها ملك روما . ويجب أن تطمئن الى أنها ستظل آمنة حاليا ومستقبلا .

على اثر ورود هذه الرسالة حضر البرنس بول استرهازي والبرنس لشتنشتاين لاصطحاب ماري لويز الى رامبوييه حيث ينتظرها أبوها .. أو هذا مازعموه لها ، وأكدا لها أن نابليون نفسه يوافق على هذا الانتقال .. هل في استطاعتها أن ترفض مثل هذه الوعود ومثل هذه الأقوال ؟ . في مساء يوم ١٢ ابريل سارت مع الرسل واستسلمت للخديعة .

لقد قبض النسر النمساوي بمخالبه على فرخ النسر الفرنسي ولن يطلقه بعد ذلك أبدا .

***

علم نابليون بكل شيء قبل أن يرتد اليه كامبرون . فقد كتب له ميتفال بما حدث . لقد حدث ما كان يخشاه وانتزعوا منه ابنه .. تذكر ماكتبه الى اخيه جوزيف يوم ٨ فبراير من قبل : اني افضل أن يذبح ابني على أن أراه في فيينا يربى كأمير نمساوي .

ماهو ذا كالسجين في فونتنبلو ، حيث سدت جميع المنافذ ، فأصبح وحيدا لايتصل به أحد .. وراحت الخيانات تتوالى من حوله خدمه وضباطه يتخلون عنه الواحد بعد الآخر .. متعللين بأوهى العلل .. الزوجة المريضة .. أو المصالح العاجلة .. في باريس .. أو وفاة قريب فجأة .. ولم يمنع نابليون أحدا من الانصراف وراح يتسلى بقراءة الجرائد التي تكيل له السباب والاهانات .

فى مساء ١٢ ابريل نام الامبراطور فى العاشرة هادئا ولم يلاحظ احد ممن حوله اى تغيير فى عاداته . وعند منتصف الليل نهض من فراشه ، ونادى خادمه وقال له :

ـ تعال نوقد النار معا ياهوبرت .

وجلس نابليون وهو فى قميص نومه الى جوار الخادم يعالج معه النار فى المدفأة حتى اذا ماعلا اللهب قال للخادم :

ـ والآن ياهوبرت ، أحضر لى كل مايلزم للكتابة ، ثم اذهب بعد ذلك لتستريح .

أطاع الخادم وخرج من الحجرة ولكنه لم يحكم اغلاق بابها .. وقد سمع من مرقده الامبراطور يروح ويجيء ثم يجلس ويكتب ، ثم يمزق أوراقا ، ثم يعود الى المشى وتزداد خطواته سرعة واضطرابا لم يستطع هوبرت أن يغمض جفنه ، وراح يرقب حركاته فى قلق شديد .. مخافة أن يلم بسيده أى مكروه ..

وقف نابليون على حافة الهاوية التى يجب عليه أن يلقى بنفسه فيها وقد أحاطت به من كل الجهات الظلمات والمصائب والاحزان لطالما استقبله القدر بابتسامته فأقبلت الدنيا عليه وها هو القدر يكشر له اليوم عن أنيابه ويهوى به الى أبعد أغوار البؤس فتنكشف أمام عينيه النفس الانسانية بما فيها من بشاعة وجبن وقسوة وخسة .. مسح الامبراطور بيده على جبينه حيث ابتلت خصلة الشعر المعهودة بالعرق البارد اللزج وأخذ يردد فى صوت حزين : « ابنى .. ابنى هل للحياة قيمة بعد اليوم ؟.. »

ذهب الى حقيبة صغيرة فوق احدى المناضد وفتحها مسرعا واخذ منها كيسا صغيرا من الحرير الأسود على هيئة قلب . نظر اليه لحظة وقال : هذا هو الخلاص .. « انه الكيس الذى يعلقه كل صباح فى عنقه تحت ملابسه والذى يحتوى على سم خاص أعده ايفان من وصفة انقذت كوندورسيه من قبل حين فضل الانتحار على الجيلوتين .

فتح نابليون الكيس وافرغ مافيه فى كوب به بعض الماء والسكر

حرك هذا الخليط وبلا تردد ابتلعه حتى الثمالة ، وراح الى سريره فاستلقى عليه وأغلق عينيه فى انتظار الموت .

لقد راقب الخادم هوبرت كل شيء من غير أن يفهم تماما جلية الأمر .. وبعد لحظات سمع أنات وتأوهات ، فاندفع الى داخل الحجرة حيث وجد الامبراطور مستلقيا وقد فتح قميصه وظهرت فى جانب شفته رغوة قليلة ، وتقلصت نظرته وأعمل اظافره فى صدره .. انطلق الغلام مرعوبا يصرخ :

ـ النجدة ، الامبراطور يموت .

اضيئت الشموع فى الحال وأسرع الجميع فى ردهات القصر وجاء الطبيب ايفان وكبير الأمناء برتران وكولانكور .. وراح ايفان يولول ويقول :

ـ سيظن القوم انني أنا الذى وضعت له السم ..

وما لبث ان خرج كالمجنون من غرفة الامبراطور واندفع الى خارج القصر حيث كان جواده مربوطا الى السور ففك وثاقه وامتطاه وانطلق به مسرعا فارا الى باريس .. لقد منحه الامبراطور فى صباح ذلك اليوم نفسه منحة قدرها مائتى الف فرنك ورتب له معاشا قدره اربعون الف فرنك سنويا وخلع عليه الصليب الأكبر لنيشان جوقة الشرف .

تكاثر القوم فى الفرفة حول نابليون الذى راح يسعل ويعطس وهو يقول :

ـ اتركونى امت .. ارحمونى .. اتركونى أنته ..

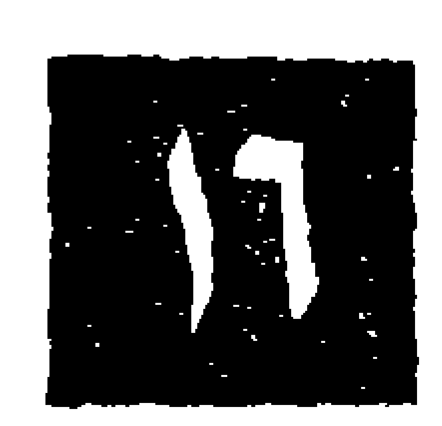
ثم أمسك لحظة بيد كولانكور وقال له :

ـ أنت صديق عزيز على .. أوصيك خيرا بزوجتى وبابنى .

استدعى الصيدلى كاديه الذى اسرع باعطاء الامبراطور بضعة أكواب من الشاى الساخن وبعد لحظة تقيأ المريض وغرق جسده فى العرق الغزير .. لقد نجا من الموت وراح فى نوم عميق لعدة ساعات .. وعندما افاق من نومه ، أدار عينيه فيمن حوله وادرك انه ما زال على قيد الحياة ، وان الموت هو الآخر قد خانه وغدر به .. استسلم مرة أخرى للحياة وهو يقول :

ـ لم يرض الله عما أردت لنفسى .





١٦

عندما وصلت ماری لويز الى رامبوييه ، ظهر يوم ١٣ ابريل ، سألت :

ــ أين أبى ..

فقيل لها أن امبراطور النمسا لم يحضر بعد .. بعد ان زال عنها العجب ادركت أنها غرر بها .. واضطرت الى الانتظار أياما ثلاثة تنتظر قدوم ابيها .. اياما ثلاثة قضتها في البكاء والانتحاب .

***

١٦ أبريل ، جاء امبراطور النمسا أخيرا .. جاء من بورجونيا حيث لجأ من قبل فرارا وخوفا من نابليون .. على شرفة القصر القت ماری لويز بين يديه بملك روما وهى تقول :

ــ هذا ابنى يا أبى ، انقذنا .

تناول الامبراطور الغلام وقبل ابنته وطيب خاطرها وراح يلقى عن عاتقه مسئولية ماحدث ويمنيها بالآمال والوعود وقال :

ــ لاذنب لى فى سقوط زوجك .. لو كنت فى باريس فى ذلك الوقت لاتخذت الامور شكلا آخر .. لم يفهم شوارزنبرج أوامرى

وشاءت الظروف أن أبقى في شانسو .. ولكن اطمئني يابنيتي .. سنصلح كل ما حدث .. ستحضرين أولا للراحة في فيينا ، ثم بعد ذلك تذهبين للحاق بزوجك .. بالتأكيد .. في اي وقت تشائين .. وسأكتب بذلك الى زوجك .. سابعث اليه بخط يدي تأكيد ذلك ..

وتناول الامبراطور حفيده ملك روما على ركبتيه وقبله ومسح على راسه وحاول أن يبتسم وهو يقول:

ــ ما اجمل طفلك هذا . قلما رايت من قبل صبيا بهذا الجمال . لا تقلقي يا ابنتي ، سأقوم له مقام الأب وله أن يعتمد على في كل شيء .. ألا ترين انه يشبهنا ؟ . انه من أسرتنا .

استردت ماري لويز شيئا من الاطمئنان ، فابتسمت واستراحت أما الملك الصغير فقد راح يحملق في وجه هذا الرجل العجوز الذي ينحني عليه ، وجه مستطيل أحمر ، به عينان منتفختان ، وأنف كبير فأحس بالحرج والضيق .. ولما عاد الطفل الى مربيته كان تعليقه على أول لقاء لهمع جده هو « مدام كيو .. لقد رايت جدي .. انه ليس جميلا » .

***

تقرر السفر الى فيينا وأعدت العدة على عجل . وحضر الطفل عملية حزم جميع اشيائهولعباته .. وسريره وعربته الجميلة التي تجرها الكباش والجندي الذي يزمر في النفير .. كل شيء ..ولكنه شاحب اللون ، يعطس ويسعل .. لقد أصيب بالزكام ، أما ماري لويز فهي أسوأ حالا من صغيرها . تشكو المرض وقد فرض عليها فوق ذلك أن تستقبل امبراطور الروسيا ثم ملك بروسيا اللذين أرادا أن يقدما لها التحية .. تحية الغالب الى المغلوب .

في النهاية أعد كل شيء ، وفي يوم ٢٣ ابريل تحركت قافلة من اربع وعشرين عربة تحمل الى النمسا امبراطورة فرنسا وملك روما وحاشيتهما وحوائجهما . ولم يصحب النسر الصغير ، من بين من عاش في خدمته من قبل ، غير مدام دي مونتسكيو التي برت بقسمها وارادت ان تتم حتى النهاية المهمة التي ارتبطت بها امام

الامبراطور ، وغير مدام سوفلو مساعدة المربية ومعها ابنتها فتاتى ذات الخمسة عشر ربيعا وغير مدام مارشان الخادمة التى يستريح اليها الطفل ويتسلى بمعاكستها من وقت لاخر .

سار الركب عن طريق جروبوا وترواى وديجون متجهـا نحو الشرق يحمل الامبراطورة وهى تئن من المرض ، تبكى طوال النهار وتقضى الليل مسهدة ندما على انها لم تلحق بزوجها .. والملك الصغير فى عربته مع مربيته وقد اعجبه تنوع المناظر فى اول الطريق . الا انه مع طول الرحلة أصبح ساهما لاهيا عما يحيط به ؛ لايفكر الافيما فات ، ويقارنه بما أصبح فيه الآن .. التفت الى مربيته يقول لها :

ـ هانذا ادرك اننى لم أصبح بعد ملكا . والا فاين حاشيتى ؟ وأين خدمى ؟..

ولقد فاجأ مربيته مرة يسألها « لماذا لا يريدون لى أن أقبل أبى .. كما كنت أفعل من قبل » .

وفى ٣٠ ابريل اجتاز ملك روما ، عند مدينة بال ، حدود تلك الامبراطورية التى قضى أبوه خمسة عشر عاما يشيدها له لبنة لبنة من اجساد البشر ودمائهم وقد اخذت تتحلل الآن وتتهاوى أجزاؤها كأنها جثة غادرتها الحياة .



١٧

يوم ٤ مايو ، غادرت ماري لويز مدينة بال ومعها مدام دي مونتبلو ومدام دي بريشيول وبوسيه وكورفيزار ومينيفال وكفاريلي ، وانطلقت نحو زيوريخ وكونستانس حيث قامت بنزهة على بحيرتها الجميلة . وفي يوم ٩ مايو دخلت القافلة منطقة التيرول ، أول أرض نمساوية تقابلها ، وقد نزل الاهالي من الجبال للاحتفاء بابنة مليكهم .. وعند مداخل المدن كان الناس يفكون اربطة الخيل ويجرون عربتها وسط الهتافات والازهار . وقد تمثل النمســـــاويون فيها عــودة الولد العاق ...

توقف الركب في انزبروك يومين ، واقامت الامبراطورة ومعها ملك روما في قصر اجدادها هناك . في احد ابهاء القصر لوحة تمثل الامبراطور جوزيف الثاني وهو في سن العاشرة جالسا الى جوار أمــه ماري لويز .. وقد أراد بوســيه المــداهنة والــزلفى الى النمسا فنظر الى الصورة وصاح :

ــ ياله من تشابه عجيب !.

ثم رفع الملك الصغير بين يديه الى مستوى الصورة المعلقة على الحائط وقال :

ـ هل اخطأت الحكم ؟.. اليس هذا مدهشا ؟.. ان صاحب السمو هو الصورة الحية لصاحب الجلالة .. « ولقد شارك بعض الحاضرين فى هذا الرياء الرخيص » . ولكن مارى لويز وضعت لهذا الحديث حدا اذ قالت :

ـ صحيح .. ان له الشفة النمساوية ، ولكن ملامحه كلهـا هى ملامح أبيه ..

وعاد السير بطيئا . فوصل الركب يوم ١٥ مايو الى انز ، ويوم ٢٠ الى مولك ، وبعد ذلك بيومين الى أربعة فراسخ من فيينا حيث التقت مارى لويز بزوجة أبيها التى قدمت لاستقبالها . تعـانقت المرأتان وبكتا وقالت ماريا لودوفيكا :

ـ حفظ الله عزيزتنا مارى لويز .

وكأنها لم ترقص فرحا من قبل عندما جاءتها أنباء انهيار ملك نابليون وزوجته .

فى الساعة السادسة مساء دخلت الى حديقة قصر شونبرون العربة الملكية التى جلست فيها مارى لويز ، وقد اطلق عليها اسمها الجديد وهى دوقة بارما ، والى جانبها امبراطورة النمسا . وعلى طول الطريق اصطف الأهالى وهم يبتهلون الى الله شكرا اذ أعاد اليهم ابنه مليكهم سليمة معافاة . وعند مدخل القصر وقف اخوة مارى لويز وأعمامها وأقاربها .. مجموعة هائلة من الأرشيدوقات ! استقبلوها بالاحضان وهى تبكى . واخيرا افلتت من هذا الجمـع ودخلت الى جناحها حيث وجدت أخواتها فى انتظارها .. وعادت الأحضان والدموع . راحت اخواتها يتفحصنها جيدا ويتحسسن أعضاءها ليتأكدن أن الغول الكورسيكى لم يلتهم منها جانبا .. لا ! انها سليمة ، لم ينقص منها شىء .

بعد لحظات قدمت العربة التى يستقلها الملك الصغير ، وقد أحس أهل فيينا بقلوبهم تنفطر عند رؤيتهم له ، وراحوا يصيحون « يعيش أمير بارما » بينما النساء يتزاحمن من حوله لتقبيل يده وهن يقلن : « ياالهى .. ما أجمله .. ياالهى ، ماأحلاه » أما هـو فقد علته الدهشة وترك يديه للنساء يفعلن بهما مايحلو لهن ..ولكن هذه العواطف المتدفقة اقلقته فى نهاية الأمر ، وهذه الوجوه الجديدة

عليه ، النهمة ، التى تقترب منه وتقبله اخافته ، فلجأ الى مـــدام دى مونتسكيو يحتمى بها . فأسرعت به المربية الى غرفتها .

وفى خارج القصر بادر الحرس باغلاق أبواب الحديقة فى وجه الشعب الذى ظل طوال الليل يعبر عن حماسه وشعوره . سينام مترنيخ هذه الليلة هادئا سعيدا بما دبر وعمل .. لقد دخل فـرخ النسر فى القفص واحكمت من حوله القيود وأسدل السياج بـين حاضره وماضيه .

* * *

فى شونبرون عاشت مارى لويز بعيدا عن الضجة فى جنـاح بالطابق الأول لايفصله عن جناح ابنها الا غرفة الحمام .. لم تعـد تحظى بكفايتها من النوم ، ولم تكف عن التفكير فى نابليون الـذى راحت تكتب له كل يوم وترسل الزفرات وهى تتطلع الى رسم صغير له معلق فى سلسلة الى رسغها .

ولكنها لم تلبث أن استهانت بالأمر واخفت أحزانها ، وراحت تقضى وقتها فى الرسم والموسيقى وتعلم اللغة الايطالية حتى تعد نفسها للجلوس على عرش بارما . انها مازالت تتحدث عن رغبتها فى الذهاب الى ملاقاة الامبراطور فى جزيرة ألبا ، ولكن بعد أن تقضى فترة الاستشفاء فى مياه اكس .. غير أن ماريا لودوفيـــكا راحت تبعدهاعن فكرة الذهاب الى سافوى وتحضهاعلى اختيار كارلسباد « ان مياه كارلسباد أصح لك كثيرا .. وفيها شفاء أكيد .. ويمكنك فضلا عن ذلك أن تقيمى فى أحد قصورنا فى بوهيميا » .

ان أفراد الأسرة جميعهم يوافقون على هذا الرأى ، ولكنها هى وحدها التى ترفض قبوله .. ولقد وجدت مارى لويز سندا لها وحليفا لم تكن تحلم بوجوده فى شخص جدتها لأمها مارى كرولين أميرة نابولى .. هذه المرأة التى خدعت زوجها فى شـــبابها مرات لاتعد ولاتحصى ، عادت فى شيخوختها تبدى تمسكا عجيبا بالفضائل الزوجية .. فلقد قالت لحفيدتها :

ـ يالله .. لست انا التى يستطيعون التفريق هكذا بينها وبين زوجها .. لو كنت مكانك ياصغيرتى ، هـــل تعلمين ما الذى كنت أفعله ؟..

ـ كلا ياجدتي .

ـ اليك رايي .. لو كنت في سنك لما حال شيء في الدنيا بيني وبين التقائي بزوجي متى اردت .. والأمر يسير جدا بالنسبة لي في احدى الليالي .. اتزيا بزي رجل ، واربط ملاءاتي وستائر سريري وكل مايصادفني .. أربط ذلك كله رباطا جيدا لاجعل منه حبلا متينا .. ثم القي بنفسي من النافذة .. وفي استطاعتهم عندئذ ان يجروا خلفي ماشاءوا فلن ينالوا مني شيئا .. ياابنتي .. اذا تزوجت الفتاة فقد ارتبطت لمدى الحياة .. هيا .. تسلحي بشيء من الجراة ..

استمعت ماري لويز لهذا الدرس الغالي ولكنها لم تدر كيف تستفيد منه . أن كل تفكيرها في الوقت الحاضر منحصر في الذهاب الى مياه اكس لتقابل هناك كورفيزار ومدام دي مونتبلو ، اللذين تقدماها الى هناك ، ولم تعد تستطيع الانفصال عنهما .

عاد الامبراطور فرنسوا الى فيينا يوم ١٥ من يونية فأسرعت ابنته تطلب منه الاذن بالسفر . ولكنه ، تحت تأثير مترنيخ رفض في أول الأمر ثم عاد فوافق على سفرها الى اكس ، ولكن بشرط أن تترك ابنها في شونبرون . فهذا الابن رهينة ثمينة في يد الوزير النمساوي .. هل يتركه يفلت من قبضته ؟.

سافرت ماري لويز يوم أول يوليه وفي صحبتها حاشية صغيرة واتخذت لنفسها اسما مستعارا هو دوقة كولورنو . وفي ١٠ يوليه وصلت الى جنيف .

ولكن القوم في فيينا لم يطمئنوا لهذا السفر كل الاطمئنان . كيف يتركونهاهكذا طليقة تذهب حيث تشاء ؟.. وما الذي يمنعها من أن تركب رأسها وتتوجه الى جزيرة البا ؟ .. يجب الاحتياط لهذا الاحتمال . لقد اختار الامبراطور ، أول الأمر ، الأمير نيفولا استرهازي لمرافقتها ومراقبتها . ولكن رؤى أن هذا الأمير متزمت في أمور الدين ، عجوز لايغري النساء . فكتب الامبراطور الى الأمير شوازنبرج يطلب منه أن يختار له أحد الضباط ليقوم بمهمة مراقبة الأميرة « وليقدم لها النصح والتوجيه عند الاقتضاء » .. عندئذ

توجه شوازنبرج الى مترنيخ وراح الاثنان يتبادلان الرأي .. قال شوازنبرج :

ـ أظن انى عثرت على الرجل المطلوب .

ـ اســـمه ؟.

ـ الكونت نايبرج ، قائد احدى فرق الفرسان فى بافيا .

وراح الوزير يفكر لحظـة ثم أراد أن يسبر غور نوايا محدثه فقال :

ـ هل تظنه يصلح لهذه المهمة ؟.

ـ لقد مضت عشرون سنة وهو يحارب الفرنسيين .. ثم هو يمقت نابليون كل المقت ..

ـ أعرف ذلك . وأعرف أن الفضل له فى انقلاب مورا على سيده . وهو الذى دبر لبرنادوت سبل الخيانة وحاول أن يرشو أوجين دى بوهارنيه . انه دبلوماسى ماهر حقا ..ولكنه .. أعور .

ـ هذا صحيح ... وهو لذلك لم ينس قط للفرنسيين تلك الطعنة التى افقدته عينه اليمنى ... وعلى الرغم من ذلك فهو رجل ناعم الخلق جذاب الحديث . وله فى عينه الباقية من السحر ما يكفى لعينين أو يزيد ...

ثم غمز شوازنبرج بطرف عينه واضاف :

ـ نساء قليلات هن اللواتى استطعن مقاومة اغرائه .

نظر الرجلان كل منهما الى الآخر وتبادلا الابتسام .. لقد فهما كل شىء ..





١٨

ذهبت مارى لويز ، بعد أن غادرت جنيف ، الى شاموني لقضاء بضعة أيام توجهت بعدها ، يوم ١٧ من يوليه ، الى اكس وهي خاتمة المطـــاف .

وعند وصول الركب الى كاروج على مقربة من اكس . تقـــدم أحد الضباط العظام في ثوب الفرسان المجريين من باب العـــربة التي تستقلها مارى لويز ، وخلع قبعته احتراما وانحنى انحــــاءة عظيمة وهو يعلن اسمه :

ـ كونت ادام البير دى نايبرج .

مدت الدوقة يدها لتحية القادم ، فتناولها هذا الضابط في رقة واجلال ، وقرب منها شفتيه وكأنما يتنشق عبير زهرة يانعه . قالت مارى لويز بغير كبير اهتمام :

ـ أظن ياسيدى أننا تعارفنا من قبل .

انحنى نايبرج مرة أخرى وقال بصوت دافىء :

ـ سنة ١٨١٢ ، صاحب الجلالة الامبراطور ، مليكى ووالدك الأفخم ، ولاني في تلك السنة شرفا عظيما بان أسند الى خدمة جلالتك بصفة أمين .. لقـــد كنت في رفقة جلالتك في درســـدن وفي براج .

ـ حقا .. انى اذكر ذلك ..

نظرت مارى لويز فى شىء من الشك الى هذا الحارس المزخرف الذى أرسله اليها ابوها .. ان أول لقاء لها مع هذا الرجل كان فى الحقيقة كريها على نفسها ، فهى تعرفه من قبل عـدوا لدودا لفرنسا ولزوجها نابليون .. راحت تنظر الى هذا الضابط تتفحصه وتستجلى منظره .. ان أول شىء يلفت النظر فيه هو تلك العصابة العريضة السوداء التى تعترض وجهه وتغطى عينه اليمنى ، بينما عينه الأخرى تلمع سوداء حوراء نافذة النظر ، وشعره الأشـقر الخفيف يتلوى فوق جبهته ، وبشرته الصافية الحمرة قد لفحتها الرياح ومسحتها وعشاء المعارك والحروب الكثيرة . أما قده فمتوسط الطول ربعة القوام ، فى مشيته جلال وفى حركاته رقة وجمال .. أما سنه فيبدو فى حدود الأربعين .

ماكان فى استطاعة الاميرة فى تلك اللحظة أن تحكم عليه هل هو فى مجموعه جميل أم جذاب .. انه على كل حـال من هؤلاء الرجال الذين لاتستطيع المرأة ان تبقى طويلا أمامه من غير ان يلفت نظرها .. قالت :

ـ سنتقابل فى اكس ، وسأصدر اليك تعليماتى .

ادى نايبرج تحية الانحناء وقال فى هدوء :

ـ تستطيعين جلالتك ان تعتمدى كل الاعتمـاد على اخلاصى وولائى وتفانى فى خدمتك . وأملى أن يروق لك البيت الذى أمرت باعداده لسكناك فى اكس .

وتنحى الفارس عن نافذة العربة ، وسار على صهوة جواده الى جانبها يفكر فيما راى ويجمع شتات تفكيره :

ـ هذه الدوقة .. مرهقة ومتعبة .. لون بشرتها باهت ولحمها متهدل .. ومع ذلك لم تتعد بعد الثالثة والعشرين . ولكنها دوقة على كل حال .. ومازال الناس ينادونها باسم « صاحبة الجلالة » وفضلا عن ذلك فان برما بلاد جميلة يمكننى أن أتمتع فيها بالهدوء والراحة . حقا ، لقد كنت اتوقع أن أجد شيئا أحسن مما وجدت »

وما ان وصلت مارى لويز الى اكس حتى اعترفت لنايبــرج بسلامة الذوق فى اختيار البيت الذى خصصه لسكناها . انه بيت جميل يقع فى ظاهر المدينة على ربوة عالية يطل على منظر ساحر ، بحيرة بورجية تحيط بها المروج الخضراء ، وتحف بالمروج أشــجار الغابات الداكنة ، وتنتهى الغابات على البعد عند الصخور الجــرداء التى تتكون منها الجبال وتنساب من بينها انهار الثلج .

أحست الدوقة فجأة وكأنها عادت الى الحياة . لقد ضــمت الى صدرها مدام دى مونتبلو ، وهاهما كورفيــزار وايزابى الى جوارها . لقد عادت الأسرة القديمة أو جزء منها الى الالتئام ... وسيزداد الصفو والسرور عندما ينصرف مينيفال فى ١٩ من يوليه عائدا الى باريس .. فيتخلص الجميع من رقابته الصامتة ونظراته القاسية التى تفضح الخبايا وتثير الرعب من غير كلام .

انصرفت مارى لويز الى اللهو والسرور . وأصبح نايبرج فى نظرها رجلا لايمكن الاستغناء عنه . فقد رأته وهو يعمل بجــد فى خدمتها فلا يستعصى عليه شىء .. اختيار زينتها .. تثبيت شريط فى مكانه من ثوبها .. تغيير غطاء رأسها أو تصفيف شعرها ... أنه خبير بكل شىء ... يعرف كيف يتقدم فى اللحظة المناســبة ، وفى حدود الاحترام والواجب ، بكلمة الاطراء الماهرة عن لون العيــون ونضارة البشرة وحلاوة الابتسامة وانسجام الضحكة .. انه يدرى كيف يزين السهرات والولائم بالرقص الماهر والدعابات الطلية ، وكيف يشيع البهجة والسرور والحياة فى الحفلات والاجتماعات ثم يتحول من ذلك الى الجليس الانيس الذى يجيد الهمس والحديث فى الليالى القمرية والســهرات الشاعرية .. لم تعد مارى لويز تحمل هما أو تقلق بالا ونايبرج الى جوارها ، فهو يفكر فى كل شىء وينظم كل شىء ويشرف على كل شىء وما الحياة فى رعايته المحببة الا رحلة حالمة فى قارب يتهادى على صحفة ماء ساكن بين شطئان ساحرة رائعة .

فى أحد الايام عرض الجنرال نايبرج على مارى لويز :

ـ اذا وافقت يا سيدتى سنذهب باكر الى قمة ريجى لمشاهدة شروق الشمس .

وحبت ماری لويز بهذه الفكرة على الفور . ولكن بوسيه اعتذر من الانضمام الى الجمع قائلا :

ــ لا يليق بى أن اتسلق الجبال وأهبط الوديان ممتطيا ظهر أحد البغال .. بينما الروماتزم يعذبنى ويمنعنى من التعرض للبرد والضباب ....

أما مينيفال الذى يسيئه ما تبديه مارى لويز من تعلق غير خفى بالجنرال نايبرج ، فقد اعتذر هو الآخر قائلا :

ــ لتسامحنى صاحبة الجلالة وتعفينى من هذه الرحلة ... فيكفينى ما شاهدت من ثلوج وما قاسيت من صقيع فى صحارى روسيا ...

وهكذا ذهبت هى وهو بمفردهما الى غزو القمم العالية .. وقد بدا نايبرج وكأنه صقر جارح قد أحكم مخالبه حول قنيصة مستضعفة وفى الطريق توقفا لحظة لمشاهدة منظر الجبل الذى امتد امام ناظريهما ساحرا بتتابع الظلال والاضواء ... ها هى الثلوج الدائمة تلمع عند قدميهما .. مال عليها نايبرج وقال :

ــ هل تسمعين خرير الشلالات ؟ .

فاقتربت منه وظلت صامتة تصغى الى أصوات الرياح الحزينة وهى تصل اليهما من بعيد .. ثم قالت هامسة وقد أسكرتها الطبيعة حولها :

ــ ما اجمل انين مزمار رعاة البقر على البعد ...

والتصقت برفيقها وامسكت بيده وتنهدت وهى تقول :

ــ استمع ... استمع ...

لمعت عين نايبرج وأمام حرارة نظرته خارت قوى الدوقة . ومالت برأسها على رأسه ... وضعت مارى لويز خدها على كتف الجنرال وهى تردد :

« ما اجمل كل هذا » ...

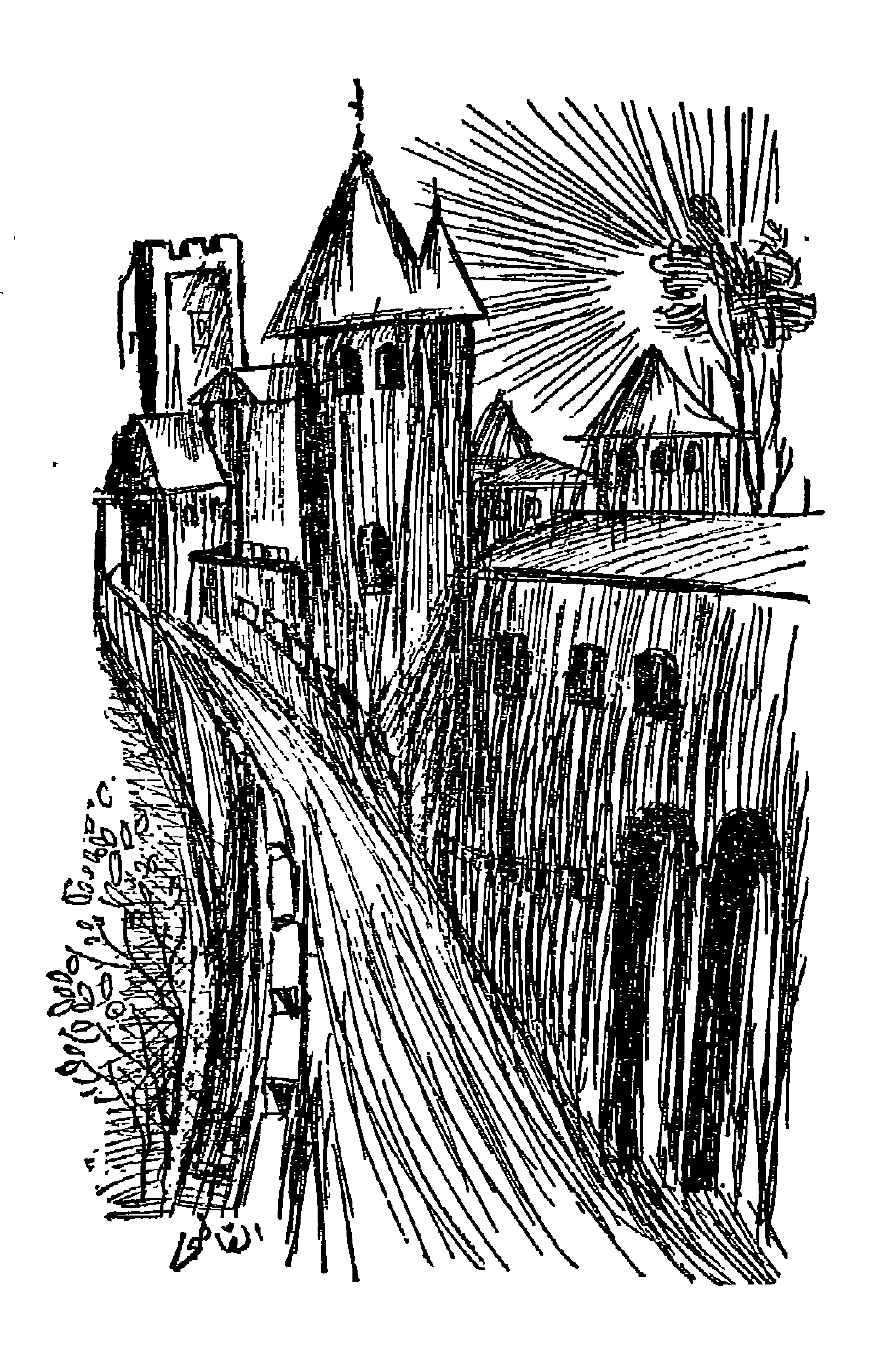
وبعد ساعات قليلة كانت تتناول عشائها فى الحانة الجبلية ومعها نايبرج ولا احد سواه وقد طابت لها الحياة .

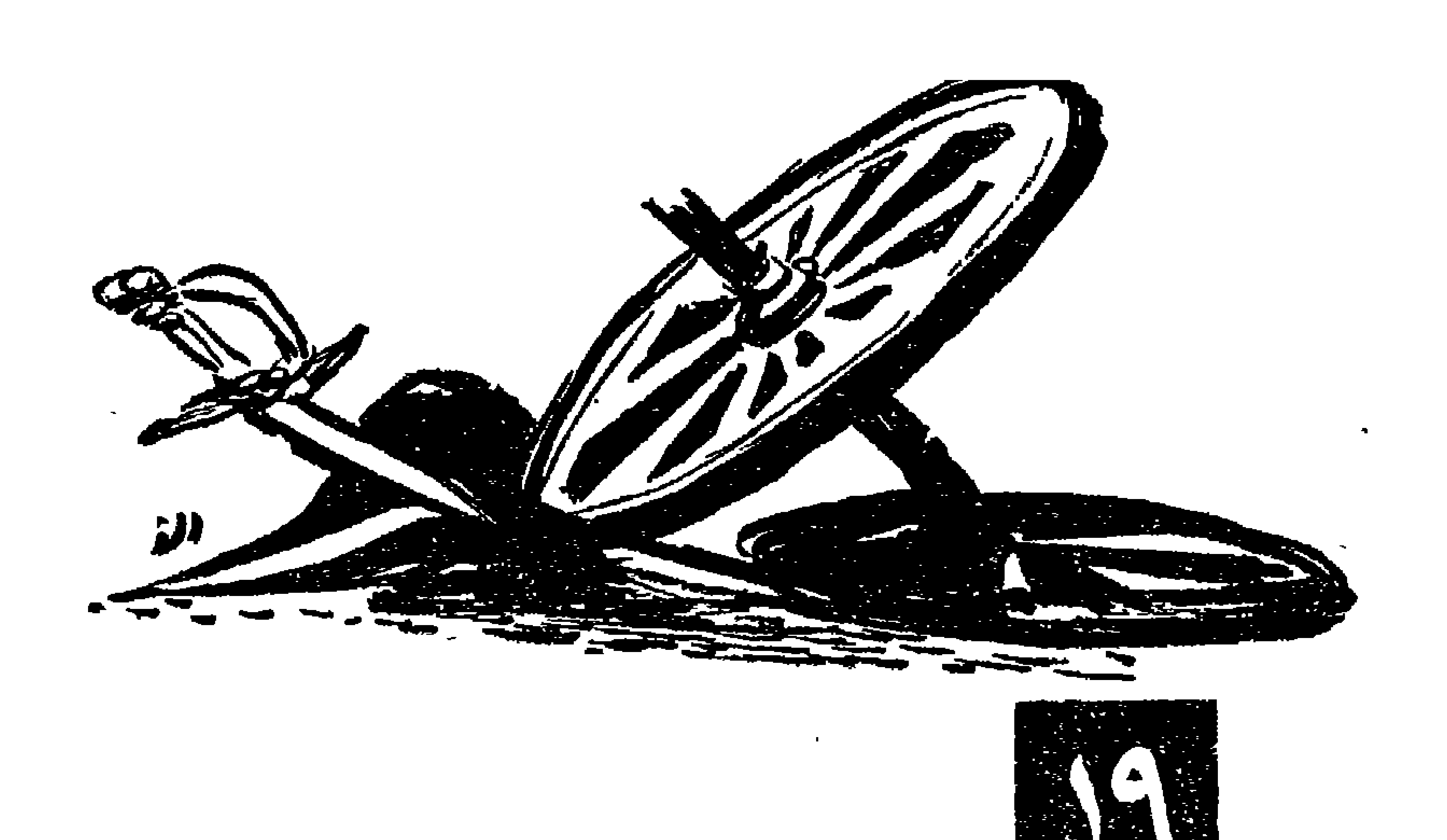
* * *

وفى اواخر سبتمبر تلقت مدام دى مونتبلو من مارى لويز

رسالة قرأت فيها تلك الكلمات التي تنم عن التحول الذي طرأ عليها:
« لقد رددت عليه (على نابليون) اخبره صراحة انه يستحيل على السفر في الوقت الحاضر .. ولن أذهب اليه أبدا ، فأنت خير من يعلم انى لا رغبة لى فى الذهاب الى هناك .. لقد اظهر الامبراطور من الطيش والنزق ما أثارنى حقيقة » .

ها هى المأساة قد اكتملت فصولها ، واصبح نابليون محروما من كل شيء حتى من الزوجة ... لقد استولى هذا العلج الاعور على قلبها كما استولى على قلوب غيرها من النساء من قبل . ولعب بعواطفها ، فأسقطها فى حبائله ، وأنساها انها ما زالت زوجة الرجل الذى كان منذ اسابيع قليلة اعظم رجل فى العالم .





١٩

عادت ماری لویز الی شونبرون یوم ٦ أكتــوبر ١٨١٤ ، وهی تطفح صحة وتطير سعادة ، وقد وجدت ابنها اكبر مما تركته واجمل انهم يجيئون به اليها كل يوم بعد الفداء فتعطيه الحلوى وتلاعبه فترة ولا تجــد غضاضة فى أن تصــحبه معها من وقت لآخر فى نزهتها اليومية خلال حدائق البرائير ... فالفتى وسيم الطلعــة ولا يؤذيها وجوده الى جانبها .. وخصوصا عندما يرتدى حلــة ضباط الفرسان الفرنسيين أو اذا لبس الزى المدنى من نســيج الكشمير الثمين ذى اللــون الابيض أو الازرق أو الاخضــر تحليه الأزرار الذهبيــة ، مع الحذاء الاسود اللامــع والقبعة الحريرية السوداء أو البيضـاء يعلوها الريش فيزيد من أبهته وجماله ..

حقا ، انه يلفت النظر بحسنه ورقته وشبابه ، وقد اكســبه ذلك شعبية واسعة ، فراح الناس يحيونه فى كل مكان . وقد درج أهل فيينا على الهرع فى أيام الأحاد الى قصر شونبرون يتحينون الفرص لرؤيته ، ويعودون سعداء اذا ما تحققت لهم هذه الرغبة . وكانوا يقولون فى أسف « لا عيب فيه الا أن يكون أبوه نابليون .. » .

عاش الصبى فى شونبرون حياة البراءة والهدوء ... وقد أزدادت مدام دى مونتسكيو حبــاله وتعلقا به ، بعــد أن لاحظت

هذا الاهتمام المفاجيء المتزايد من نايبرج لماري لويز ، لقد اصبحت ترى في ربيبها هذا ولدا يتيما . انها في قرارة نفسها لا تحس الا بالازدراء لهذه المرأة التي تركت زوجها في وقت الضيق ، والتي نسيت انها كانت حتى الأمس القريب امبراطورة للفرنسيين وها هي اليوم تستجيب في انحطاط لمغازلة ضابط نمساوي بسيط .

لقد اضحت مدام دي مونتسكيو على ثقة من ان هذا الطفل المسكين لم يعد له من يحبه حقيقة في هذا العالم ويدافع عنه مخلصا الا هي ... هي فقط ... وحينما ارسل اليها زوجها في تلك الاثناء يطلب منها العودة الى فرنسا ردت عليه تقول :

« زوجي العزيز ، لا تفرض علي العودة الى فرنسا ، وقد سبق ان اخبرتك ان الحاحك في هذا الطلب سوف يضعني في أشد الحرج ، ويعرضني طوال حياتي لتأنيب ضميري . ولو أن هذا الطفل كان ذا أم لما ترددت لحظة ، بل لوضعته بين يديها وتركته وانا مطمئنة البال راضية القلب .. ولكنه محروم من الأم .. وهي لا يعنيها من أمره أكثر مما يعني أي امرأة غريبة تقوم على خدمته » .

لم تعد المربية تترك ربيبها ابدا . فهي التي توقظه من نومه صباحا وتلقنه صلواته كل يوم وتشرف على طعامه وتعليمه . وكثيرا ماينضم اليها مينيفال ، الذي يعرف كل شيء ولا يستطيع كلاما ، فينظران معا الى هذا الراس الأشقر الصغير الذي يفرض عليهما الاستمرار في التضحية بالأهل والوطن والأحباب ، للحد ما امكن من المصائب التي تنهال على رأس الاب البعيد في المنفى .

لقد اصبح الطفل يقرأ جيدا ويلم ببعض عناصر التاريخ والجغرافيا وراح يتعلم الايطالية على يدي القس لانتي وبعض كلمات من الألمانية مع خادمه الخاص اونترشل .. وسمحوا له بزميل للعب واللهو ، هو الطفل اميل جوبيرو ابن أحد الخدم في حاشية ماري لويز . وكثيرا ماكان الطفلان يتمرغان معا على البسط التاريخية التي تغطي أرض الحجرة .

انه يذهب كل يوم للنزهة مع فاني سوفلو التي تمسكه من يده وفاني فتاة في الخامسة عشرة ، جميلة ضاحكة ، تعرف كيف تدخل

السرور على قلبه لذلك أحبها حبا شديدا ، ووجد في صحبتها راحة النفس وانطلاقة الفؤاد هاهو ذا يسير الى جوارها في الحديقة الشاسعة ذات الأشجار العالية والتماثيل الرخامية البيضاء . ولكنه ساهم لايتكلم . واذا ماحاولت الفتاة تحويل انتباهه عما هو فيه الى زهرة يانعة ، أو طائر جميل أو سحابة سارية ؛ انصرف عن ذلك كله وهز رأسه وقال :

ـ ان كل شيء حزين هنا .. لقد كنت أسعد حالا في سان كلو ..

ثم يعاودان السير حتى اذا مابلغا الحوض الكبير الذى تنتشر فى ارجائه الخيول النحاسية الفرقى ، وقف الطفل يلقى بفتات الخبز الى السمك ،ولكنه سرعان مايجذب الفتاة من يدها وهو يقول :

ـ اريد ان ارى الحيوانات .

وتسير معه فانى حتى يصلا الى حديقة الحيوان ، على الجانب الأيمن من القصر ، وهناك تنفرج أساريره وينسى أحزانه أمام منظر الفيل الوليد والشمبانزى اللعوب .. ويقف طويلا أمام اقفاص التياتل والماعز والغزلان يمسح على رؤوسها ويداعب قرونها .

وفجأة ينظر الى فانى يعاوده الحزن وهو يقول :

ـ اين ذهبت خرافى الصغيرة ؟..

انه يفكر فى عربته الصغيرة البديعة التى كان يركبها على اوصفة التويلرى .. لقد حاول جده الامبراطور أن يعوضه عما ضاع منه ؛ فأهداه جحشا صغيرا بدلا من خرافه .. وقدم له كثيرا من الهدايا والألعاب .. انه جد طيب يحب حفيده كثيرا ويريد أن يمحو شيئا مما الحقه به من اذى .. ولكن هل يتفق الجد الطيب مع امبراطور النمسا ، خصوصا اذا كان الحفيد ابن نابليون ؟.

على ان اسرة الامبراطور لم تلبث أن تعلقت بالطفل الفرنسى واحبته ، لم يشذ عن ذلك الا ماريا لودوفيكا التى ظلت حتى النهاية تلاحقه حقدها وكراهيتها ، الم تقل لزوجها الامبراطور يوما

ـ لو كنت أنا مكانك ،هل تدرى ما الذى كنت افعله بابن هذا

اللص الكورسيكي ؟.. راهبا ، نعم ، راهبا .. اذا ماسجن فيداخل أحد الأديرة انعدمت ذريته واسترحنا الى الأبد من هذه السلالة اللعينة ..

وكثيرا ماتكلم الطفل عن أبيه وعن غيابه الذى طال :

– أين أبى ؟. لماذا لم يعد يحضر لرؤيتى كما كان يفعل من قبل؟ متى يعود الى ؟ .

وكانت مدام دى مونتسكيو تعلله بما يتناسب وتفكير فتقول له :

– ان الامبراطور مريض .. أو انه فى سفر طويل .. ويجب الانتظار قليلا ..

وكان الطفل يصغى الى هذا الكلام ويهز راسه الأشقر ..

واذا عنفته أمه مرة لأمر من الامور ، وقالت له غاضبة انه لم يعد ملكا كما كان .. راح الطفل يصفق بيديه فى سرور ويقول : « لم أعد ملكا .. لم أعد ملكا » ولكن عندما جاءوا ليخلعوا من على صدر سترته الصليب الأكبر لنيشان جوقة الشرف ، ألقى بنفسه بين يدى مربيته وهو يبكى بكاء مرا ويقول : « أهى الحقيقة اذن ؟ يا ماماكيو ، انى لم أعد ملكا بعد ؟ . »

ان الألعاب تنهال عليه من كل جانب ، وقد جاءته العابه القديمة من باريس بعد أن حجزها هنـــاك الملك لويس الثامن عشر لمدة ثم أطلقها .

وعندما رآها الطفل صاح فرحا واغتباطا وهو يقول :

– أرأيتم .. لقد خاف الملك الشرير .. وأرسل لى اشيائى..

ان من بين الألعاب التى جاءته من باريس عربته البديعة التى تجرها الخراف ، والجندى الذى يزمر فى البوق ، والقفص الذى يحتوى على العصفورين المغردين .. كل شىء .. ولكن الأمير الصغير أصبح اليوم يفضل على هـــذه الألعـــاب كلها مجموعة من الجنود الخشبية التى تستطيع التحرك والهجوم والاصطفاف .. لقد تعلق بها الطفل ونسى كل ماعداها .

أما الزيارات فكانت قليلة . وقد حدث أن جاء أحد اخـــواله ، الأرشيدوق فرنسوا شارل ، ليلعب معه ، فرنسوا شارل الذى

كان يحرق عرائس مارى لويز فيما مضى ويقول انه « يشوى نابليون .. » ان الارشيدوق يكبر الطفل بتسع سنوات ، الامر الذى ظن معه أن من حقه أن يلقى الأوامر على زميله الصغير .. ولكن الامير الفرنسي لم يقبل الانصياع لهذه الأوامر واذا بالارشيدوق يثور ويصرخ قائلا :

ـ انى لا احب ان الاعب فرنسيا ..

عند سماع هذه الكلمات غضب الطفل واحمرت وجنتاه من الغيظ ونفر نفرة الديك الثائر وأشار باصبعه نحو هذا الذى وجه اليه الاهانة وقال صارخا :

ـ ماماكيو .. ماماكيو .. أريد أن يطرد هذا الوغد ..





« ٢ ابريل ، فى ساحة قصر فونتنبلو ظهراً ، وقف نابليون وودع حرسه القديم . أحاط به العدد القليل من ضباطه الذين بقوا على ولائهم له . القى بضع كلمات أمام الجنود وقبل شعار النسر الذى قدمه الجنرال بيتى وقال :

ـ أودعكم مرة أخرى يارفاقى الأقدمين .. وأرجو أن تستقر هذه القبله فى قلب كل واحد منكم ...

بعد ذلك صعد الى العربة التى ستحمله الى ميناء فريجوس الذى سيبحر منه الى جزيرة البا .. ولقد سمح له الحلفاء باصطحاب ٦٠٠ رجل فقط الى منفاه . فتقدم له ٦٠٠٠ رجل كلهم يطلبون النفى الى جواره .

قبل الرحيل تحدث طويلا مع كولانكور وقال له : « اذهب وقابل الامبراطورة .. ولكنى اوصيك بألا تضغط عليها لتحملها على الانضمام الى .. اترك لها أن تصدر قرارها من قلبها .. فاذا دفعتها عواطفها نحوى ، وجدتنى ممدود الذراعين للقائها .. والا فلتبق فى بارما أو فى فلورنسا او حيث تجد لها عرشا تجلس عليه .. ولن أطلب منها شيئا واحدا .. ابنى » .

راح ينظر الى المستقبل وهو أقل تشاؤما مما كان عليه «ولزيادة اطمئنانه أعاد قراءة الرسالة التى كتبها له حموه من رامبوييه يوم ١٦ أبريل وقال له فيها : « سيدى الأخ وزوج ابنتنا العزيز » ..»

وأكد له أن مارى لويز بعد أن تسترد صحتها سوف تذهب للاقامة معه ، وانه سيعامل ملك روما كأنه واحد من أبنائه . هذا وعد مكتوب وكلمة شرف مقطوعة ... فهل فى استطاعة نابليون أن يظن لحظة أن الامبراطور فرنسوا قد أصدر الى مترنيخ قبل كتابة هذه الرسالة بأربعة أيام فقط تعليمات تقول : « ... الأمر الهام هو ابعاد نابليون عن فرنسا ، ويا حبذا لو أرسل الى مكان سحيق جدا . أنا لا أوافق على اختيار جزيرة البا ، فهو اختيار لا يمكن الاطمئنان اليه فى المستقبل ... »

ما ان وصل نابليون الى جزيرة البا حتى كان همه الأول الاطمئنان الى اقامة زوجته اذا ما انضمت اليه . يجب أن يجهز لها سكن يليق بمقامها سواء فى قرية بورتو فيراجو أو فى قرية بورتو لونجونى . أجمل الحجرات وأكثرها سعة وأطيبها هواء تخصص لمارى لويز .. أصدر أوامره باجراء الاصلاحات وعمل الترميمات انه يتعجل العمال ويحملهم على مضاعفة الجهد خوفا من أن تأتى قبل أن يتم كل شىء وفقا لما يريد .. اقترح أن يزين سقف الصالون برسم رمزى فيه حمامتان يربطهما شريط واحد تضيق عروته كلما بعدت المسافة بين الطائرين .. قرر اطلاق الصواريخ واقامة المراقص والاحتفالات عند مقدمها .. لن ينقص شىء ليكون الاستقبال الذى أعده لزوجته فخما ورائعا ..

وانقضت الأيام والأسابيع من غير أن تشير الامبراطورة الى رغبتها فى القدوم اليه . وبدأ صبره ينفد . أخذت رسائل مارى لويز تتباعد وتفقد حرارتها الأولى ، ان لها فى قلبه رنينا كرنين الوعاء المفلول ؟ . ماذا يحدث يا ترى ؟ .

علم نابليون فجأة أن مارى لويز ذهبت الى اكس بمفردها وتركت الملك الصغير فى شونبرون ، فاستشعر الخطر واحس بالوقيعة تدبر له خلسة ومكرا . كتب الى زوجته يدعوها الى

الحضور الى توسكانيا حيث المياه لها نفس الجودة ونفس الطبيعة التي لمياه اكس في السافراى .. وارسل لها فى بارما لمصاحبتها كتيبة من الفرسان البولونيين ومائة حصان لنقل امتعتها .. هل يشك في نوايا زوجته ؟.. كلا .. انه لا يشك فى أمرها ابدا ، ويعتقد انها مرغمة على ما هى فيه ، تعمل بغير ارادتها ، وانها سجينة وواقعة تحت تاثير أعدائه .. بل انه لا يتهم حماه في ذلك ويعتقد أن هذه الدسائس الصغيرة لا يمكن أن تصدر الا من احد الوزراء ذوى النفوس الدنيئة .. انه يصرخ ثائرا محتجا : « ليس لأحد حقوق ، او ضغط على الامبراطورة ولا على ابنها » .

وفي اوائل اغسطس لم يعد يطيق صبرا ، فأرسل الى اكس الكولونيل لانزنسكي وكلفه بأن يبلغ مارى لويز انه ينتظرها فى نهاية ذلك الشهر . وكتب لها يقول : « إجارى بالشكوى من المعاملة التي يفرضونها عليك ومن حرمان امرأتى وابنى من الكتابة الى . انه تصرف حقير ..... »

وبعد أيام أرسل الى اكس الكابتن هورو ، زوج احدى وصيفات الامبراطورة ، وكلفه بأن يقابل الامبراطورة سرا وان ينصحها بالهرب والتوجه الى جنوا حيث تنتظرها سفينة خاصة أعدها لتنقلها الى جزيرة البا ... ولكن هذا الكابتن فشل فى مهمته اذ كشف أمره وابلغ الى نايبرج الذى القى القبض عليه ورحله الى باريس .

وأخيرا تلقى يوم ٢٨ اغسطس الرسالة التى بعثت بها مارى لويز منذ ٣١ يوليه مع بوسيه ومعها التمثال الرخامى الصغير لملك روما . فاستعاد نابليون أمله . وقد الجأته حرارة الجو فى الجزيرة الى طلب النسيم العليل فى دير ماركشيانو على ارتفاع ستمائة ذراع من سطح البحر وسط غابة كبيرة من اشجار الكستناء . وقد تنازل له الرهبان عن مساكنهم فى الدير واكتفوا بالسكنى فى كهوفه . أما مدام لوتيتيا التى جاءت لتعيش مع ابنها فى المنفى فقد اختارت لسكناها بيتا فى القرية ينخفض عن الدير بحوالى مائة وخمسين ذراعا .

فى صبيحة اليوم الأول من شهر سبتمبر حضر الى نابليون

من يخبره أن سيدة يصحبها غلام أشقر جميل قد وصلت الى الجزيرة في الليل .. فانطلق من فراشه مسرعا .. انها هى .. هى مارى لويز .. ومعها ملك روما .. وجرى الى حيث توجد السيدة والغلام .. من هى ؟ . انها مدام والفسكا وابنها .. سره بطبيعة الحال أن يرى أعز خليلاته الى قلبه وان يستقبل ابنه غير الشرعى .. ولكنه لم يحتفظ بهما الى جواره الا لثمان واربعين ساعة فقط وفى سرية تامة ، خوفا من أن تعلم مارى لويز بنبأ هذه الزيارة فتستاء منها .

انقضى شهر سبتمبر وتبعه أكتوبر وأصبح الانتظار قاتلا ... فلم تعد مارى لويز تكتب أو تراسل .. واضطر الى الانتظار حتى أول يناير ليتلقى منها بضعة سطور جافة ، هى الأصداء الأخيرة لحبهما القديم .. وبعد ذلك صمتت مارى لويز ولم يعد يتلقى منها كتابة حتى النهاية . لم يعد يصله من أخبار ابنه الا ما يتمكن مينيفال من ايصاله الى الماريشال برتران عن طريق بعض رجال المصارف .. انه لأمر جلل .. قدم نابليون شكوى الى ممثل انجلترا فى الجزيرة واحتج على الأساليب غير الانسانية التى يعامل بها « ... لم يحدث قط فى العصور الحديثة أن ارتكبت مثل هذه الأعمال البربرية ومثل هذا الظلم الصارخ من غير أى سبب يتعلق بشئون الدولة » ..

من أسباب سرور نابليون فى منفاه أن يتحدث عن ابنه وأن يروى عن حوادثه وأعماله . وما من يوم يمر من غير أن يذكر شيئا عنه . وكثيرا ما كان يقص على من حوله قصة الرحيل عن التويلرى وغضبة الطفل وتشبثه بالبقاء . انه يرى فيما بلغه عن تصرف ملك روما فى تلك المناسبة ، ما ينبىء عن قدرة كاشفة خبيئة هى خير ما يعتد به كل من يدعى فى يوم من الأيام الى قيادة الشعوب وحكم الدول ... ثم يشتط به التفكير الى المستقبل ! هل سيتاح لابنه يوما أن يقود الشعوب ويحكم الدول ؟ ... ياله من مسكين ..

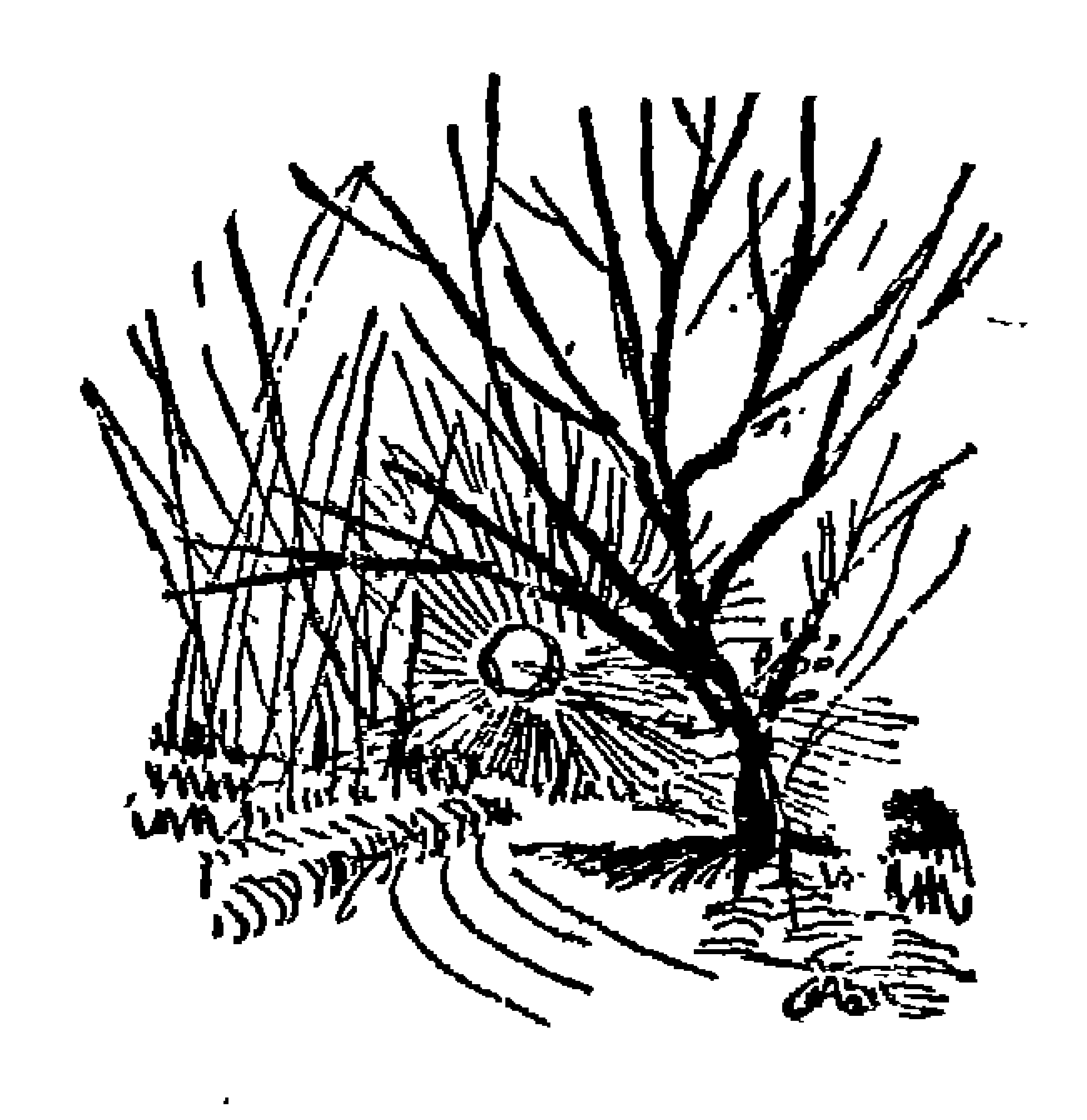
كثيرا ما تمتد يد نابليون الى جيبه ، وتخرج منه علبة النشوق

الصغيرة .. ما به من حاجة الى النشوق ، وانما حاجته كلهـا فى أن ينظر الى صورة الملك الصغير المرسومة على الغطـاء الصدفى للعلبة الصغيرة ، وسط اطار من الذهب .. نظـرة طويلة تتبعها أطراقة وتنهد .. ثم يعيد العلبة الى جيبه القريب من قلبه . ولقد حدث فى أصيل أحد الأيام ، حيث كان يراقب بعض المبـانى ، أن أخرج العلبة الثمينة ، واذا بقدمه ترتطم بحجر والعلبـة تسقط على الأرض .. أسرع يلتقطها وعلى الرغم من كرشه الهائل انحنى حتى وصل الى مكانها وراح يمسحها فى كمه ، وقد شحب لونه ، ولكنه قال « الحمد لله .. لم تصب بسوء .. ما اشـقانى لو ان ملامح حبيبى الصغير أصابها التشـويه بفعلى الأخرق وعدم حرصى » ثم التفت الى من حوله وأراد أن يشرح لهم أسباب اندفاعه هـذا فقال « ان فى طبعى شيئا من حنان الأمهات .. بل كثيرا .. وانى لا أخجل من هذا الحنان . اذ أن من الرجال الذين لا ثقة لى فيهم رجلا لا يحب اولاده » .

فى احد ايام ديسمبر قدم الى جزيرة ألبا أخ للجنرال بوتران ومعه بعض الرسومات التى اشتراها اثناء مروره فى روما ، اخذ نابليون يتصفح هذه الصور وفجأة احمر وجهه وصاح : « هذه هى مارى لويز .. » ولكنه عاد سريعا الى التغلب على انفعـاله ونظر الى الصور بامعان وقال : « انها تشبهها ولكن شيئا فى الفم ليس من الامبراطورة » .. ثم نظر للصورة التالية .. انها تمثل ملك روما وهـو يؤدى صلاته . لم يسـتطع ان يقاوم عواطفه هـذه المرة ، فارتعشت يداه واطال النظر الى الرسم وأخذ يردد « ابنى .. صغيرى .. حبيبى .. » أن الحزن العميق الذى بدا فى هـذه الكلمات أشاع التأثر فى قلوب الحاضرين ، فلم يستطع واحد منهم أن ينبس بكلمة وساد صمت ثقيل ، وفجأة قام نابليون وأسرع الى غرفته حيث انفرد بنفسه لفترة طويلة خرج بعدها وقد أحمرت عيناه وامتقع لونه .

هذا الطفل الذى تعلقت به روحه وعواطفه ، ليس هو وريث امبراطوريته الشاسعة لا ولا الحلقة الأولى من سلالته التى اراد

لها يوما أن تسود العالم .. لا . لا هذا ولا ذاك .. وانما هو ابنه من صلبه ، ابنه من لحمه ودمه ، ابنه الذى حرم من قبلاته ومن حبه ، ابنه الذى سرقوه منه ظلما وعدوانا .. ان الأساليب الخسيسة التى يعامل بها تجرح مشاعره وتمس عواطفه ، وهو عاجز عن دفع هذا الظلم ، وعن محو هذه الاهانة ، فيثور ويصرخ : « لقد حرمونى من ابنى ، استولوا عليه سبيا كما كان أبناء المهزومين يؤخذون سبايا فى الماضى ، ليزينوا بهم انتصارات المنتصرين ... »





ما زال ظل النسر ينعكس على أوربا وينشر الرعب والخوف في قلوب أولئك الذين ما زالوا يتساءلون : كيف قدر لنا أن نهزمه ؟. انه ما زال قريبا من اوربا ، وما زال عظيما في منفاه .. وما من يوم الا ويتساءل نابليون عن هؤلاء الأمراء والملوك والأباطرة الذين اجتمعوا في فيينا ، والذين لا ينطقون باسمه الا وهم يرتجفون ؟ فيقول : « ان وجودي يضايقهم هذا واضح ... » انه يحس بالحقد يحيط به من كل الجهات .. انهم يريدون قتله والقضاء عليه ؟ ولكنهم لا يستطيعون ، ولذلك فهم يسعون الى ابعاده في مكان ضيق وقد اقترح تاليران لهذا المنفى جزر الاسور ، بينما اقترح بوتزودي بورجو جزيرة سانت هيلانة .

لقد تكشفت الآن أمام عينيه الاعيب حميه ، وتأكد من ان هذا الامبراطور ، الذي حنث بكلمة الشرف وخان العهود ، انما يرمي الى حرمانه من زوجته ومن ابنه .. حرمانه الى الأبد .. انه يرى بعينيه جدران الصمت والعزلة تنتصب من حوله .. أصبح الأمر جليا أمامه ... ما من عون ينتظره الا من نفسه . واذا اراد أن يعود فيضم الى صدره زوجته وابنه فما عليه الا أن يذهب الى استخلاص الزوجة والابن بحد الحسام من يدي غاصبيهما .

استقر رأيه على ذلك ولم يعد ينتظر غير الفرصة المواتية . ولم تتأخر هذه الفرصة طويلا . ففي يوم ١٣ فبراير سنة ١٨١٥ وصل الى بورتو فيروجو فى جزيرة البا رجل متخف ظهر انه فلورى دى شابولون الذى كان عمدة لمدينة ريمس فى سنة ١٨١٤ . وقد حمل الى نابليون خطابا من ماريه وزير الخارجية السابق يشرح فيه الحالة فى فرنسا ويقول ان أسرة البوربون لا شعبية لها وان الجيش متذمر وعلى استعداد للثورة وان الشعب يحن الى امبراطوره ويرحب بعودته ، ويرى فيه المنقذ له من كل ما يعانيه .

لم يعد يتردد وانما أصدر اوامره بالسير بعد أن أجرى الاستعدادات اللازمة فى تكتم شديد . وفى يوم ٢٥ فبراير وجه الى الشعب نداءه الذى يقول فيه :

« سوف يسايركم النصر فى هجماتكم ويحلق النسر حاملا علمنا الوطنى من برج الى برج حتى يحط على أبراج نوتردام » .

وفى اليوم التالى ، فى الساعة الثامنة مساء أبحر نابليون متجها نحو فرنسا . وبينما هو واقف فى مقدمة السفينة ينظر الى النجوم وهى تتلألأ فى كبد السماء ، والى مياه البحر الباردة تنساب تحت قدميه راح يفكر فى أمره . الأمل الواسع يملأ قلبه . وعالم المغامرة يعود فيفتح امامه أبوابه . ولكن هل هو يسعى بهذا الأمل ووسط هذه المغامرة الى استرداد الملك واستعادة السلطة والصولجان ؟ . كلا .. انما هو يسعى الى غزوة أعز من هذا كله والثمن .. رأس طفل صغير أشقر الشعر وذراعا امرأة ناعمة .. أليس فى ذلك ما يعلو على عروش العالم كلها ؟ .

***

فى مساء يوم ٦ مارس دعت الامبراطورة ماريا لودوفيكا جميع رجال البلاط واعضاء مؤتمر فيينا الى حضور حفل تستعرض فيه الفاتنات الناعمات ، تلك التى يطلق عليها اسم « اللوحات الحية » وكان الكل فى سرور ومرح وقد اشترك فى العرض اجمل نساء الحاشية . وكانت موسيقى الفالس تملأ الجو حبورا .

وفجأة انتشر نبأ تناقلته الأفواه ، لم يدر أحد من أين جاء ؟ وانما تسلل وسط المدعوين ، تلقى به الشفة فى الأذن ، حتى عم القاعة جميعها :

ـ هل بلغك ما علمت ؟ .

ـ كلا ..

ـ لقد هرب ..

ـ من ؟ .

ـ نابليون .. لقد غادر جزيرة ألبا يوم ٢٦ فبراير .

فجأة ارتسم الرعب على الوجوه وسكن الخوف فى القلوب .. الكل يود الا تكون الشائعة صحيحة :

ـ هذه أخبار كاذبة .. ممن بلغك ذلك ؟ .

فتذكر أسماء مختلفة : لورد ستيوارث ، السفير البريطانى ، وكورسينى وتاليران وغيرهم .

ـ ان الأمر جاد .. فهؤلاء على علم ببواطن الأسرار .

ـ ولكن الى أين هو ذاهب ؟ .

ـ لا يدرى أحد .. ربما الى نابولى .. ربما الى أمريكا .

ان الكل يشعر فى قرارة نفسه انه ذاهب الى باريس . ولكن ما من أحد يستطيع التصريح بما يخالج ضميره . ألقى كل من كان يقوم بتمثيل أدوار « اللوحات الحية » بملابسه ومعدات التمثيل على الأرض واجتمعوا يتباحثون فى الأمر ، وهم يلقون من وقت لآخر نظرة عجلى على الباب وكأنهم يتوقعون أن يروا القبعة التقليدية لنابليون تدخل عليهم فجأة .. أصبح الجو خانقا ، فما من أحد فى هذا المكان الا وشعر بالخطر الداهم يهدده فى ماله أو فى شرفه أو فى حياته .

ان الخوف والغضب والرعب والكراهية كلها اندفاعات تعمى القلوب وتفسد الحكم وتشتت الفكر . لقد ارتفعت هنا وهناك عبارات مقتضبة تنم عما يدور فى صدور القوم « اذا ألقى القبض عليه حيا ، يجب أن يشنق » ، « بل يضرب بالرصاص » ، « يجب أن يموت .. » ها هو تاليران مستندا بظهره الى أحد العمد

الرخامية ، وقد أغمض عينيه ، واصلح من ربطة عنقه ، ودس رقبته بين كتفيه ، وقال فى استهتار : « سنتخلص منه كما نتخلص من الكلب الأجرب » .

فجأة تذكر كل واحد من الموجودين أن هناك أمرا عاجلا يستدعى وجوده فى منزله .. وبعد لحظة كان القصر خاويا ، وقد تشتت كل من فيه تحت سياط الرعب والهلع . وهكذا تسرع بغاث الطير الى حجورها والى مآويها عندما يحلق النسر العظيم بجناحه فى السماء عند الأفق البعيد .

أما مترنيخ ، الذى لم يكن حاضرا فى الحفل ، فقد أوى الى فراشه متأخرا وعند الفجر جاءوا اليه برسالة عاجلة ، قال للرسول والنعاس يغالبه :

ـ ما الخبر ؟ .

ـ انها رسالة من قنصلنا فى جنوا ..

ـ قنصلنا فى جنوا ؟ . انه بلا شك موظف صغير يريد أن يجتذب الاهتمام لنفسه .. سأطلع على هذه الرسالة فى الصباح .

ولكن لم يستطع النوم ، فعاد الى الرسالة وفضها وفى الحال انتصب الشعر فوق رأسه واندفع من الفراش وهو يصيح :

ـ بونابرت .. يا للمصيبة .. بونابرت هرب .

ولم تنقض دقائق معدودات حتى كان ماثلا أمام الامبراطور يفرغ حقده ويبلغه النبأ .. وما أن بلغت الساعة العاشرة حتى كان مترنيخ قد دار على امبراطور الروسيا وعلى ملك بروسيا وعلى جميع الملوك والدوقات والأمراء الذين تستضيفهم فيينا . وفى الساعة الحادية عشرة انطلق الرسل يحملون الى جيوش الحلفاء التى بدأت فى الانسحاب الأوامر بالعودة والسير مرة أخرى فى اتجاه الحدود الفرنسية .

***

علمت مارى لويز فى اليوم التالى بالنبأ الجلل وهى عائدة من نزهة غرامية قامت بها على صهوة الجياد مع نايبرج . وكان الجنرال

نابيرج هو الذى أبلغها الأمر مع الاحتياط والتهوين . ولكن الدوقة لم تتحمل الصدمة وارتمت على أحـد المقـاعد تبكى ، وقد ارتفع نشيجها حتى كان يسمع من الغرفة المجاورة .. لم يجد نابيرج الكلمات التى تهون عليها وقع المصاب . قدم عليها أخوها الارشيدوق جان يحمل اليها عبارات العزاء : « انى أرثى لحالك يا لويز .. يا لك من مسكينة .. ان كل ما أرجوه لك ولنا جميعا هو أن تدق عنقه قريبا » .

ما أن شاع نبأ انطلاق نابليون حتى صاح الخدم جميعهم الذين يعملون فى بيت مارى لويز : « يحيا الامبراطور » فأحست بالحراب تنفذ الى قلبها ، وهدد نابيرج بشنقهم جميعا ، ثم أمر بطردهم بعد تعذيبهم .

ان المسـتقبل يبدو أمام مارى لويز وكأنه هاوية الجحيم قد وقف فى قاعها شيطان له وجه نابليون ينتظر سقوطها ليتلقفها .. هل هى سائرة الى هذا المصير ؟ . كلا .. كلا .. انها تقبـل أى مصير الا الرجوع اليه .. انها تعصر يديها وتقول : « خير لى أن أدخل الى أحد الأديرة » .

لا شك أنه سيطلبها الى طاعته . لقد أصبحت تكره هذا الزوج الذى وصلت به القحة والجرأة الى حد المطالبة بزوجته وبابنه .. ما كان أقدرها على تنظيم حياتها تنظيما هادئا مريحا بعيدا عن هذا الزوج اللجوج .. حياة بورجوازية بسيطة ، مكتفية فيها بعشيقها المطيع وبالأمل فى أن تلعب يوما دور الملـكة على احـد العروش الصغيرة .. فتنعم بابهة الملك دون متاعبه .. ما أبأسها حقا .. ان فى انتظارها بلدا جميلا ، ورهطا من المعجبين والمدللين وفيضا من الحب والغرام .. وهى فى الرابعة والعشرين .. وفى هذه اللحظة بالذات يبرز أمامها هذا الزوج المشاكس اللجوج .

ان معنى اسـتجابتها الى طلب بونابرت أن تعود الى حيـاة الامبراطورة ، العوبة فى يد هذا الرجل يحركها كما يشاء ويتصرف فى شئونها تصرف المالك فى ملكه . ان الحيرة تؤرقها .. ما الذى يجب عليها أن تفعله ؟ . هذا مينيفال ينصـح لها بالانضـمام الى

الامبراطور من غير تردد . أما نابيرج فهو متيقظ لا يغفل ولنصائحه قوة اقناع من نوع آخر ... ان من الجنون الاصغاء الى ما يطلبه نابليون الذى لم يعد له أى حظ فى النجاح بعد أن تحالف العالم كله عليه .. سيقضى عليه عما قريب قضاء مبرما .. أما هى فستفقد الى الأبد فى هذا النزاع الولايات التى وعدت بها .

ارتعدت مارى لويز عند سماع هذا الحديث وعرف نايبرج أنه بذلك قد مس الوتر الحساس فى قلبها فعاد يقول لها فى مكر ودهاء « لويز يا عزيزتى .. لويز .. فكرى جيدا .. واذكرى الجهد الذى بذلناه لنحصل لك من قيصر الروسيا ومن ملك بروسيا على ولاية بارما .. ولا تنسى ان الاتفاق النهائى لم يتم التوقيع عليه بعد .. وما زال تاليران يعمل دسائسه وأنت لا تجهلين مقدار خبث هذا الرجل وخطره .. انه اليوم أكثر من أى وقت مضى يميل الى مساعدة ملكة اتروريا السابقة التى تطالب لابنها بالولايات التى وعدوك بها .. وله أعوانه ومساعدوه .. وأقل حركة خاطئة من جانبك تؤدى الى فوزه والى حرماننا من كل شىء » .

ويتوقف نايبرج عند هذا القدر من الحديث وينظر الى مارى لويز فاذا بارادتها تنهار وبعزيمتها تتلاشى وهى تقول له :

ـ الحق معك يا صديقى .. سأبقى هنا .. ولكن هل لك أن تملى على ما أسلكه من سبيل ؟ .

ابتسم الجنرال ابتسامة صفراء وقال لها :

ـ الأمر جد يسير .. فما عليك الا أن تكتبى لأبيك رسالة تعلنين فيها انك فى حمايته .. فبذلك تقدمين العهد بالطاعة والخضوع وحسن النية .. ويضطر الحلفاء الى مراعاتك .. فلا تفلت ولايتك من يدك ..

احست مارى لويز وكأن حملا ثقيلا قد انزاح عن كاهلها وكتبت :

« أبى العزيز ، فى هذه اللحظة التى تنشب فيها أزمة جديدة تهدد الهدوء والسكينة فى اوربا ، والتى ارانى أواجه فيها مصائب جديدة توشك أن تنهال على راسى ، لا استطيع أن آمل فى الحصول

على المأوى الأمين والحماية الناجعة لى ولابنى الا فى رحاب عطفك الأبوى » .

أمسك مترنيخ بالرسالة وطار فرحا . فهو يدرك مقدار التأثير الأدبى الذى سوف تحدثه له حلفائه الجدد . فهذا التنكر العلنى من جانب الزوجة سوف يدمغ الشقى الكورسيكى بالفضيحة ويلصق به تهمة الشر والقسوة .

فى يوم ١٣ مارس أذاعت الدول المجتمعة فى مؤتمر فيينا بيانا على العالم أعلنت فيه حرمان نابليون من حماية القانون وطرده خارج نطاق المجتمع الاوربى وخارج نطاق المدنية : والتعريض به للانتقام العام .. وقد راح تاليران يدور بساقه العرجاء وبحقده الدفين على أعضاء المؤتمر يحرضهم على سيده السابق ويقول : « ان القرار الذى اتخذ فيه كثير من الحلم والشفقة . بينما نحن نواجه قاطع طرق خطير ويجب أن يعامل معاملة قطاع الطرق .. يجب أن ينص صراحة على أن يهدر دمه وحق لكل من يلقاه أن يقتله » .

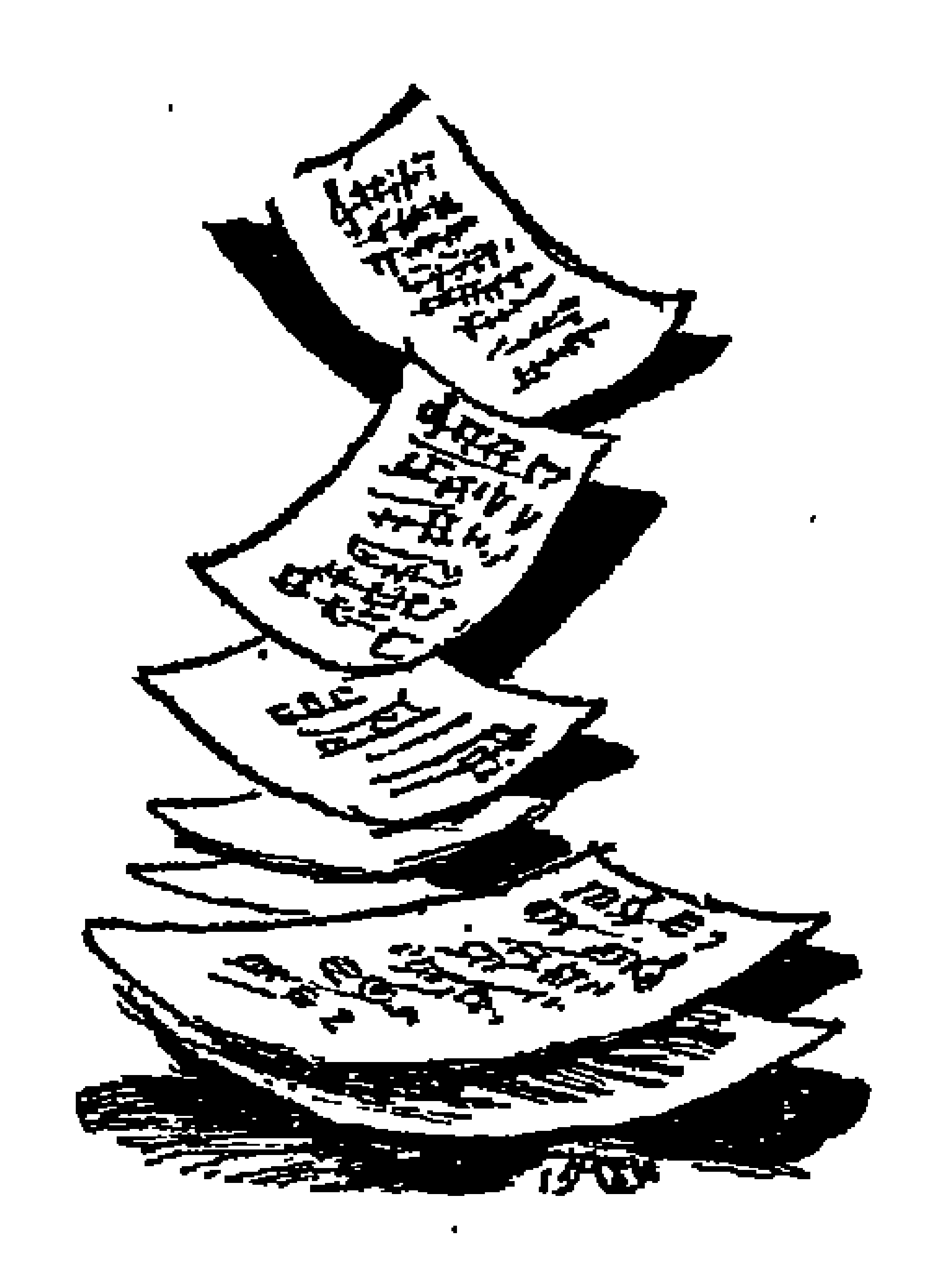
فى اليوم التالى جاء مترنيخ وهو منتفخ الأوداج يعرض على مارى لويز نص البيان الذى أصدره الحلفاء . وأخذت الدوقة تقرأ فأحست بقلق وبشىء من الندم وراحت تسأل الوزير :

ــ اذا قبض عليه ، فما الذى سوف يفعلونه به ؟ .

وكان رد مترنيخ قاطعا :

ــ اذا قبض عليه فى النمسا فسيحبس فى أحد الحصون .. أما فى فرنسا فاكبر الظن انه يشنق ..

وهنا فكرت مارى لويز لحظة فى ابنها وقالت : « مما يؤسف له حقا أن يكون لابنها اب مشنوق » .





ما كاد يتأيد نبأ فرار نابليون من منفاه حتى ثارت امام مترنيخ أسباب اخرى للقلق والخوف . أليس فى استطاعة بعض الفرنسيين أن يحاولوا اختطاف أمير بارما واخذه الى ابيه ؟ . هذا الطفل رهينة ثمينة يجب الاحتفاظ بها والافادة منها . لقد كلف هاجير وزير الأمن والشرطة بمضاعفة الحراسة حول قصر شونبرون ؟ وارسلت أوصاف الطفل الى كافة الحدود مع تعليمات مشددة بعدم السماح له بالخروج أيا كانت الأسباب .

ولقد حومت الشبهات حول كل من يحيط بالأمير الصغير .. وقيل أن اناتول ابن مدام دى مونتسكيو ، مربية الطفل ، قد شوهد على مقربة من اسوار القصر داخل عربة معدة لسفر طويل . استند رجال السلطة الى مثل هذه المزاعم وأعلنوا عدم أمكان توفير الحراسة المحكمة فى مثل هذه الظروف وضرورة نقل الطفل الى داخل فيينا حيث الرقابة أيسر مع سرعة ابعاد الفرنسيين المحيطين بالغلام .

ولم يعترض الامبراطور على هذه الأسباب التى ابديت له . وفى يوم ١٩ مارس نقل الأمير الصغير الى هونبرج ، وخصصت له حراسة من الجنود الايطاليين فلم يلبث هؤلاء الجنود أن اخذوا

يصيحون في كل صباح وهم يقومون بمرورهم اليومي امام القصر « يعيش اميرنا نابليون » .. يقولونها بلهجتهم الايطالية مع رفع قبعاتهم على أسنة بنادقهم .

ثم جاء دور العمل على تطهير حاشية الأمير من الفرنسيين .. ففي يوم ٢٠ من مارس حضر البارون ويسنبرج كبير الأمناء الى مدام دي مونتسكيو وابلغها أمر الامبراطور بانهاء عملها فورا .. ثارت المربية وبكت واستعطفت ، ولكن بلا جدوى . فقد كانت تعليمات الامبراطور صريحة . عندئذ قالت مدام دى مونتسكيو : « في هذه الحالة أطالب بصدور امر مكتوب لى وتسليمى شهادة طبية تثبت انى أترك الأمير وصحته جيدة » فأجيبت الى طلبها بلا ابطاء .. وأضاف الامبراطور الى هذه الشهادة حلية من الأحجار الكريمة .. اما مارى لويز فكتبت لها رسالة ودية وأرفقت بها خصلة من شعر الصبى .

وفي يوم ٢١ من مارس قبلت مدام دى مونتسكيو الطفل للمرة الأخيرة .. ذلك الطفل الذى قامت له بدور الأم منذ أربع سنوات . ثم انسحبت وبظنها أنها ستغادر فيينا فى اليوم التالى .. ولكن مترنيخ بدهائه وحرصه كان يرى غير هـذا الرأى .. أليس من المتوقع أن تبادر هذه المرأة بمجرد عودتها الى بلادها الى الاتصال بنابليون وابلاغه الأنباء عن ابنه ؟ . وهل يسمح العداء الذى بينه وبين نابليون بترك هذه الأنباء تصل اليه كالنسيم العليل فتحيى منه النفس والأمل ؟ . كلا فليحرم حتى من هذا .. وعندما ارادت مدام دي مونتسكيو الرحيل سحبت منها أوراقها وأبقيت فى فيينا ثلاثة شهور تعيش عيش الضيق فى مسكن حقير ومعها ابنها اناتول الذى القى القبض عليه عند الحدود وأعيد الى فيينا .

اما مينيفال ، سكرتير نابليون الأمين ، فقد ظل يكافح بلا أمل لاقناع مارى لويز بالعودة الى سيده . كان يحاصرها بالحجج القوية والراي السديد .. كيف تفكر فى الانفصال عن الامبراطور الذى يحبها والذى لم يسىء اليها فى شىء قط ؟ . الا ترى أن مسئولية هذا الانفصال سوف تقع كلها على عاتقها هى ؟ . وكان هذا الحديث

يضايق مارى لويز ويحرجها فكانت تقول لمينيفال فى خبث : « مادمت قد تنكرت لنابليون وهو فى جزيرة البا وقت أن كانت اوربا باسرها تصب عليه جام غضبها ، فهل يليق بى أن أعود فارقى معه درجات العرش بعد أن استعاد سطوته وسلطانه ؟ . أما عن ابنى فلن انساه .. وبمجرد أن يتم لى الاستقرار فى بارما ؟ سيكون فى استطاعتى أن اقتصد له فى كل عام خمسمائة الف فرنك لتأمين حياته واستقلاله » .

وكان مينيفال ينظر فى دهشة الى هذه المراة ، سليلة الملوك والاباطرة ، وهى تفكر هذا التفكير كأنها من أحط بنات الشعب فيقول لها :

ـ يا سيدتى .. هذا ابن نابليون ، وابن نابليون ليس فى حاجة الى المال .. ولكن الى العرش .. العرش الذى يجب عليك أن تحفظيه له ..

ولم تكن مارى لويس تصغى لهذه الكلمات ، فقد كان ذهنها مشتتا . لقد سافر نايبرج منذ اول ابريل لمحاربة مورا . وكان الوداع بينهما حارا مؤثرا . فقد وعد الجنرال بأن يكتب لها كل يوم رسالة ، وكانت مارى لويز تتابع فى ذهنها ذلك الحبيب الغائب ؟ وترتعد لما يتعرض له من أخطار الحرب .. لقد مضى على غيابه ثمانية عشر يوما ولم تتلق بعد منه رسالة .. فكانت تقضى لياليها دامعة العين وأيامها مضطربة الفؤاد .. ولعل الانسان الوحيد الذى أحس بحرقة هذا التلهف على وصول رسالة من الحبيب الغائب كان فى يوم من الأيام نابليون وهو نزيل جزيرة البا .

لم يلبث مينيفال أن فهم جيدا ما يجب عليه عمله ، فطلب الاذن بالعودة ، وحصل عليه بغير صعوبة ، ورحب القوم بالتخلص من وجوده . وفى يوم ٧ مارس ودع الأمير الصغير . وفى اليوم التالى راح يستأذن مارى لويز فى الانصراف . فقالت له فى تأثر مفتعل : « سوف تنقطع الى الابد كل صلة لى بفرنسا ، ولكن تأكد ، يا مسيو مينيفال انى سأحتفظ دائما بذكرى هذه الأرض التى كانت لى وطنا مختارا » .

سألها مينيفال وهو حزين القلب ؟

ـ هل من رسالة منك يا سيدتى ابلغها الى صاحب الجلالة ؟ . هل لى ان احيى فيه الأمل بأن ...

لم تتركه يكمل كلامه وأسرعت تقول :

ـ بلغ الامبراطور مقدار الخير الذى أتمناه له .. وارجو ان تعنى بشرح موقفى له ، وأن تفهمه مقدار ما أعانى من مصائب .. يجب أن يرضى بالفراق بيننا .. ولكن اريد أن يعلم انى أحتفظ له بمشاعر لا تتحول من الود والامتنان ..

لقد عادت الثقة تدب الى قلب مارى لويز وتبين فى أحاديثها . ولا عجب فقد أخذت الأنباء السارة تنهال عليها فى الفترة الأخيرة . ففى يوم ٢٣ ابريل ماتت زوجة نايبرج واصبح حبيبها طليقا من كل قيد .. وفى يوم ٢٧ مايو قبضت امبراطورة الفرنسيين السابقة ثمن الخيانة والخضوع والجبن حيث قرر مؤتمر فيينا منحها دوقيات بارما وبليزانا وجواستلا ، من غير أن يذكر ابنها بكلمة واحدة ، ومن غير ان يشير الى حقوق الوراثة فى هذه الامارات .. وفى الوقت نفسه منح نايبرج الجزاء الحق على ذكائه واخلاصه وما أداه من عمل جرىء .. فأعطى لقب مارشال فى البلاط ، وهو لقب يتيح لحامله الحق فى الركوب مع الأرشيدوقة فى عربة واحدة أثناء الاحتفالات الرسمية .

اخذت مارى لويز تحمد الله ، فقد زال الكرب ، وانقشعت الغمة ولم تعد ترى غير ظلال بعيدة تلقيها أجنحة النسر الطليق على تلك الأحلام الباسمة فترتجف لها لحظة وتقول لمن حولها : « نذر على اذا امسكوا به حيا ، ان أحج الى كنيسة ماريا زيلى فى الجبل سيرا على الأقدام » .





كانت الصحف فى باريس تعبـــر بعناوينها عن التطــورات التدريجية للمغامرة الكبرى التى يقوم بها نابليون ، فيزداد حماسها كلما ازدادت انتصاراته ففى أول مارس كتبت هذه الصحف : «نزل بونابرت فى خليج جوان » وفى ٨ مارس كانت عناوينها : « فتحت جرينوبل أبوابها أمام الجنرال بونابرت » وفى يوم ١١ من مارس : « دخل نابليون منتصرا فىمدينة ليون » وفى يوم ٢٠ من مارس : « نزل حضرة صاحب الجلالة الامبراطور فى قصر التويلرى » .

ولم ينتظر نابليون حتى يرفع العلم مثلث الألوان فوق مدينــة باريس لكى يكتب لزوجته ، فقد أرسل لها من جرينوبل ومن ليــون ومن فونتنبلو .. فى كل يوم كتب لهـــا يدعوها الى اللحـــاق به سريعا .

وعندما استقر له المقام ، وبينما هو يواجه ضرورات الاستيلاء على البلاد واعادة تنظيم الجيش وملء الخزينة بالأموال ورفع عزيمة الشعب استعدادا للصعاب المقبلة ، كان همه الأول استدعاء زوجته وابنه الى جانبه . يجب أن يكونا الى جواره وأن يريهما للشـــعب بأسره ، فبغيرهما لم يعد هو شىء يذكر . يجب أن يكونا معـــه ،

وخصوصا ابنه .. انه لازم له ليربط بين الأمة والامبراطورية بذلك الرباط الجديد الذى ينسجه الحماس والحب .

فى يوم ٢٨ مارس كتب لزوجته يقول :

« عزيزتى لويز ، انا اليوم سيد فرنسا كلها ، ان الشعب كله والجيش كله فى حماس كبير . أما الملك المزعوم فقد هـرب الى انجلترا وربما الى ماهو أبعد من انجلترا . ان قواد جميع المواقع التى يرفرف فوقها علمى ، وحرسى القديم كله مجتمعون حـولى الآن ، انى أستعرض فى كل يوم خمسة وعشرين الف رجل . لـم تعد فرنسا تخشى أحدا . انا فى انتظارك لشهر ابريل . كونى فى سـترازبورج ومعك ابنى يوم ١٥ او يـوم ٢٠ من أبريل . وداعا يا حبيبتى .. كلى لك » .

نابليون

عاد بعد ستة أيام يكتب لهـا :

« الكل يعبدنى هنا ، وأنا سيد الجميع ولا ينقصنى غيرك أنت ياعزيزتى لويزوغير ابنى .. تعالى حالا الى ملاقاتى عن طـريق سترازبورج » .

أعد نابليون كل شىء لاستقبال الزوجة والابن ، وراح يتعجل قدومها وفى أول ابريل كتب الى امبراطور النمسا يحرك فيه عواطف الأبوة ويطلب منه زوجتـه وابنه ، موضـع حبـه .. انه يبعث كل يوم الى فيينا بالرسـل والسفراء والعمـلاء السريين المزودين بالرسائل والتعليمات . ان الأمل يملأ قلبه والاقدام يدفعه .. واذا كانت مارى لويز لم تشأ ان تذهب الى زوجها وهو سجين فى جزيرة البا .. فها هو السجين قد عاد امبراطورا ، ولا شك اغراء العرش والتاج سيجذبانها اليه بلا ابطاء .

ولكن الأيام تمر ولا يرى نابليون احدا .. انه لم يعلم بعـد ان وسله هو ومونترون وستاسار قد فشلوا جميعا فى مهمتهم .

عندما ذاعت انباء عودة نابليون طارت اليه ، معظم النساء اللواتى أحببنه حبا صادقا : جاءت مدام بيلابرا من ليون ، ومدام والفسكا من نابولى ومدموازيل جورج التى أرادت أن تثبت له تعلقها به على الرغم من كونها ممثلة بسيطة ، وابنة زوجته الاولى هورتانس جاءت

هى الاخرى الى جواره .. اجتمعن كلهن من حوله لم ينقصهن غير الزوجة الحليلة . وعلى الرغم من المظاهر كلها مازال نابليون ينتحل الأعذار لمارى لويز .. اذا كانت لم تستجب بعد الى ندائه فما ذلك الا للقيود المفروضة عليها .. لا ، انها مازالت تحبه .. فهى زوجته ولم يقع بينهما شقاق أبدا .. ان ذكرى أيامه السابقة معها تمنعه من أن يفتح الى قلبه سبل الشك فيها .

استطال الصمت من جانب مارى لويز ولم يصل منها أى خبرأو اشارة ، كأن لاوجود له فى نظرها . ثم أخذ الضوء ينفذ قليلا قليلا الى بصيرته .. ضوء بدأ فى أول الأمر فاترا كريها ثم راح يشتد ويقوى كل يوم . واذا بخطاب يصل من مينيفال الى كولانكور الذى أسرع يطلع نابليون عليه . ان مينيفال يحاول فى هذه الرسالة ان يرفع فى حرص شديد جانبا من الستار الكثيف :

« لقد خضع ذهن الامبراطورة الى كثير من المؤثرات حتى أصبحت لاتنظر الا بعين الرعب الى احتمال عودتها الى فرنسا . لقد استخدمت معها جميع الوسائل المكنة منذ ستة اشهر لابعادها عن الامبراطور » ! . وما أن أطلع نابليون على هذه الرسالة حتى صاح

ـ لقد توقعت ذلك من قبل انهم يحاربون فيها كل عاطفة تربطها بى وبفرنسا ..

ولكن الشك مازال يراوده . وبوده لو حصل على بيانات وافية عن هذه المؤامرة الخبيثة التى تحاك له . لعله واجد مايشفى غليله لدى بلوهى المشرف على حسابات مارى لويز والذى سيقدم من فيينا يوم ٢٨ ابريل . ولكن بلوهى هذا الرجل الشريف المستقيم ؛ لم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، أو هكذا قال .. وكان نابليون قد انتظر قدومه على أحر من الجمر ، وأقام له الحراس يترقبون حضوره ويدخلونه عليه من قبل أن ينفض عن ثيابه وعثاء الطريق .. ولكنه خرج منه بغير طائل وهكذا لم يبق غير مينيفال الذى أعلن عن قرب مغادرته لفيينا . ان مينيفال يعرف كل شىء وكم يود نابليون أن يلقاه ويلقى عليه الأسئلة ويستخلص منه الحقيقة أيا كان وقعها مريرا على قلبه .

جلسا في مكتب الامبراطور بقصر التويلري ، نابليون متكئا الى المدخنه التي تعج بالنيران على الرغم من طقس مايو الدافيء . وأمامه مينيفال الذي يحمل في صدره السر الذي يريد الوقوف عليه . نظر الامبراطور الى سكرتيره القديم نظرة فاحصة فوجد الأيام قد نالت منه واصابه الهزل وانتشر الشيب في راسه . احس مينيفال بنظرات الامبراطور تحط عليه وكأنها الجمرات الحارقة والأسئلة المتدفقة من فمه تحاصره من كل ناحية :

ـ هيا يا مينيفال ، لقد غادرت ابني منذ زمن قريب ، هلاحدثتني عنه ؟.. كيف هو ؟ كيف صحته ؟ هل كبر ؟ هيا ، أبلغني كل ماتعلم كل مالديك .. هل فهمت ؟ كل شيء .. أريد كل شيء .

غلب على مينيفال الحرج فحاول الابتسام وقال :

ـ مولاي ، ان سمو الأمير في صحة جيدة ، يفوق أقرانه قوة ونشاطا . انه مليء بالحيويةوكل شيء فيه يبشر بحياة طويلة مبرأة من الآفات .. لقد نما نموا كبيرا . ويبلغ طوله الآن قدمان ونصف قدم ، ومازال محتفظا بشعره الأشقر الجميل المتهدل خصلات كبيرة على كتفيه ..

عند ذكر الشعر الأشقر المتهدل أغلق نابليون عينيه وراح يستعيد في خياله الصورة الجميلة التي أثارتها هذه الكلمات . ثم عاد ففتح عينيه وراح يسأل في اهتمام :

ـ هل تبذل له العناية الكافية ؟.. من هم الذين يحيطون به ؟.

ـ مدام سوفلو وابنتها ، ومدام مارشان خادمته . هؤلاء هن الفرنسيات الباقيات .. ولكن لتطمئن جلالتكم فهن يسهرن على راحته في حنان وحب كما لو كانت فرنسا كلها هي التي تحنو عليه .

ـ ماأخلصهن وما أنبل قلوبهن !.. لن انسى لهن هذا المعروف أبدا .. ومدام دي مونتسكيو ؟ .

ـ لقد استبدلت بها سيدة تدعى الكونتيسة ميتروفسكي تتمتع بعطف كبير .

شحب وجه نابليون عند سماعه هذا الكلام وقال :

ـ ياالهى ، كيف اسكت على ترك ابنى بين يدى احدى النمساويات ولكن .. قل لى .. ما السبب فى عدم عودة مدام دي مونتسكيو الى فرنسا حتى الآن ؟.

ـ لقد استبقوها قسرا عنها فى فيينا يا مولاى ، ورفضوا اعطاءها جواز السفر .

ارسل الامبراطور ضربات شديدة من كعب حذائه على قطع الخشب التى تضطرم داخل المدفأة فتهاوت وانبعث منها الشرر ثم قال :

ـ سأنتقم لهذه الاهانات قريبا .. ولكن اكمل حديثك ياميثيفال قلت لى أن ابنى وافر الذكاء ؟.

ـ وكثير النجابة والفطنة يامولاى ، قد لا تصدق جلالتكم انه يبدى منذ الآن ميلا ظاهرا لفن الحرب .

ـ حقيقة ؟ .. فى هذه السن المبكرة ؟.

ـ لقد قال لى يوما . « أريد أن أكون جنديا كأبى ، ان اتقدم الصفوف فى الهجوم كما يفعل » . واذا اعترضت عليه بقوله : « ولكن ياسيدى الامير سوف تمنعك الحراب من المرور .. ، هز رأسه وقال لى فى ثبات عجيب .. ألن يكون فى يدى سيفى أريح به تلك الحراب ؟ . »

ـ حبيبى ... ابنى .

ظل نابليون لحظة صامتا يجول بنظره فى تلك الغرفة يستوحى الذكريات من بين ارجائها .. الم يقض فى هذه الغرفة اسعد ساعات حياته فى صحبة فلذة كبده ؟ هذا هو ركن المنضدة الذى ارتطم به الصغير يوما وراح يبكى من عنف الصدمة ، فحمله الامبراطور بين يديه يقبله ويقول له : « هذ الا يليق يا مولاى .. ما اقبح أن يبكى الملوك » .. وهذه هى المرآة التى كان يقف امامها الساعات يلوى فى قسمات وجهه ليضحك الطفل .. وهذا هو البساط الذى كانا يلعبان معا عليه بالعسكر الخشبية فيحركها الأب حركات الحرب الحقيقية ، ويحركها الابن حركات العبث واللهو ، فتتفق النتائج رغم اختلاف النوايا . ثم عاد الامبراطور يسأل وفى صوته رنة الخوف والوجل :

ـ وهل مازال يذكر اباه ؟.

ـ مولاى . ما أن يذكر احد اسمك أمامه حتى يتعلق به نظره ولا يحيل عنه عينيه ..

ـ وهل يتحدث عنى ؟.

ـ كثيرا جدا .. لقد حدث منذ شهور أن جاء السير نيل كامبل الكوبودور الانجليزى الذى صحبكم فى جزيرة البا ، لرؤية الأمير ، فأخذه بين ذراعيه وقبله على وجنتيه وقال له : « لقد كلفنى ابوك بأن اقبلك » وكان الامير ممسكا بلعبة ، المانية فالقاها بقوة على الأرض حتى انها تكسرت وانفجر يبكى بكاء مرا ويقول : « ابى ، ابى ، مسكين ابى » .

ساد صمت طويل لم يسمع خلاله غير وجيب النار فى المدفأة وضجيج الجند على البعد وهم يستعدون للقيام باستعراض فى ساحة الكاروسيل وأخيرا رفع نابليون نحو سكرتيره وجها نال منه الحزن واختلطت فيه الدموع ، وقال بصوت مختنق :

ـ يا مينيفال ، ان احقر اسكافى أسعد منى حظا .. فهو على الأقل ناعم بقرب زوجته وأولاده منه ..

وراح نابليون يذرع الارض عاقدا يديه وراء ظهره ، مستمرا فى توجيه الأسئلة الى مينيفال عن ابنه ، مستفسرا عن الدقائق والتفاصيل ، عن العابه وعن نزهاته ، وعن ملابسه . وكان مينيفال يجيب عن كل ما يسأل عنه بينما الوقت يمر سريعا ، الليل يقترب حاملا معه الظلمة التى يصلح فيها الكلام عن الأسرار التى لا يباح بها ..

وجه نابليون السؤال الذى تردد فى صدره طويلا ، وهو يتوجس خيفة من الجواب الذى سيتلقاه عنه :

ـ والامبراطورة ؟ .. هل قابلتها قبل رحيلك ؟.

ـ لقد استأذنتها فى السفر وتبادلنا عبارات الوداع ... لقد تحدثنا حديثا طويلا ... واعطتنى عند مغادرتى اياها علبة النشوق هذه وعليها اسمها بفصوص الماس ... انها كانت تبدو محزونة .. نعم يامولاى محزونة جدا .

هذه الكلمات الأخيرة التى القاها مينيفال من طرف شفتيه اثارت

فى قلب نابليون شيئا من الأمل على الرغم مما فيها من غموض وتحفظ .

ـ ما الذى قالته لك ؟ . هل هى تتحدث عن امكان القدوم الى فرنسا ؟ .

واذ سكت مينيفال عن الرد ، عاد نابليون يلح عليه فى الكلام ويقـول :

ـ هيا تكلم . أنا قادر على سماع الحقيقة كلها .

ـ مولاى ، لقد قالت لى « أن موقفى عسير ولا استطيع التمرد على اسرتى ولا الخروج على طاعتها . لقد ولدت فى ظل نجم مشئوم ولن يكتب لى الهناء ابدا » .

هز نابليون راسه وقال :

ـ لشد ما قاست بسببى ، هذه المسكينة ، أنها صغيرة السن ضعيفة الشكيمة سهلة التأثر والانضواء .

انه يريد أن ينتحل لها الأعذار ، ولـكنه عاد يبدى استغرابه لهذا الخضوع والاستسلام .

ـ الم تصلها رسائلى ؟ خطابى المؤرخ ٢٨ مارس وخطابى الأخر المؤرخ ٤ ابريل وقد طلبت منها فيهما أن تأتى الى مقـابلتى فى سترازبورج ؟ .

وهنا حنى مينيفال راسه وكذب :

ـ لا ، يامولاى ، لم تصل اليها هذه الرسائل .

نعم لقد كذب مينيفال .. وهل كان فى استطاعته أن يقول له انه فى احدى الامسيات مابين السـاعة العاشرة والحادية عشرة خرج الى مكان ما فى فيينا وتلقى احدى هاتين الرسالتين من يد الرسول وسلمها بدوره الى مارى لويز ، وان الامبراطورة دفعت بهذه الرسالة فى اليوم التالى الى مترنيخ ؟ . هل كان فى استطاعته أن يروى أن الرسالة الأخرى التى كلف مونترون بتسليمها قد وصلت فعلا الى فيينا وتلقاها مينيفال بنفسه بين يديه ، وانه لما يعلمه عما سوف تفعله مارى لويز بها ، سلمها بالاتفاق مع مدام دى مونتسكيو الى مدام سفلو لتحرقها ؟ .

عاد نابليون يذرع أرض الحجرة فى عصبية وهو يقول :

ـ كل ذلك سيتغير قريبا ، حينما يعود النصر فيبتسم لى «»
واخذ من جديد يلح فى السؤال الذى يشغل باله :
ـ وهل الححت عليها يا مينيفال ؟ . هل أبنت لها جيدا واجبها كزوجة والتزاماتها كأم ؟ .
ـ لم يفتنى ذلك ، يامولاى ... لقد لفت انتباهها الى الاضرار التى تنجم عن هذا الموقف الفاسد الذى تقفه عامدة راضية . ولقد قالت لى :
« لن اوافق على الطلاق أبدا ، ولكن اجتهد فى أن تفهم الامبراطور أن الفرقة بيننا اصبحت امرا لا مناص منه » .
انفجر نابليون غاضبا وتحول لون عينيه الى لون الصلب الداكن وقال :
ـ ليست مارى لويز هى التى ابتدعت هذا الكلام .. لا .. انى اعرف ما فى قلبها كل المعرفة ... من ياترى الذى حولها عنى هذا التحول ؟ . من ؟ . لا شك انك تعرفه يا مينيفال .. أنت تعرفهم وتعرف دسائسهم ورأيت كيف يعملون . هل هو حميى الامبراطور ؟ أم هل هو مترنيخ ؟ أم هل هى حماتى ؟ .. ونايبرج هذا ؟.. لابد أن له ضلعا هو الآخر .. ولكن من هو نايبرج هذا بالضبط ؟.. من يكون هذا المخلوق ؟ . هلا حدثتنى عنه ؟ .
قال نابليون هذا ، واقترب من مينيفال واضعا يديه على كتفيه ، ومحدجا بنظره فى عينيه . وقد أحس السكرتير بالحرج ، وشحب لونه وارتعدت فرائصه وأشاح بوجهه عن الامبراطور .. ولكن قوة جاذبة لاتقاوم أخذت تهبط عليه وتدير رأسه رويدا رويدا حتى تقابلت عيناهما فجأة ..ولقد انتابت نابليون رعدة لمنظر الحيرة والرعب والحرج فى عينى مينيفال ، وشعر وكأن نفسا هناك تتضرع اليه وتستعطفه قائلة « لا . لا . لاتحملنى على البوح بكل ماأعرف رحمة بى .. رحمة بك » .
أشاح الامبراطور هو الآخر برأسه ، وابتعد عن مينيفال . نعم يجب الا يعرف الحقيقة ..يجب الا تسجل الكلمات المشئومة صورة نهائيةعلى الكارثة التى حلت به.. يجب أن يظل ايمانه كاملاواعتقاده

سليما .. فما زالت به حاجة الى الاحتفاظ بالثقة في زوجته .. حاجة له ولفرنسا من اجل اثارة غضبة الشعب وتحريك عاطفته .. من اجل أن يصرخ فى الشعب ويقول : « انظر أيها الشعب ، انهم الجلادون الذين يرتكبون هذا الجرم فى حقك . اولئك الذين يزعمون العمل باسم الفضيلة ووفقا للقانون الالهى .. » فليصمت مينيفال اذن .. ليصمت ، اذمن الضرورى انتظل صحيفة مارى لويز ، صحيفة الأم ، والزوجة ، ناصعة البياض طاهرة . يجب ان تثبت أنها صورة الضحية .. لاشيء غير الضحية .. حتى يمكن أن يصاغ من مأساتها الصورة الحزينة التى تقف لها فرنسا كلها على قدم وتهب للدفاع عنها ضد أعدائها ..

ولكن نابليون عاد يقول فى مرارة .

ـ لتطمئن مارى لويز .. فلن الجأ الى القوة لحملها على العودة الى جوارى .. فاذا ما تغير ما برأسها ، فسأكتفى بابنى .. فهو على الأقل مازال لى مخلصا ..

أسرع مينيفال يقول فى اندفاع :

ـ أما هذا فنعم ، يامولاى ، نعم ..

ادهشت هذه الكلمات نابليون فانقض على سكرتيره يقول :

ـ ما الذى تعرفه غير ما ذكرت ، يا مينيفال ، هل هناك اشياء لم تخبرنى عنها ؟ انك لم تذكر لى كل شيء ..

ـ كلا يامولاى لم اذكر كل شيء ..

وبصوت تخنقه العبرات راح مينيفال يروى :

ـ قبل ان أغادر فيينا ذهبت الى هوتبورج لوداع الأمير فوجدته فى صحبة مربيته الجديدة ومعها مدام سوفلو . وعندما دخلت عليه ورآنى لم يسرع نحوى كعادته وهو يصفق بيديه ويستعد للضحك والكلام معى .. وانما نظر الى على البعد كأنى رجل غريب ، اقتربت منه وأمسكت بيديه وسألته « ياسيدى الأمير هل هناك ماتريد منى أن أبلغه الى أبيك الذى سأراه قريبا ؟ . » فنظر الى مربيته ورفع نحوى عينين حزينتين ، ثم سحب يده ببطء من يدى ومن غير أن يرد

على سؤالي انسحب صامتا الى ركن احدى النوافذ ومن هناك ظل ينظر الى . فاستأذنت من السيدتين وعدت اليه ، وعندما انحنيت عليه لاقبله القى نظرة الى مربيته ليتأكد من أنها لاتراه ثم جذبني من كمي وبصوت خافت مضطرب أسر الى في أذني : « يا مسيو مينيفال قل لأبي اني مازلت احبه .. احبه كثيرا » .

سكت مينيفال ، ونظر الرجلان كل منهما الى الآخر وقد سالت على وجهيهما الدموع ..

وقال نابليون في صوت متهدج :

ـ ابني !.. ما احرق قلبي الا حرماني من هذا الطفل !

ثم نهض واقفا وجمع قبضة يديه وصاح في غضب شديد ،

ـ ياالهي .. ماأكثر الدم الذي سيسيل قبل أن تمحي هذه الجريمة .





٢٤

اسلمت مارى لويز ابنها الى ابيها . ووافقت على كل مايراد من اجل تحويله الى امير نمساوى . وكانت ترى فى ذلك الحل العاقل السليم الذى يضمن للطفل مصالحه . فلم يعد يرتجى اى خير من آل بونابرت الذين تبعثروا فى جميع انحاء العالم . وكأنهم جماعة الغربان بددتها العاصفة .. أما النمسا ففى استطاعتها أن تضفى على ابن نابليون اللقب والجاه والشرف الرفيع .

فى شهر فبراير تلقت مدام مارشان ، وهى الفرنسية الوحيدة التى بقيت حتى الآن فى خدمة الفلام ، الأمر بالرحيل . انها لم تتركه لحظة واحدة منذ ولادته وكانت هى التى تلبسه وتطعمه وتنيمه وتغنى له الأناشيد الفرنسية القديمة ، وكثيرا ما كانت تحدثه عن أبيه فتروى ما يرويه البسطاء من الرجال الذين ارتقوا بقلوبهم الى مصاف الآلهة .

وكان الطفل يحس بما فى قلب هذه المرأة من حب له وخضوع لرغباته . فكان اذا ماأغضبه منها أمر ، يرتمى عليها ليضربها ويصيح فيها : « ياشانشان انت أسوأ امرأة فى العالم وسأطلب من جدى أن يسجنك ان لم يعيدك الى باريس » .

لكنهم كفوه عناء التقدم بهذا الطلب .. فقد فكر فيه قيصره فعـلا .

وفى يوم ٢٧ فبراير ١٨١٦ تولت مدام مارشان كالمعتاد اعداده للنوم ولم تقل له شيئا . فألبسته قميصه وسرحت له شعره وطلبت منه أن يؤدى صلاته ، ثم وضعته فى فراشه وبعد أن أغمض عينيه نظرت اليه طويلا وانحدرت من عينيها الدموع الغزيرة . ثم فجأة نهضت وأسرعت بالفرار وهى تعض بأسنانها على منديلها .

وفى اليوم التالى استيقظ الطفل فوجد الى جواره بدلا من مدام مارشان الكابتن فورستى معاون المربى . فعض على شفتيه . لقد فهم كل شيء ودفن فى صدره رغبة شديدة الى البـكاء . قال :

ــ مسيو فورستى .. هل يمكننى أن اقوم من فراشى ؟..

وهكذا لم يعد يرى نساء من حوله يقمن على خدمته . وحرم العطف والحنان ، والأيدى الناعمة التى تدلله ، والصدر الرؤوم الذى يرتمى فيه كلما انتابه الحزن والشجن . انتهى كل شيء ولن يعثر حوله على الحب ، الذى يتمتع به الأطفال جميعا فى سنه . لن يشرف على شئونه ويرعى أموره منذ اليوم غير أولئك الرجال الغرباء الموكلين بمهمة يؤدونها ، وبفرض يسعون اليه من غير قسوة ، ولكن فى دقة ونظام ودأب .

ذهبت مارى لويز الى بارما يوم ٧ مارس ١٨١٦ ، ومعها نايبرج والطفل جوبرو ، وهكذا ظل الأمير الصغير بغير رفيق الا مدرسيه ، الكونت ديتريشتاين والكابتن فورستى ، وانضم اليهما ماتيوفون كويسن استاذ الفلسفة فى جامعة فيينا ومسيو ماير أستاذ الخط فى مدرسة العلوم الفنية العليا . ولم تلبث أن برزت الصعاب الى العيان فقد رفض الأمير أن يتعلم اللغة الألمانية وأخذ يصيح ويضرب الارض بقدميـه :

ــ لاأريد ان أكون المانيا .. اريد ان اكون فرنسيا ..

تشبث مدرسوه بضرورة تعليمه هذه اللغة وتشبث هو بموقفه واذ وجه اليه التأنيب والتقريع أصر وهو يشد على أسنانه . واذا انزل به العقاب ازداد عنادا ورفضا . ولقد احتـاج الأمر الى أن

تتدخل أمه لديه ليتزحزح من موقفه . مع ذلك فقد ظل مصرا على ان يجيب باللغة الفرنسية على مايلقى عليه من حديث باللغة الألمانية ثم هو سريع الفضب يمزق كراساته وكتبه ، ويتعمد الاساءة الى فورستى بأن يلفظ أمامه العبارات السوقية المبتذلة التى تعلمها من أميل جوبرو ، ويقول له :

ـ كم كنت سعيدا قبل أن ارى وجهك وقت أن كانت توتو الى جوارى .

وكان الغلام فى هذه الفترة يظهر من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر مايدهش مخاطبيه . ففى أحد الأيام وكان يتناول الطعام على مائدة الامبراطور ومعه لفيف من أخواله الأمراء . قال له أحدهم وهو الأرشيدوق أنطوان ، أنه سوف يركبه الأشبال التى ولدت فى حديقة قصر شونبرون فقال له على الفور :

ـ شكرا ياخال ، هلا تفضلت بركوبها أنت أولا ، وبعد ذلك يكون دورى أنا .

وكانت ميول الطفل ضعيفة للدوس قوية للحركات العسكرية والحربية وقد سأله مدرسه يوما عما يتعين على القائد أن يلم به من المعرفة والعلم ، فكان جوابه « لاشىء تقريبا .. طريقة تمرين جنوده وتسييرهم مع شىء من الحساب .. » ثم رفع يده الصغيرة ليؤكد كلامه قائلا :

ـ صحيح !..

واضاف بعد ذلك فى حرص وتحفظ :

ـ مازلت اطمع فى ان أكون جنديا ولكن لا أريد أبدا ان اموت . سأسير امامى جيشا بأكمله لأكون فى مأمن من القنابل .

لقد تغير كل شىء فى طبيعته المرحة اللاهية ، واصبح الآن خجولا متوجسا .. أنه يتمنى لو فتح قلبه وباح بما فى سره ولكن لمن يفتح هذا القلب ؟.. ولمن يبوح بما فيه ؟. فهو لم يعد يشعر بأن أحدا من حوله يحبه أو يعطف عليه ، وانما كل من يحيط به يراقبه ويتجسس عليه . فآثر الطفل الانطواء على نفسه متذرعا بالمكر والكذب .. انه يشعر شعورا مبهما بأن من حوله يخفون عنه شيئا ، فتثور فيه الغريزة ويظل دائما متحفزا للدفاع .

انه يقف بمفرده وبسنواته الخمس ليكافح أولئك الذين يريدون أن يقضوا فيه على الصورة التي يحملها لماضيه . وليس له من سند في هذا الكفاح غير ذكريات الطفولة التي يمحوها العمر يوما بعد يوم كما يمحو السيل شواطئه كلما اتسع مجراه .. انهم يجردونه أولا من الأشياء التي تحيط به .. ألعابه وملابسه وثيابه التي أزالوا من فوقها شعار النسر والتاج . ثم قرر جده الامبراطور الا ينادى بعد اليوم باسم نابليون ولكن باسم فرانز ، وهو أحد القابه ، وقد ثار على هذا وأخذ يتجاهل هذا الاسم فلا يجيب على من يناديه به . ولكنه مع الزمن تعوده .

غير أن هذه الوسائل لم تقتل فيه صور طفولته ولا الحياة العذبة التي عاشها في قصور فرنسا ، بل ظلت ذكراها حية في خياله .. وكثيرا ما كان يقول : « آه لو كنت في باريس » .. وكان اذا خرج للنزهة سأل عما اذا كان الطريق الذى يسلكه يؤدى الى باريس .. الى باريس الحقيقية .. الى غابة بولونيا التي يذكرها جيدا ويذكر نزهاته في أرجائها وبين مفاتنها .

وكانت ذكرى أبيه هي اقوى الذكريات في ذهنه وأعمقها في قلبه . ولقد سمحوا له بأن يصلى من أجل ابيه ، فكان اذا ما راح يردد « ابانا الذى في السموات » . تساءل : ولكن أين ابى ؟ لماذا لا يأتي الى ؟ . لماذا لا يذكره أحد قط ؟ . ان هناك سرا يحوم حول هذا الوجه الحبيب ويسعى جاهدا الى طمسه واخفائه ، والطفل المسكين يحاول يائسا كشف هذا السر الذى يزداد يوما عن يوم كثافة وتعقيدا . لماذا كلما نطق اسم ابيه رأى الوجوه تتوارى والرؤوس تتدارى والشفاه تغلق والنظرات تشحن بالحقد والكراهية ؟ ويدفعه ذلك الى العناد والتشبث بذكرى أبيه وبالحديث عنه . ألم يقل لجده يوم أن أهداه فرسا « سيسيا » صغيرا لم يعجبه :

— أريد جوادا كبيرا مثل جواد ابى لأذهب به الى الحرب .

ان تعلق الفتى بأبيه جعله يحصر تفكيره في هذا الشخص الحبيب البعيد عنه ، فتصدر عنه الأحكام صبيانية أحيانا عميقة واعية أحيانا أخرى ، فتدهش من حوله وتحرج مخاطبيه . لقد قال يوما امام ديتريشتاين : « لقد كان من الخير لأبى أن يكون ملكا لكورسيكا على

ان يكون ملكا لفرنسا .. واظن ايضا انه كان من الخير لأمى العـزيزة الا تتـزوج من أبى .. بل من أحـد أخوالى .. وقد سأل يوما فورستى وهو يتنزه معه :
ـ من هو امبراطور فرنسا في الوقت الحاضر ؟.
ـ ليس في فرنسا امبراطور الآن ولكن فيها ملك يدعى لويس الثامن عشر ..
ـ اعرف انه قبل هذا الملك حكم فرنسا امبراطـور .. فمـن هـو ؟.
ـ هو ابوك ..
واذ احرج المربى فى هذا الجواب اسرع يضيف الى ما قال :
ـ لقد فقد عرشه وتاجه وامبراطوريته بسبب ميله السيىء الى الحرب ..
ـ اعرف انه حارب فى مواقع عظيمة . لقد شرحوا لى ذلك كله فى كتاب جميل سرق منى ..
ثم فكر الغلام لحظة وعاد يقول فى صوت حزين :
ـ هل ابى العزيز الذى احدث كل هذه الرزايا يعتبر مجرما ؟ .
وهنا اراد فورستى أن ينهى الحديث المحرج فقال له :
ـ ليس من شأنك انت ياسيدى الأمير أن تحكم على أبيك . . يكفيك أن تبقى على حبه وان تصلى من أجله .

لم يعد من المستطاع أن يظل المربون يخفون عن الفتى تـاريخ نابليون واستشاروا فى ذلك الامبراطور ، فأشار بأن يكون الصدق اساس التربية والتعليم ، وان من الخير الاجابة بصراحة على كـل مايسأل عنه الصبى ، حتى لاتلتهب مخيلته بما يخالف الحقيقة ولا تنقدح فى غير الواقع . وبالرجوع الى مارى لويز فى ذلك الأمر .. وافقت عليه ولكن فى كثير من التردد .

لقد كان الامبراطور فى الواقع ، من بين افراد الأسرة جميعـا هو الوحيد الذى يهتم بأمر الصبى ويعطف عليه عطفا حقيقيا . ومنذ ان ماتت زوجته ماريا لودوفيكا فى ٧ من ابريل ١٨١٦ ، انصرف الى العناية به والسهر على راحته .. ولعل ذلك يرجع الى تأنيب الضمير على تركه مترنيخ ينزل بهذا الطفل كل ما انزل به من اذى

وضرر . أو لعلها الرغبة فى تعويض الفتى عما أصابه من خسارة..
وربما كان عطف الامبراطور هذا لمجرد كون الطفل هو اجمل احفاده
وأكثرهم فطنة واوفرهم نجابة. وأيا كان الأمر فالثابت أن الامبراطور
كان يخص هذا الصبى بحب حقيقى وتفضيل لاشك فيه .

ففى قصر شونبرون كان الامبراطور يصر على رؤية حفيده
كل يوم . وحينما ينتقل الى هوفبروج فى الشتاء كان يراه مرات
عديدة كل اسبوع . وكان يحرص على أن يتناول طعامه الى جانبه
وعلى ان يصحبه معه الى حجرة عمله . وكان يسره كثيرا أن يرى
الطفل مرتديا ثوب جنود المشاة ، ومعه بندقية صغيرة وقد وقف
على باب حجرة الامبراطور يحرسها ويؤدى التحية للضباط .وكثيرا
ماكان يدخل الغرفة مع جده فيقع نظره على صورته التى رسمها
ازابى وارسلتها مارى لويز الى أبيها سنة ١٨١١ وفيها يرى الطفل
جالسا وسط هالة من السحب وقد وضع على صدره نيشان
جوقة الشرف . فيقول الصغير :

ـ هذا أنا ياجدى ..
ـ نعم يافرانز .
ـ لما كنت ملك روما ؟.

ـ بلاشك يافرانز ..
ـ اذن ، روما هى ملكى ؟.

وعندئذ يشرح الامبراطور للفتى الصغير أن الأمر لم يكن الا
مجرد لقب ، وانه هو نفسه كان يلقب باسم ملك اورشليم مع أن
أورشليم هذه لم تكن فى ملكه يوما من الأيام . ولكن الفتى لم يكن
ليدرك شيئا كثيرا من هذا الشرح العميق ، فيكتفى بالنظر الى جده
ثم ينصرف الى اللعب بالجنود الخشبية جالسا على البساط واذا
ماعاد فرفع رأسه نظر الى الرجل العجوز ، ذى الوجه الأحمر
والشفتين البارزتين واليدين الناعمتين ، وهو يوقع الأوراق الرسمية
ويضع على مظاريفها أختاما من الشمع الذى يصنعه هو بنفسه ..
ويغلقها بعناية طالما ادهشت كل من رآها ، حتى اذا ما انتهى من عمله
إلتفت الى الصغير وقال له :

ـ فيم تفكر يافرانز ؟.

ـ فى لاشىء ، ياجدى ..

وهل كان فى استطاعة الصبى أن يقول عما يفكر حقا ؟.. هل كان فى استطاعته ان يقول انه يفكر فى حجرة كهـذه فى قصر التويلرى ، وفى رجل قوى الحركة لامع النظر .. يتنقل فى ارجاء تلك الحجرة ، لايجلس أبدا وانما يروح ويجىء ويأخـذه بين يديه ويطلقه فى الهواء ثم يتلقفه ويهوى معه على البساط يتدحرج واياه بين الضحكات والقبلات ؟..

ان مايفكر فيه الصبى فى هذه اللحظة يملؤه حرارة ، تعقبها برودة فيعود يائسا الى جنوده الخشبية . ولكن الوقت يجـرى والعتمة تتسلل من النوافذ ذات الزجاج الأخضر الذى يحجب الضوء هاهو ذا الخادم قد أحضر مصباحا زيتيا كبيرا ، بينما اقبل زميـل له بالأخشاب يلقيها فى المدفأة القابعة فى أحد أركان الحجرة ،وعلى رخامة هـذه المدفاة بدأت السـاعة تدق واذا بأجراس الكنائس والساعات فى جميع أنحاء فيينا تتجاوب موسيقاها ورنينها ، وسط الضباب البارد . لقد سادت جو الحجرة رائحة الشمع الثقيلة .. واحس الطفل بسلطان النوم يمسح بيده على عينيه .

ـ ماذا بك يا فرانز ؟ .

ـ جدى العزيز ،لقد انصرفت نفسى عن اللعب ..





٢٥

لقد توقع نابليون أن يجد فى جزيرة سانت هيلانة الجنةالفيحا التي تخيلها فى قراءاته .. غابات ومروج وازهار ومياه جارية . ولكنه لم يجد غير صخرة تكتنفها الهاوية من كل جانب . وهذه الصخرة هى التى ربطه الانجليز بها . وعلى الرغم من وقوع هذه الصخرة الجرداء على بعد آلاف الأميال من اوربا فمازالت انجلترا تخشى أن يفلت منها السجين وان يجد سبيلا الى الهرب . لذلك اتخذت الاحتياطات .. فاعتلى المراقبون قمم الجبال يتطلعون الى الآفاق البعيدة ، وراحت السفن الحربية تذرع المحيط حول الجزيرة فى كل الاتجاهات واعدت المدافع وعددها ستمائة للانطلاق فورا عند اقتراب أى خطر ، ورابطت فى الجزيرة حامية كاملة من ثلاث آلاف ضابط وجندى ... هذه القوات وهذه الاستعدادات كلها لغرض واحد ... حرمان رجل من حريته .

وعلى الرغم من الهزيمة والاهانة ، واتهامه بالاجرام ، فهو مازال منتصب الرأس فى مواجهة اعدائه .. لقد قيدت انجلترا حريته وحرمته اوربا من العرش والتاج ، ولكنه تمرد على الظلم ودفع عنه

الهوان .. هاهو ذا في منفاه جليلا عظيما .. انه ليس ذلك الافاق الذي زعموه . لا ، ولا ذلك الثائر الخارج على القـانون ... لقد شاءت الأقدار أن تعمل حفنة من الامراء سبق له أن انزل بهم الهزيمة السـاخنة تلو الهزيمة على اختطـاف التـاج عن رأسـه ، ولكن هذا لم يسلبه لقبه الشرعي ، لقب الامبراطور . فهـو الامبراطور المنتخب من الشعب الفرنسي ، والأمة هي التي منحته العرش فلن يستطيع انسان على وجه الأرض أن يخلعه عنه . لقد ظن الانجليز انه يكفي أن يطلقوا عليه لقب الجنرال بونابرت ليصلوا الى هـذه الغاية . ولكنهم كانوا واهمين وحتى يشـعرهم دائما بأنه مازال الامبراطور نابليون الذي طالما تمرغت تحت نعاله هامات الملـوك والأمراء ، اصر على أن يحيط نفسه بمظاهر الرسمية التي كانت سائدة في التويلري .. فجعل من « الاتيكيت » الصارم سلاحا له ودرعا ، حتى لاينسى سجانوه لحظة من هو ..

في هذا الكوخ المتهدم ، وسط هذا الفـراش الزرى والأثاث المتداعى جمع نابليون حوله الآثار الباقية من الأبهة السالفة وتحصن في داخلها . لقد جعل من هيبته وجلاله مايغنيه عن فخامة المكان وعظمة الرياش ، ففرض بذلك على حراسه احترامه وخشيته .. وأصبح الحاجب كلما فتح باب حجرته وصاح بأعلى صـوته : « الامبراطور » . استولت الرهبة على الحاضرين .

ان الذي يحكم تصرفات هذا السجين ، والسبب الذي من أجله مازال يتمسك بالحياة ، هو الرغبة في اسداء ابنه خدمة أخيرة . هذا العذاب الذي لانهاية له الا بالموت يجب أن يؤدي الى اعتـلاء ابنه العرش بفرنسا . وكان يقول : « لم يعد لدى غير حياتي أضحي بها حتى يعود التاج الفرنسي الى أسرتي .. » ان رغبته هي أن يعلم ابنه يوما كيف سما ابوه على نوائب الدهر وكيف احتفظ بجـلاله وسط الملمات وكيف تحمل أصناف العذاب من غير أن يشـكو أو يصيبه الوهن .

حقا انه لايفكر الا في ابنه وان كان لايذكره في حديثه الا لماما . واذا ماجاء اسمه على لسانه ظهر الأمل على وجهه وقال :

ـ سوف يحكم ابنى يوما .

لقد طلب مرات عديدة من الانجليز أن يوافوه بأخبار عن مارى لويز وعن ملك روما ، ولكنه لم يتلق شيئا ، وادرك مغزى ذلك لقد مات ابنه بالنسبة له ، ولم يعد له وجود في هذا العالم الا فى قلبه ، يستمد منه الذكريات ليغذى بها الصورة الحبيبة الى قلبه وقد يحدث حينا ان ينوء الرجل تحت وطأة هذا الألم ، الم الشوق والحرمان ، فيصدر عنه مايكشف عما حرص على كتمانه . لقد اشار الى التمثال النصفى المصنوع لابنه من الرخام وقال لأحد زائريه :

ـ هذا هو ابنى .. كل ماتركوه لى منه .

وقد طلب من خادمه ان يخفى عنه علبة النشوق التى عليها صورة ملك روما وقال له :

ـ ان نظرى يقع عليها دائما فيملؤنى الألم .

***

فى احد الأيام فى أواخر شهر يونية ، وهو أقسى شهور الشتاء فى نصف العالم الجنوبى ، أقبل المساء وانسحب نابليون الى غرفته متعبا . لقد قضى ساعة بعد الظهر يساعد فى فتح صناديق الكتب التى ارسلتها ليدى هولاند على السفينة نيوكاسل .. لقد كان وصول هذه الصناديق التى تبعث بها السيدة النبيلة من وقت لآخر من أسباب السرور التى تنشرح لها قلوب الجالية الفرنسية الصغيرة ولقد أصر نابليون على أن يكشف بنفسه هذه المرة عما تحتويه الرسالة الجديدة وبعد ان تحقق له ماأراد عاوده الملل وانصرف الى شئونه . هاهو ذا جالس فى مقعده وقد اكتسب « سمنة » وراح يقرأ فى أوديسيه هوميروس معرضا قدميه لنار المدفأة مرددا من وقت لآخر :

ـ هذا جميل .. جميل جدا ، وصف رائع لما يدور فى قلب الانسان ..

كان ينصرف عن القراءة بين الفينة والفينة ويصغى الى أصوات البحر والعاصفة تتجاوب فى السماء ، والرياح تهز كل شىء فى الجزيرة هزا عنيفا ،والمطر ينهمر على سفح الجبل فيبدد الفيوم



الزاحفة عليه . صرف نابليون انتباهه عن هذه الطبيعة الهـائجة في الخارج ، وركز نظره على الأشياء المحيطة به . هاهى أمامه معلقة على الحائط ، الصورة التى رسمها جيرار لمارى لويز ممسكة بابنها بين ذراعيها . ان الاطار الذهبى اللامع يبرز صارخا فوق الحـائط القذر ووسط الأثاث الرث البالى الذى تحتويه الغرفة .

عاد نابليون الى قراءته وهو يصغى من حين لآخر الى خادمه في الغرفة المجاورة وهو يصفف الكتب الواردة من ليدى هولاند فوق أرففها ، وفجأة دخل عليه مارشان وقد اكتسى حذاؤه بالوحل وابتل معطفه من المطر . خلع المعطف وهو يقول :

ـ آه ، يامولاى .

حينئذ غضب الامبراطور لهذا الاخلال الصارخ بآداب السلوك الذى فرضه على من يحيط به ، فاستدار نحـو خادمه وقال له في خشـونة :

ـ ماذا حدث ؟ . . مامعنى دخـولك هذا بغير استئذان ؟ . .

ـ مولاى ، اغفر لى ، انى في شدة التأثر والانفعال . .

ـ تكلم . . من اين أنت قادم ؟ .

ـ من جيمستاون يامولاى . .

ـ ما الذى ذهب بك الى هناك في هذا الطقس البارد ؟ . . انت مجنـون . .

ـ اليك الخبر يا سيدى . . لا شك علمت جلالتك أن الكوميسير النمساوى قد حضر الى هنا ومعه زوجته منذ بضعة أيام . .

ـ لا أريد أن أسمع شيئا عن هؤلاء الناس . .

ـ عفوا يا مولاى ، ولكن يجب أن أحدثكم عنهم . . ان البارون شتورمر لم يجىء الى هنا بمفرده وانما جاءت معه زوجته وجاء معه أيضا عالم نباتى شاب يدعى فيليب ويل بتكليف رسمى لجمع عينات الأعشاب من الجزيرة . يجب عليه أن يحمل معه الى فيينا مجموعات كاملة من النباتات والزهور التى تنبت في الجزيرة .

لم يعد نابليون يصغى الى ثرثرة الخادم . . وانما التفت الى

فان يطل بشاربه من جحر هناك في أرض الحجرة .. وأخيرا قال في ضيق :
ـ اختصر القول يامارشان .. ماجلية الأمر ؟.
ـ انى واصل اليه حالا يامولاى .. لقد أرسل الى ويل هذا من يدعى رتشارد برنس لابلاغى عن مهمة لى من أوربا وانه يريد مقابلتى
اهتز نابليون لهذا الكلام فجأة ،ووضع الكتاب من يده وراح ينظر الى خادمه ويسأله:
ـ مهمة ..؟ أى مهمة ؟..
ـ ذهبت في الحال الى جيمستاون حيث قابلت ويل في حانة بورتيوس التى ينزل فيها مع زملائه .. وقد استرحت الى مقابلته في الحال واعطانى أولا خطابا ومنديلا حــــريريا طلبت منه مدام جورجو عندما زارها فى باريس أن يوصلهما الى الجنرال ، ثم أخبرني بعد ذلك انه كان يعمل عالما نباتيا في حدائق شونبرون .
ـ شونبرون .. أتقول شونبرون ؟ . ثم ماذا ؟ .
ـ لقد ناداه يوما رئيسه المفتش بوز ، وأعطاه في سرية تامة صندوقا صغيرا وقال له : « عندما تصل الى سانت هيلانه ، اعط هذا الصندوق الى مسيو مارشان وقل له انه من طرف والدته ».
انتصب نابليون واقفا وقد أسند قبضته على المنضـدة وقال لمارشـان :
ـ أكمل حديثك بسرعة .. رسالة من أمك التى تعيش مع ماك لويزا وتقوم على خدمته وتراه كل يوم ؟.. ماذا تقول لك ؟.
ـ مولاى . لقد فتحت الصندوق فوجدت بداخله خصلة من الشعر ومعه قصاصة من الورق كتبت أمي عليها هذه العبارة ..
« أبعث لك شيئا من شعرى .. اذا وجدت وسيلة لرسم صورة لك فارسل لى صورتك ».
انهار الامبراطور على مقعده وقال في يأس ومرارة :
ـ أهذا كل ما هنالك يامارشان ؟ . خصلة من شعر أمك ؟! يالها من امرأة رقيقة الشعور ..لم يقدر لى أن احظى بما حظيت به أنت من عطف الأمهات ..

ولكن الخادم احمر خجلا وقال متلعثما !

ـ ولكن .. يا مولاى هذا الشعر .. لقد تجاوزت امى الخمسين وشعرها خطه المشيب .. اما هذه الخصلة ...

انقض عليه نابليون فجأة فقد تكشفت له الحقيقة عارية وقال له فى تلهف:

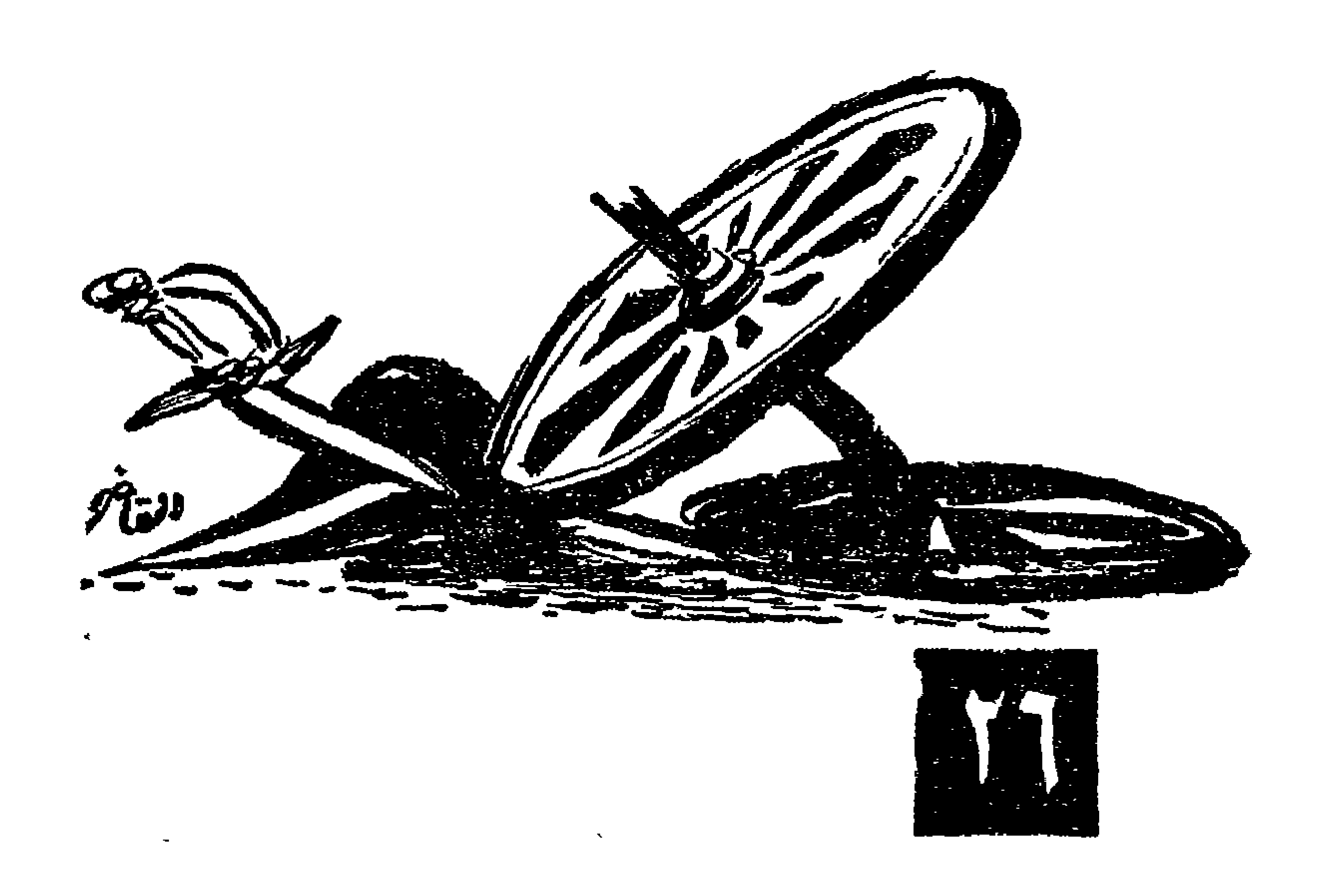
ـ ارنى .. ارنى حالا ..

وأمسك الصندوق الصغير فى يده وفتحه على عجل فوجد بداخله بضع شعرات شقراء ملتوية خفيفة كأنها الحرير .. خصلة رقيقة ما أن اقترب بأسبعه منها حتى انتصبت كأنما تود معانقتها . غلبه التأثر فأغلق عينيه:

ـ ياالهى .. بعض من شعر ابنى .. شعر فلذة كبدى ..

وانهمرت الدموع على خده . اقترب بشفتيه من الشعيرات وأحس بالهناء يغمر صدره وبالدفء ينتشر فى دمه .. ثم نظر حوله فى توجس .. خشية أن يراه انجليزى ممن يحيطون به فيحرمه من هذا الكنز الثمين .

هاهو ذا الآن جالس فى مقعده ينظر الى تلك الخصلة من الشعر كأنها ذوب الذهب فى كفه . وأخذ يفكر والحزن يملأ قلبه .. يالها من معجزة أن يحصل وهو فى هذا المنفى السحيق على بعض من المادة التى يتكون منها ابنه .. وهذه المعجزة لايرجع الفضل فيها الى مارى لويز .. كلا .. ولكن الى خادمة جاهلة مسكينة .. انه يدرك مقدار مابذلته هذه الخادمة من حيلة وصبر وخداع لتصل هذه الشعيرات القليلة اليه . لا ، ليست الزوجة هى التى اهتمت بذلك وأرادت أن تدخل على قلبه هذا العزاء ، وانما هى الخادمة .. الأجيرة .. فأى القلبين أنبل واسمى ؟ . قلب فتاة الشعب التى لا تمت له بصلة ؟ . أم قلب الامبراطورة التى منحها الملك والتاج وأجلسها على العرش ؟ ..



٢٦

كان دوق رايشستاد يتحول تدريجيا ليصبح اميرا نمساويا .. الأمر الذى أدخل السرور على قلوب كل من حوله . ولم يكن الوصول الى هذه النتيجة بالأمر السهل ولكنها نتيجة مطمئنة على كل حال. هاهو ذا اليوم قد أصبح جادا متكتما بعد أن كان يميل الى الضحك والهذر . وقد اكتسب القدرة على الكذب واخفاء مايجول فى دخيلة نفسه ..

وقد ظن مدرسوه انهم توصلوا الى القضاء على كل اثر لنابليون فى قلبه واعتقدوا أن ماقصدوا اليه من ذلك قد تحقق لهم واستقر حتى لقد راحوا بعد مضى مالايزيد عن سنة على وفاة أبيه يطلبون منه كتابة موضوع فى الجغرافيا عن جزيرة سانت هيلانه ..

وفى أوائل سنة ١٨٢٣ ، قررت مارى لويز أن تقوم برحلة الى النمسا وهى الرحلة التى لم تستطع القيام بها فى السنة السابقة ، لأنها ، وقد حملت للمرة الثالثة من نايبرج ، وضعت فى تلك السنة طفلة لم يكتب لها أن تعيش . وجاءت مارى لويز الى فيينا يوم ٦ يونية بعد غياب عنها طال ثلاث سنوات لم تر فيها ابنها ومات فى خلالها نابليون .

وقد فرح الفتى لقدوم أمه أيما فرح ، فهى ؛ أيا كانت قسوتها أمه على كل حال ، وكان الطفل محروما من العطف والحنـــان ، اصطحبته معها فى تنقلاتها بين القصور والمصايف . وقضى الشاب بضعة أسابيع هانئا باجازته وانطلاقه على الرغم من وجود نايبرج .. الذى لم يكن يرى الطفل فيه غير أحد كبار موظفى دوقية بارما ؛ وأحد رعايا الدوقة المخلصين .

عادت مارى لويز الى بارما يوم ٣ سبتمبر . وقد التمس منهـا ابنها أن يصحبها الى هناك ولكنها رفضت . فما كان وجود هـذا الصبى ذى الاثنتى عشرة سنة الى جوارها ليسرها كثيرا . وهكذا اضطر الفتى الى أن يكتم غيظه وحزنه ، وينظر الى أمه وهى تفارقه ثم يعود هو وحيدا الى شونبرون .. الى القفص الذى لم يفتـح بابه الا لبضعة أسابيع فقط . غير أنه مع ذلك وجد فيه هذه المرة شيئا أثلج صدره . فقد عينه جده فى أحدى رتب الجيش وأصبح له الحق فى ارتداء الثوب العسكرى . وكان فى ثوبه الرسمى رائعا منتصب القامة عريض الكتفين ، مرفوع الراس .. وكان فى غير اللباس العسكرى كثير الهندام يهوى مسك العصى ، ولبس الصدارى المزينة بالزهور والحلى . وكان جيد الرقص سيىء الغناء ، ولم يكن يحب من الموسيقى الا الطبول والنفير .

وكان اهتمامه منصرفا الى كل مايؤهله عن قرب أو عن بعد لمهنة السلاح .. وكان يبذل قصارى الجهد فى التمـرينات الجثمانية العنيفة مثل الجرى والقفز والمصارعة . وكان يتحدى أبناء خئولته ويتغلب عليهم جميعا ، حتى من كانوا اكبر منه سنا . وكان يمارس ركوب الخيل لفترات طويلة ، وأتقن السباحة فى بضعة أيام بعـدا أن أوشـك ان يغرق فى الدرس الأول ، وكان تعليقه على هـــذا الحادث .. « لقد اعتقدت انى ميت .. ولكننى اردت أن اثبت لمن ينظرون الى أننى لا أخاف » .

لقد كانت نساء فيينا يتهافتن عليه كلما حضر فى أحد الصالونات كلهن يردن تقبيله ويرين فيه اما الابن الذى يحلمن به واما الذى سوف يصبح فى يوم من الايام عشيقا . لقد كان فى كل مكان موضع

التدليل والاعزاز . والاعجاب ولكنه كان يفر من ذلك كله ويقول :
ـ ان مكانى بين الرجال .

وكان ذلق اللسان سريع الخاطر ، حلو الحديث .. وقد حدث يوما أن تكلمت احدى السيدات أمامه عن فرنسا وكانت معجبة بنفسها معتزة بجمالها وقد استمع الشاب الى حديثها لحظة ثم قال :

ـ لاشك أن فرنسا بلاد جميلة .

فنظرت اليه السيدة نظرة فيها تحد ، وقالت وهى تشير من طرف خفى الى نابليون ..

ـ نعم ولكنها كانت اجمل من ذلك كثيرا منذ اثنى عشر عاما مضت ..

وهنا أحس الطفل بأنها تريد له احراجا وتقصد تلميحا ، فما كان منه الا أن واجهها فى شجاعة والقى عليها قنبلة فى كلمة واحدة قال :

ـ وانت أيضا !.

ولقد اسرعت المناديل الحريرية والمراوح الرقيقة تكتم الضحكات التى ارتسمت على أفواه الحاضرين والحاضرات . وعوقب على هذه الجراة ولكن شهرته ذاعت .. وعندما وصل الأمر الى علم مترنيخ عبس وقال :

ـ هاقد ظهرت عليه بشائر الظرف الفرنسى اللعين .

لم يكن الدوق يقبل على العلم اقبالا حسنا الا فى دروس التاريخ الحديث والموضوعات المتعلقة بالحرب . وكان يعرف عن الجيش ولوائحه مالا يعرفه الكثيرون من رجال الحرب أنفسهم .

وقرب نهاية سنة ١٨٢٤ أصيب الدوق بصدمة عنيفة ، اذ مات مدرسه ماتيودى كولان الذى كان يعزه كثيرا ، مات من احتقان رئوى لم يمهله الا أياما قليلة ، وحل محله على الفور بلوزيف اويناوس الذى تولى تعليمه اللاتينية والفلسفة والتاريخ .. ولكن التلميذ لم يفد من تغيير الأستاذ شيئا . فقد كان المدرس الجديد عابس الوجه سريع الانفعال قريب الغضب وكان الى جانب ذلك دائم التلصص زائغ البصر .. كثير التصنت يخفى الجاسوس فى ثياب الأستاذ.

ولكن الدوق لم يعد وحيدا الآن . لقد اتخذ لنفسه حليفا في شخص صوفي دي بافاريا ، التي اقترن بها الدوق فرنسوا شارل في ٨ من نوفمبر ١٨٢٤ .

وكانت الاميرة صوفي هذه صغرى شقيقات الامبراطور وبذلك أصبح هذا الدوق ابن الامبراطور عديلا لأبيه ، فزوجة الأب وزوجة الابن اختان ..

ولقد اصابت دوق ريشستاد دهشة عظيمة عندما تقابل للمرة الأولى مع زوجة خاله الشابة ... كانت في التاسعة عشرة من عمرها ، جميلة في جمال الطير رقيق الجناح بديع التكوين .. لها عنق دقيق يعلوه راس جذاب وشعر ذهبي يحيط بالوجه الصبوح ويضفي عليه نورا ورواء ، ووراء ذلك الابداع روح كله استقامة وعذوبة تفيض حلاوة من العينين الواسعتين . وكانت بسيطة في ملبسها ، طليقة في حياتها لاتفارق البسمة شفتيها ، خفيفة الظل ، حلوة الحديث كأنها الصورة الحية للشباب والجمال . وما أن التقت عيناها بعيني الدوق حتى شعر كل منهما ، على الرغم من السنوات الست التي تفصل بينهما ، بالحاجة الى الآخر .. فهو يطلب حنانا وهي تريد أن تفيض بحنانها على الآخرين .. مدت اليه يديها ثم ذراعيها وقالت :

ــ تعال يا عزيزي الصغير الطيب .

لم يجد الصبي كلمة يرد بها عليها الا تلك الكلمة التي فقدت كل معنى وكل فائدة في نظره .. تلك الكلمة التي توحي لكل طفل بحقه في الحب والعطف اللذين لم يفز منهما بنصيب .

ــ أماه ..

وهكذا القى بقلبه وبعواطفه كلها بين يدي صوفي .

* * *

كان مترنيخ والامبراطور بمفردهما في الحجرة الامبراطورية ، وقد انتهت الجلسة التي يمنحها فرنسوا كل يوم لوزيره الأول لتصريف أمور الدولة . الامبراطور جالس الى مكتبه ، وقد ظهر عليه الهرم واستطال وجهه الشاحب بين خصلتي الشعر الملصقتين

على صدغيه ، وقد اختلط فيهما السواد بالبياض ، وازداد انتفاخ الجيوب البارزة تحت عينيه . وقف أمامه مترنيخ منتصبا في سترته المزينة بالذهب وسرواله الابيض وجواربه الحريرية ، وقد تدلت من صدره القلادة الكبرى من ارفع نياشين الدولة . لقد ذهبت السنون بشعره فبدا رأسه الاصلع كالبيضة الملساء . قال الامبراطور :

ـ أردت ان احدثك قليلا عن حفيدى ، يا مترنيخ ، هل هو على اتفاق مع مدرسه الجديد ..؟

ـ اظن ان جلالتكم لن تجدوا الا ما يسركم ويرضيكم من ابناوس . فهو ليس المدرس الكفء فحسب . ولكنه ايضا الخادم المخلص المتفاني ، انه يسهر على شئون الدوق كما لو كان ابنه حقيقة . فقد حافظ كل ليلة منذ اسبوعين على ان ينهض من فراشه مرتين ليوقظ الأمير ...

ـ هذا عمل اشكره عليه كثيرا . ولكنك لم تذكر لى اذا ما كان راضيا عن تلميذه ؟ .

ـ لا أكتمكم يا مولاى ان رضاءه عن تلميذه ليس كاملا .. جلالتكم تعرفون طبع الدوق وميله للمعارضة ان له صفات طبيعية كثيرة ، لكنه يبدو وكأنه يتفنن فى عمل كل ما يغضب منه مدرسوه . أن له قدرة خارقة على التمثيل واخفاء عواطفه وميوله . واللحظة التى يظن المرء انه قد لان فيها واستقام هى اللحظة التى يبدى فيها أكبر قدر من المقاومة والعناد . وهو فى واجباته الدراسية يتعمد تكديس اكبر قدر من الاخطاء ، ويلزم لحمله على تطبيق قاعدة لغوية التطبيق الصحيح تكرار الدرس والشرح اسابيع متتالية .. ان المربى ديترشستاين يشكو منه مر الشكوى ...

ساد الصمت بين الرجلين وفجأة نظر الامبراطور فيما حوله وقال لوزيره فى خوف :

ـ مترنيخ ، مادمنا بمفردنا الآن ... قل لى ... هل يذكر أباه احيانا ؟.

لمع بريق أصفر فى عينى الوزير وقال :

ـ ابدا يا مولاى ..

وبعد لحظة تردد عاد الامبراطور يسأل :
ـ هل هو يفكر فيه ؟...
ـ بلا شك ... وهل يستطيع ان يمنعه من التفكير احد ؟.
ـ هل انت على اطلاع كاف في هذا الأمر ، يا مترنيخ ؟..
ـ ان تفكيره لا سلطان لي عليه ، أما أعماله فكلها ملك يدي ..
ان ديترشستاين يقدم لي تقريرا يوميا عنه .. وكل الذين هم في خدمة الدوق ينتمون الى الشرطة .. فما من حركة يأتيها الا ويكون لنا علم بها ..
فكر الامبراطور لحظة ثم قال :
ـ كنت أريد منذ زمن بعيد أن افاتحك في هذا الموضوع يا مترنيخ ، انه موضوع جد دقيق .. وأنا أعرف ذلك .. أظن انه لا يجدر بنا أن نترك الأمير في جهل مطلق بكل ما يتعلق بأبيه .. اننا اذا أخفينا عنه كل شيء يتعلق بنابليون أثرنا في قلبه الريبة والشك .. بل لعل من المفيد أن نظهره أمامه قائدا عظيما وحاكما عبقريا ، على أن ننتهز الفرصة لنعرض في مهارة أمام عينيه المصائب الكثيرة التي انزلها ببلاده هذا المحارب الذى أضلته الشهرة وأفسده الغرور .. نريه فرنسا وقد أصابها الخراب والدمار ، وسقط خير ابنائها قتلى في مختلف ميادين الحرب والقتال باوربا ..
ـ أنا أشاركم الرأى يا مولاى ، وهو رأى ديترشستاين أيضا . لقد أعد المدرس لتلميذه قطعا مختارة من المذكرات التى كتبها جورجو ومنتولون عن ذكرياتهم في سانت هيلانه .. وستقوم تعليقات اوبناوس بالباقى ..
هز الامبراطور رأسه علامة الموافقة وقال :
ـ الآن .. أظن أنه بعد سنوات قليلة سيبلغ حفيدى السن التى يمكن فيها أن يتلقى ما أوصى له به أبوه ..
انتفض مترنيخ على الرغم من قدرته على السيطرة على اعصابه وقال معترضا :
ـ كيف تسمح يا مولاى أن يعطى للدوق السيف الذى ارتفع في أوسترلتز والمعطف الذى شاهد مارنجو ، والميداليات ، وأسرة الميدان ، وكل هذه الأشياء التى ليس من بينها واحد لا يشير الى هزيمة نزلت بجيوشنا أو اهانة لحقت بالنمسا ؟..

ـ لقد درست الموضوع جيدا من هذه الناحية ، يا مترنيخ ؟ ولكن أليست ارادة الميت أمراً مقدسا ؟ .

انتصبت قامة الوزير وعلا صوته وهو يقول :

ـ وسلامة الدولة يا مولاى ؟ . ليست لاعتبارات الأخلاق ولا لعاطفة الأسرة ، بل ولا لدواعى الدين والعقيدة نفسها أن تدخل في الحسبان ما دام الأمر يتعلق بمصير الامبراطورية .

حنى الامبراطور راسه وراح الوزير يكمل كلامه :

ـ يجب علينا يامولاى أن نتحاشى كل ما يمكن أن يثير لدى الدوق الآمال الكاذبة أو يغذى فيه أى قدر من الطموح ... ومن هذه الناحية فان كل ما يؤول اليه عن والده سوف يولد فى راسه الاحلام الخطيرة على سلامة اوربا .. أن علينا التزامات فى مواجهة لويس الثامن عشر . يكفى أن نعطى الامير شيئا من الكتب ، ولو كان الأمر بيدى لما جدت عليه بها .

رفع الامبراطور راسه وقال :

ـ ماذا تعنى يامترنيخ ؟.

راح الوزير يفتش فى جيب سترته واخرج منه ورقة وقال :

ـ هذا واجب حديث من الواجبات الدراسية التى عملها الدوق لقد طلب منه استاذه أن يكتب فى هذا الموضوع : « هانيبال يخاطب جنوده قبل اجتياز جبال الألب » هلا تفضلتم جلالتكم بالقاء نظرة على ما كتب ؟.

مال الامبراطور على الورقة وقرأ فيها « ايها الجنود ، من حق الوطن أن ينتظر منكم أعمالا عظيمة .. هلا حققتم امله فيكم ؟ .. مازالت أمامكم مواقع تنتصرون فيها ، ومدن تغزونها وانهار تجتازونها . هل من بينكم من تخور عزيمته ، أو تلين قناته ؟ . »

وكان مترنيخ ينظر الى الامبراطور ثم قال له :

ـ مولاى ، هلا تثير فيكم هذه السطور ذكرى ؟ الا تذكرون ؟.. نعم تذكرون النداء الذى وجهه بونابرت الى جيشه سنة ١٧٩٦ ، وهو على ابواب ايطاليا .. « ايها الجنود انتم عراة جياع ، والحكومة مدينة لكم بالكثير ، ولكنها لاتستطيع لكم شيئا » وقد ختم نابليون

نداءه بهذه العبارة : « ياجنود ايطاليا هل فيكم من تعوزه الشجاعة أو من يفتقر الى الثبات » ؟.

تحول وجه الامبراطور وقال :

ــ كفى .. كفى .. اسكت .

ولكن مترنيخ لم يسكت وانما راح يقول بصوت مرتجف :

ــ اعذرني يا صاحب الجلالة .. انها كلمات كهذه الكلمات هي التي انزلت بنا هزائم اركول وريفولى ثم بعد ذلك مارنجو وغيرها ها هو ذا الابن سر أبيه .. انه يبشر بما سيكون عليه .

انصرف مترنيخ ، وظل الامبراطور فتره طويلة شارد النظر وهو يعرك بين اصـــابعة الورقة التى كتب عليها حفيـده واجبه الدراسى .. وفجأة انتصب واقفا ، وخرج من الحجرة وسار فى الدهاليز الطويلة وصعد الدرج العديد ، ووجد نفسه فى مواجهة الجناح الذى يقيم فيه دوق رايشستاد .. وحينما رآه فورستى أراد أن يسرع الى اخطـار الأمير بقدوم جـده ، ولكن الامبراطور قال له :

ــ لا تتحرك من مكانك .. اين هو ؟.

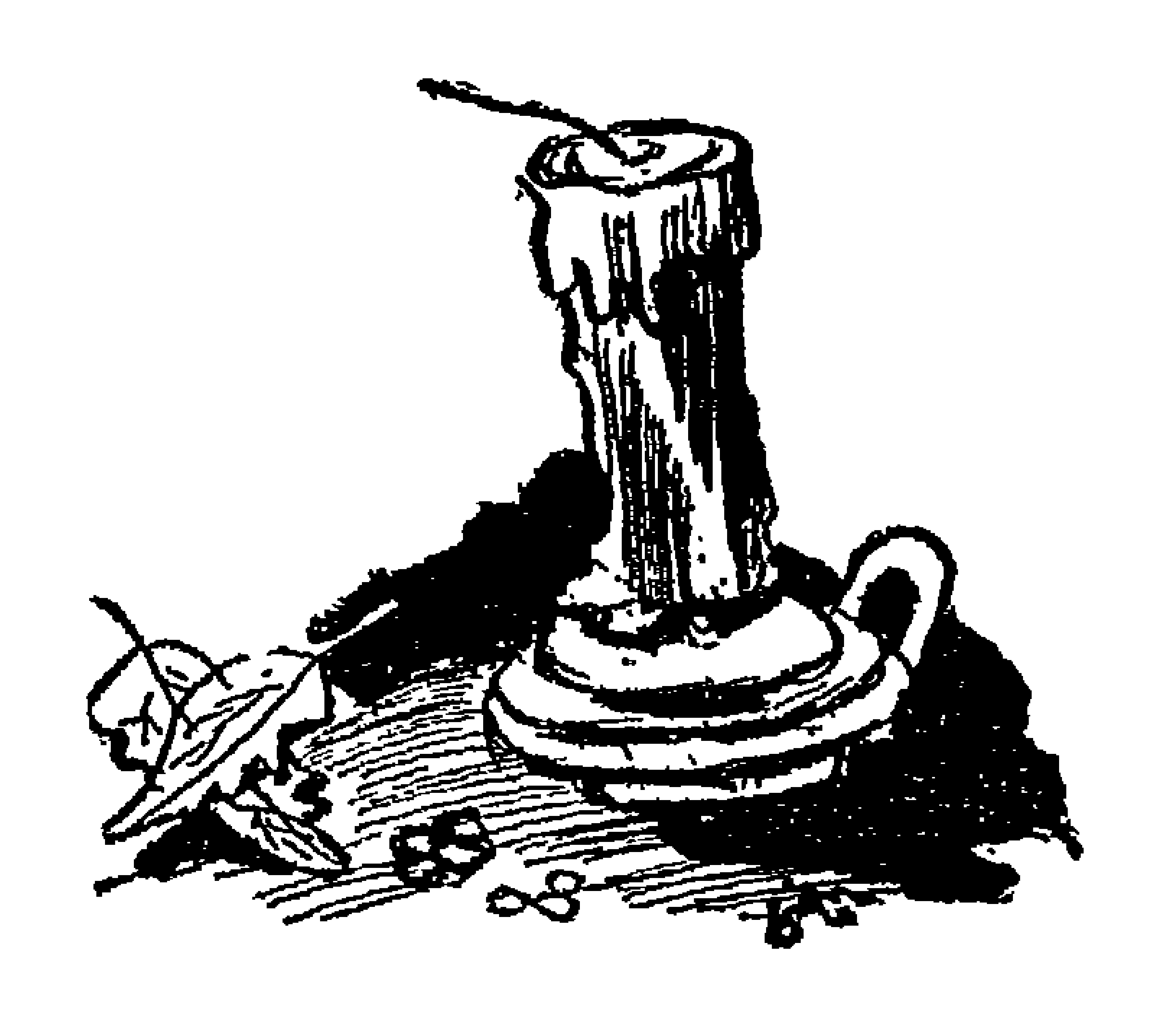
ــ فى حجرته .

ــ أنا ذاهب اليه .

وعندما وصل الامبراطور الى باب الغرفة تردد فى الدخول لقد أصبح الصبى رجلا أو كاد ، وها هو ذا فى غرفته يسير ذهابا وجيئة أمام اعين الجد الذى ينظر اليه من ثغرة الباب الموارب . كان الدوق مرتديا سترة الفراك السوداء وقد حنى رأسه وشبك يديه خلف ظهره وراح يتبختر فى مشيته . وكان احيانا يتوقف عن السير ويقدم احدى رجليه ثم يعود الى السير مرة أخرى .

اخذ الامبراطور يتقهقر قليلا قليــلا . لقد بدأ له وكأن خيالا انتصب أمامه عند عتبة الباب وراح يدفعه الى الخلف من غير ان يلمسه بيده .. هذا الشبح .. هذه المشية .. هذه الصورة .. يا الهى .. انتابته رعدة من الخوف أخذت تنفذ الى داخله حتى استقرت فى عظامه وقال متمتما :

ــ مشية أبيه .. نعم .. انه يمشى كما كان يمشى نابليون .





٢٧

فى شتاء ١٨٢٦ ــ ١٨٢٧ شعر دوق رايشستاد بالعلامات الأولى للمرض الذى اشتد عليه فيما بعد . لقد نما بما مقداره ثلاث بوصات فى خلال السنة السابقة ، وبدأ فترة المراهقة الشاقة ، وقد وصف له طبيبه الخاص الراحة التامة والعلاج المناسب . ولم يكن الأمير يمتثل للعلاج بسهولة وقد اضطر ديترشستاين لأن يكتب الى مارى لويز يستعين بها على ابنها .

وفى شهر فبراير ١٨٢٧ ، عاود الأمير المرض بعد ان كانت حالته قد تحسنت قليلا . أصيب بنوبات السعال مع ارتفاع خفيف فى درجة الحرارة . ووصف له الطبيب المساحيق والكمدات ، ومنعه من الرقص ومن الألعاب الرياضية .

وما أن حل فصل الربيع حتى تمكن الأمير من العودة الى حياته العادية ... النزهات فى حدائق البراتير ، وحضور الاستعراضات العسكرية مع جده ، وفى المساء حضور حفلات المسرح ، أو البقاء الى جانب صوفى أو الى جانب الامبراطورة كارولين أوجوستا ، التى أعجبت به وراحت تعيره الكتب وتعامله معاملة الشبان .

ولكن المرض عاوده فى فصل الصيف حيث اغمى عليه وهو

جالس يتناول الطعام مع الامبراطور في بادن واضطروا أن يعيدوه الى شونبرون ، حيث لازم الفراش لعدة أيام . كان شاحب الوجه نحيل الجسم أجش الصوت . وكان لهزاله يبدو طويل الساقين طويل الذراعين . ولقد ضعفت شهيته للطعام وكان كلما أفلت من رقابة من حوله سارع الى ارتكاب ما يؤذيه .

وقد شخص الطبيب حالة الأمير على انها استعداد للاصابة بداء الخنازير وبدرن القصبة الهوائية ، ووصف له الاستحمام بالماء البارد وتناول الأطعمة الدسمة ، ومنعه من ركوب الخيل والسباحة والتعرض للمطر والبرد . ومن العجيب ان هذا العلاج البدائي أسفر عن نتائج مدهشة ، وقد استطاع ديترشستاين في شهر نوفمبر ١٨٢٧ أن يزف الأنباء الطيبة عن صحة الأمير الى مارى لويز التي ادعت الشكوى من أمعائها حتى لا تحضر الى فيينا في ذلك العام .

ولكن الأمير اصيب في منتصف الشتاء بنزلة شعبية حادة على الرغم من العناية التي يحيطونه بها . وراح القوم يغلقون من حوله النوافذ والأبواب ويكدسون عليه الملابس الدافئة ويحشون أحشاءه بالأدوية والعقاقير . ولم يفكر واحد منهم في أن ذهابه الى بارما سوف يوفر له الجو الملائم لرئتيه الضعيفتين .

ولم يسترد قواه قليلا الا في الربيع . واخذ نشاطه يعود اليه قليلا قليلا كلما تحسن الجو وازدادت الحرارة . وقد أبدى رغبته في ان يتسلم فورا عمله في الجيش . ولكن ديترشستاين خشي أن تؤثر الحياة العسكرية تأثيرا سيئا على هذا الشاب الشاحب النحيل الذى لم يتعد بعد السابعة عشرة من عمره ، وقد زاد طوله على ١٨٥ سنتيمتر . واذ تمسك الدوق برغبته ، حرر ديترشستاين تقريرا بالأمر ورفعه الى الامبراطور طالبا اليه تأجيل دخول الأمير الى الحياة العامة خوفا من تعريضه لمتاعب لا تستطيع صحته أن تتحملها .

وكان رأى الامبراطور من رأى المربى . واضطر الأمير ، رغم توسلاته ، الى الاستسلام وهو حزين . على أن مجيء أمه الى

فيينا في ذلك الوقت بدد أحزانه هذه . فقد سارع الى ملاقاتها قبل وصولها الى فيينا بعدة مراحل ، وصاحبها حتى وصلت الى شونبرون . وهناك تحققت له ، يوم ٢٧ اغسطس اكبر سعادة كان يطمع فيها من قبل .

لقد تحدث الامبراطور طويلا قبل العشاء في ذلك اليوم مع ماري لويز . وفي أثناء تناول الطعام لاحظ الشاب أن المدعوين جميعا يرقبونه مبتسمين حتى أحرجته هذه النظرات . وكان بين الحضور الكونت ديترشستاين والجنرال نايبرج ، الذى ظهرت عليه علائم الشيخوخة .

بعد انتهاء العشاء قضى الامبراطور سهرته كالعادة . وفي اللحظة التي استعد فيها الموجودون للانصراف نادى الامبراطور حفيده وقال له :

— ألست تطمع في شيء ما ، يا فرانز ، منذ زمن بعيد ؟ »

احمر وجه الأمير خجلا وقال متلعثما :

— أنا ، يا مولاى ..؟

— نعم .. منذ سنتين التمست أمك مني رتبة الملازم لك ... وقد رفضت اعطاءك هذه الرتبة في ذلك الوقت ، لأن ديترشستاين قال لي وقتئذ ان عملك لا يستحق هذه المنحة ..

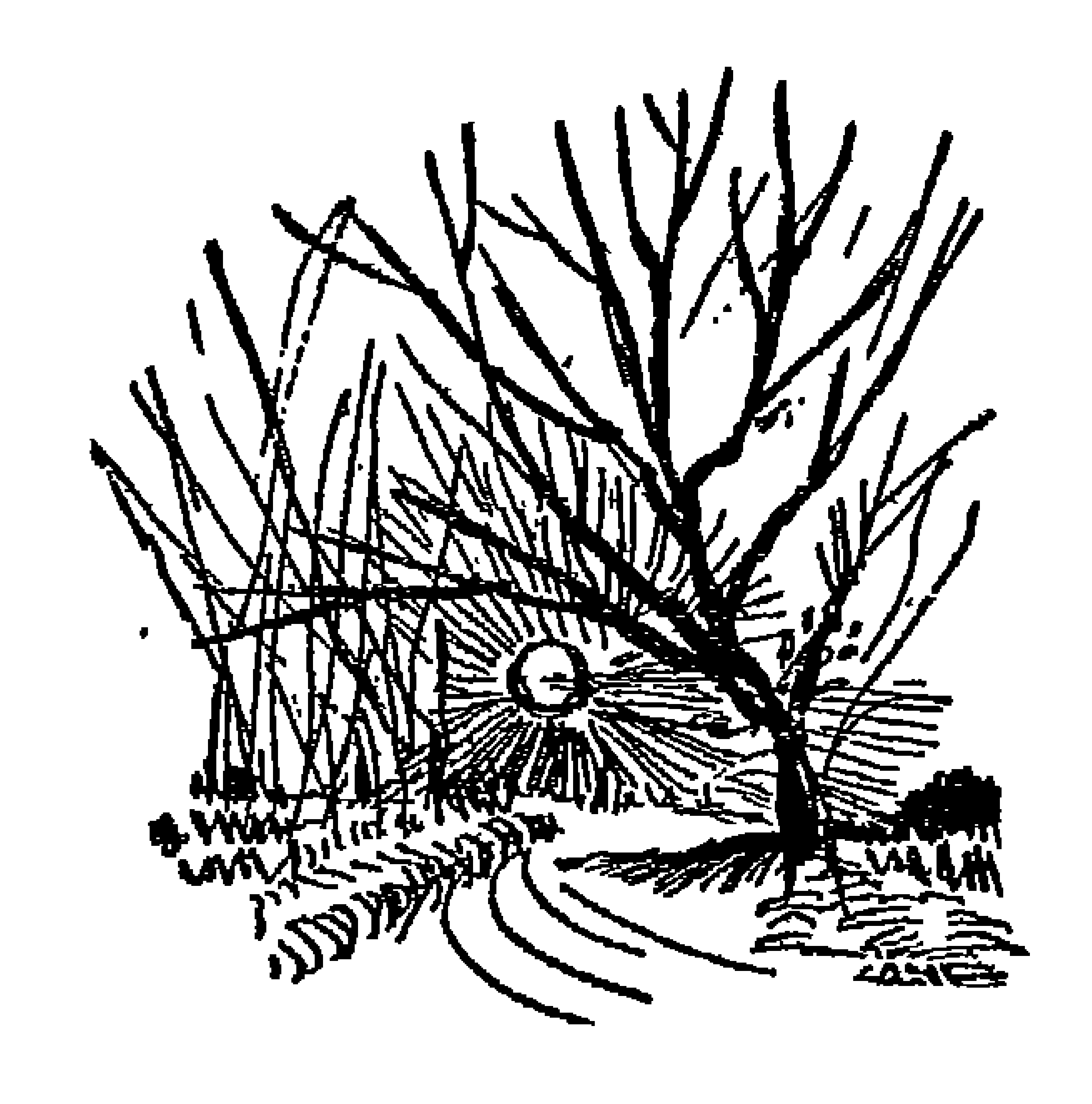
وتوقف الامبراطور لحظة ليضفي على كلامه الأثر الذى يريد ثم عاد يقول :

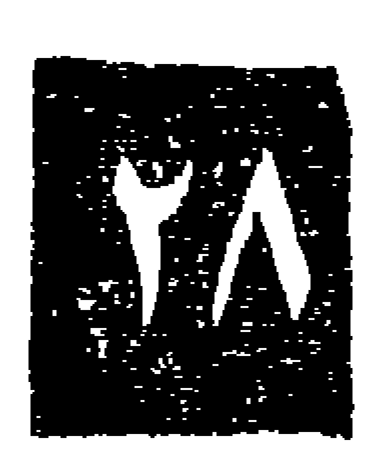
— ولكن مدرسيك راضون عنك هذا العام ، لذلك ، ولأثبت لك ارتياحي اليك ، عينتك في رتبة كابتن في فرقة الرماة ...

لم يشعر الأمير في حياته كلها بمثل هذا الاحساس الجميل الذى عقد لسانه من الفرح واطاح صوابه من الانبساط . واجتمع سائر افراد الاسرة الامبراطورية حوله يهنئونه ، وهو تائه الفكر زائغ البصر ، لا يشعر بالأحضان أو القبلات التي تنهال عليه من كل جانب ...

وإذ خلا الى نفسه أخذ يرقص من الفرح ، وراح يكتب الى الكابتن فورستى مدرسه : « زميلى العزيز ، أسارع الى ابلاغك أجمل حدث في حياتى ، حدث فاجأنى بقدر ما أدخل السرور الى قلبى ، حدث فيه مقدمة لأشياء كثيرة ، حدث جعل منى فجأة أسعد رجل فى العالم ... »

وراح قلمه يقفز على الورق قفزا يصف ما فى نفسه من السرور والأمل ... يا لسعادته ... ها هو فى رتبة الكابتن ولما يتجاوز السابعة عشرة ... نفس الرتبة التى فيها أستاذه فورستى الذى تجاوز الثانية والخمسين ... عما قريب سيصبح جنرالا .. لقد بدأ الفتى يحس برياح المجد اللافحة تمس جبينه ..





جلست صوفى بالقرب من نافذة غرفتها فى قصر هوفبورج ترسم بألوان الاكواريل باقة من الزهر الجميل . وكانت من وقت لآخر تبتعد قليلا عن اللوحة وتغمض طرف عينيهـــا وترنو الى رسمها ، ثم تضع الفرشاة من يدها وتدور بنظرها فيما حولها . انها فى هذا القصر المقبض الكئيب لا تشعر بالراحة الا فى هـذه الحجرة التى أشرفت بنفسها على ترتيبها ترتيبا بسيطا واختـارت لها الأثاثات الجميلة التى تزينها حليات الذهب ، والأرائك الواطئة والمناضد الصغيرة التى تناثرت فوقها مجموعات الصور ، والبيانو الدقيق الذى صففت فوقه الزهور اليانعة . نظرت الى السماء لحظة ورأت السحب الكثيفة التى تطاردها الرياح ــ والتى تحجب جانبا من ضوء النهار ــ وقد اخترقتها كالسهام أسراب من الطيور المهاجرة .

عادت صوفى الى فرشاتها وراحت ترسم .. وفجأة سمعت صوت الباب يفتح من خلفها ، فنظرت فى المرآة أمامها ورأت دوق رايشستاد . ابتسمت له وحيته من غير أن تلتفت اليه :

ــ صباح الخير يا فرانز ..

وقف الأمير عند عتبة الغرفة مستندا الى بابها واغمض عينيه وفتح فمه يلتقط انفاسه .. قالت له الأميرة :

ـ ادخل ، واغلق الباب وراءك .

فتح عينيه ولكنه لم ير شيئا من المنظر الرائع المتمثل فى صوفى وهى جالسة امام لوحتها .. وقد انسدل شعرها الذهبى على كتفيها وانعكس وجهها الجميل على زجاج المرآة . انزعجت الشابة لمنظره هذا فانتصبت واقفة وهى تقول :

ـ فرانز .. ماذا بك ؟..

كان فرانز أمامها يرتعد وقد شحب لونه ، وانهارت تقاطيع وجهه ، واختلط شعره . وكان ثوبه الأسود يزيد من شحوب وجهه ومن العتامة المحيطة بعينيه . ظهر عليها الاضطراب والخوف وتمتمت تقول :

ـ يا الهى ، ماذا حدث ... انك ترعبنى ...

سحبته الفتاة من يده فانقاد لها كالطفل وانهار على احدى الأرائك :

ـ انت لست على ما يرام يا فرانز ... هل تريد أن انادى احدا ؟.. هل تريد ان اطلب لك كوبا من الشاى ؟..

رد عليها فى جهد :

ـ لا .. لا .. اتركى هذا .. انها حالة ستمر بعد قليل

تسمرت نظراته فى مكانها ، وانحدرت من جبهته قطرات رفيعة من العرق وراح فى حركة آلية يفرك يديه الشاحبتين الواحدة فى الأخرى وقد تعطلت حركة سير الدم فيهما وبدت الصفرة الكالحة فى اطراف أصابعهما .. جلست صوفى الى جواره ووضعت يدها على كتفه وقالت :

ـ فرانز .. ماذا حدث لك ؟.. انك تخيفنى .. الا تكلمنى وتفضى الى بما يحزنك ؟.. الم أعد صديقتك الآن ؟..

ركز عليها نظرة رجراجة وقال بصوت خافت :

ـ انى أعرف الآن .. أعلم كل شىء ..

ـ تعرف ماذا ؟.. أي شيء علمت ؟..
قال وكأنما يقتطع في كل كلمة هبرة من لحمه !
ـ نايبرج .. أمي .. الطفلان ..
كانت صوفي هي التي ارتعدت فرائصها هذه المرة .. فقد أحست بالكارثة توشك أن تنقض ، وأرادت أن تكذب لتنقذ الموقف :

ـ بل أنت لا تعرف شيئا .. هي اشاعات تلك التي وضعتك في هذه الحالة التعسة .

هز رأسه في اصرار وقال :

ـ لا . اني أعرف الحقيقة كلها هذه المرة .
وبصوت أجش ألقى الكلمات بسرعة :

ـ لقد حدث منذ أيام ونحن على المائدة أن أشار الأرشيدوق جان من طرف خفي الى سن أختي غير الشقيقة ، فقاطعته الامبراطورة بقوة بحيث أثارت انتباهي وتحركت شكوكي فجأة. وقد فكرت وقتئذ : « لعلهم كذبوا علي » ورحت أبحث عن الحقيقة. ولكن من لي أسأله ؟. ان الأوامر حولي تقضي بأن يغلق الجميع أفواههم في هذا الموضوع .. ومنذ لحظة قصيرة ، وأنا عائد من الفرقة ، قابلت جوستاف نايبرج .. لقد كنا زميلين دائما جوستاف وأنا .. ولطالما لهونا معا ونحن أطفال .. انه شاب لا يعرف الخبث ولا اللؤم ، وكان قادما لتوه من بارما ، وهو لا بد يعرف كل شيء .. وبمهارة وجهت الحديث الوجهة التي أريدها .. تظاهرت بالبراءة وقلت له أني على علم بكل شيء .. فلم يتركني الح عليه وقال لي ما يعرفه الناس جميعا الا أنا ...

ـ يا الهي .. وهل صدقت ما قاله يا فرانز ؟..

ـ لقد قدم لي الأدلة وحدد لي التواريخ .. ان أختي غير الشقيقة البرتين ولدت قبل موت أبي بنحو أربع سنوات . وفي اليوم الذى أسلم فيه أبي نفسه الأخير كانت أمي حاملا في جيوم ..

فقدت صوفى صوابها ، ولم تعد تجد من الكلمات ما ينفع لاصلاح الضرر الذى أصاب الشاب . هل تكذب ؟.. هل تلتمس لمارى لويز الأعذار ؟. انها تدرك عدم جدوى أى دفاع فى هذا المقام ، فقالت له فى رقة :

ـ اذن جئت الى على أثر علمك بذلك مباشرة ؟..

ـ لا يا صوفى ، لم أجىء اليك مباشرة ... وانما انصرف أول تفكيرى الى أبى .. هل علم بما حدث ؟. هل شك مجرد الشك فى امكان حدوثه ؟. هل استشعر هذه الاهانة .. احقر اهانة يمكن أن توجهها اليه المرأة التى يجب أن تكون آخر من يطعنه هذه الطعنة الخبيثة ؟ .. صعدت الى غرفتى ورحت أذرعها كالرجل الذى أطارت الخمر صوابه .. وهناك ارتميت على وصية أبى .. ياله من خلاص ، يا صوفى .. لقد جهل أبى كل شىء .. انفاسه الأخيرة ظل يحب زوجته ويوليها ثقته حتى لقد كتب هذه الكلمات « لطالما امتدحت أخلاق زوجتى الحبيبة مارى لويز ، وانى أحتفظ لها حتى النفس الأخير بأرق مشاعر الحب » .

نظرت صوفى فى ذهول الى الشاب وقالت له :

ـ كيف تقول هذه الأشياء يا فرانز ؟.

ـ كما تقال الأشياء التى حفظناها عن ظهر قلب .. وهناك أشياء كثيرة أخرى أعرفها .. لم أعد طفلا بعد يا صوفى .. لقد صيرتنى الآلام رجلا قبل أن أبلغ مبلغ الرجال .. رجلا .. هل تسمعين ؟.

توقف لحظة عن الكلام ثم عاد الى الفكرة التى تحز فى قلبه :

ـ عندما أبلغنى الامبراطور ، منذ بضعة شهور مضت ، خبر الزواج الثانى لمارى لويز تألمت كثيرا .. الم يكن من الأمور التى تؤلمنى أشد الألم ان أعلم فجاة أن زوجة امبراطور الفرنسيين قد انحدرت الى هذا الدرك وتنكرت تنكرا تاما لأبى ؟ . ولكنى تمالكت نفسى ولم أوجه اسئلة ، فهى أمى على كل حال .. ولم يدر فى خلدى وقتئذ شىء عن الحقيقة .. أما الآن فالحقيقة كلها اعلمها . كيف ؟ . أبعد انفصالها ببضعة شهور فقط وصل الأمر بأمى الى

أن تنسى زوجها .. تنسى نابليون .. وترتمى فى أحضان رجل آخر ! . وهــذه المراة التى تجــردت من كل علو فى النفس .. فى الجســد ومن كل حنين الى الذكرى .. هــذه المراة هى .. أمى ؟. فى الوقت الذى كان نابليون يعالج فيه حشرجة المـوت فى سانت هيلانة ، لم تعمل هذه المراة شيئا لتخفيف آلامه .. وانما عاشت مع عشيقها الأعور ومع ببغائها ومع كلبها الصـغير المدلل .

دفن وجهه بين كفيه وانفجر فى البكاء ، فصاحت به صوفى: « فرانز فرانز ... » وجذبته اليها وأخذته بين ذراعيها ، وراحت تمسح على شعره بيدها وباليد الأخرى تمسح من على خديه دموعه الدافئة وتقول : « يا صغيرى يا صغيرى .. » لقد تأثرت ايما تأثر لمراى هذا الحزن الذى ينم عن ألم قاس دفين .. ما اشقى الابن الذى يضطر الى اصدار هذا الحكم الصــارم على امه ... وكانت تقول له وقد امتلأ قلبها شفقة عليه : « هدىء من روعك يا فرانز .. أهلا ..... »

ثم أحست بالهدوء يعود اليه قليلا وهو مستند الى صدرها.. هذا الفتى الذى جاء اليها بأحزانه وبقلبه الجريح .. وقــد كان للمسة يدها ولدفء ذراعيها أثر أقوى من أثر الكلمات فى تضميد هذه الجراح . وأخيرا نظر اليها بعينين صافيتين وقال :

ـ اغفرى لى هذا الضعف يا صوفى ... ولكننى كنت أتألم ألما شديدا لقد فقدت أمى فجأة .. ولم يبق لى الآن الا ذكرى أبى وانت .. ليس هناك غيرك احد يفهمنى يا صوفى .

ـ انى سعيدة بذلك يا فرانز ، وفخورة . ولكننى لا املك من ذلك فضلا فأنا أحس باعجاب كبير لنابليون .. وعندنا فى بافاريا كانت فرنسا دائما محبوبة ..

ـ يا ربى ، لماذا لم تضع فى قلب أمى نفس هذا الشـــعور للبلد الذى جعل منها امبراطورة ... هذا الشعور الذى يكنه له الغرباء ... ولو انها تذرعت بقليل من العفة والاخلاص لباء نايبرج بالفشل ولرد على أعقابه مخذولا ..

سكت لحظة ثم عاد يقول تحت تأثير غضبه :
ـ نايبرج .. هذا الجنرال الصغير الذى هزأ منه أبى مرارا. فى ساحات القتال .. هـذا الرجل الذى كان أبى يخجل من أن يسند اليه قيادة كتيبة من جيوشه .. هذا الضابط الحقير هو الذى احتل الى جوار أمى مكان أعظم قائد أنجبته العصور .. وانا ؟. هل تعلمين يا صوفى . انى كنت أكاتبه على أنه صديق..
مدت الشابة يديها لتوقف هذا السيل من الكلمات الذى عاد ينهمر وقالت :
ـ ولكنك تجهل الدور الذى كان يقوم به هـذا الرجل لدى الدوقة ..
ـ هذا أمر لا شك فيه ... ولكننى كلما تذكرت انى انا ابن نابليون ؟. كنت ازجى الشكر الى عشيق أمى على افضاله على.. وكنت أسأله النصح .. كصديق .. لا يا صوفى ، انى لا استطيع أن أتذكر هذه الرسائل الا ويستولى على الغيظ وتغمرنى المهانة .. كم أود ان استرد هذه الرسائل ولو دفعت ثمنا لها دمى وحياتى..
وسكت برهة وقد تملكه الاشمئزاز :
ـ لقـد أحسنت أمى صنعا بعـدم مجيئها الى فيينا هـذا العام ...
هزت صوفى رأسها فى هدوء وقالت :
ـ لا تحكم عليها هذا الحكم القاسى يا فرانز ، هل تظن انها لم تتعرض للمحن القاسية ، وان التضحيات التى فرضت عليها فيما مضى لا تبرر اليوم لديك ان تلتمس لها شيئا من العفو والغفران؟.
شعر الأمير بالحرج وأبعد نظره عن صوفى وقال فى صـوت مكتوم :
ـ ربما .. ولكن هل علمت مقدار ما قاساه أبى فى سجنه ؟. هل علمت كم من الآلام حلت به ؟. أما أنا فاعلم ذلك جيدا .. واعرف كم كان يحبنى .. واعرف انه مات من أجلى فوق الصخرة النائية وسط العذاب والآلام ..
ـ من الذى أخبرك بذلك يا فرانز ؟.

ــ قلت لك انى أعرف كل شىء عنه .. واعلمى أن الحديث عنه لم يصل الى على لسان الرجال .. ولكن على صفحات الكتب فى المساء حينما أكون بمفردى فى غرفتى أقرأ فى مؤلفات لاس كازيس ودى مونتولون وأنطومارشى وكتابات أولئك الذين صاحبوه الى المنفى وكانوا الى جانبه وهو يعانى سكرات الموت .. ولقد رأته عيناى من خلال هذه الكتب وسمعته أذناى وهو يخاطبنى ... لقد قال لى كل ما يريده منى .. ووعيت قوله تماما .. واريد بعد اليوم أن أكون جديرا به ... لست أدرى هل سأجلس يوما من الأيام على عرش فرنسا .. ولكننى أريد أن أكون على استعداد لذلك .

اشرق وجه صوفى وهى تقول له :

ــ كم يعجبنى هذا الحديث منك ، يا فرانز ، نعم .. يجب أن تكون على استعداد دائما .. ان تكون جادا كثير العمل والاجتهاد والأهم من ذلك الآن أن تعنى بصحتك لتصبح قويا معافى .. عدنى بأن تريح جسمك وبأن تتحاشى كل ما يؤذيك ، وبألا تخرج وسط الضباب وبألا تعرض نفسك للمطر أو البرد .

استشاط الدوق غضبا وقال :

ــ ما اعجبكن ، أيتها النساء .. انها عواطف أمومة .. كيف لى اذن أن اكتسب الخشونة والقوة ؟. انى بحاجة الى الهواء الطلق والمران المستمر .. هل تريدين أن تجعلى منى شيخا عجوزا قبل الأوان ؟.

ــ لا اعنى ذلك يا فرانز .. ولكنك تبالغ فى كل شىء ..هل تنسى انك حينما تمتطى الجواد تركض الى أن تنهك قواك .. هل هذا عمل حكيم ؟ . ثم تعود من ركضك مكفهر الوجه ، كما لو كانت المصائب قد اعترضت سبيلك طوال حياتك .

ضحك الأمير ضحكة فيها مرارة وقال :

ــ أليست الحقيقة فيما تقولين يا صوفى ؟. هل هناك مصيبة أكبر من أن يكون ابن نابليون ، بعد أن بلغ الثامنة عشرة قائدا لكتيبة

من الرماة .. كتيبة فقط .. ومن رجال الجيش النمساوى ؟»
هل هناك ما هو أشد زراية من ذلك ؟. وحينما أعود الى مسكني لا اجد فيه الهدوء والوحدة ، ولكن أناسا حولى لا هم لهم الا التجسس على ومدرسين لا شغل لهم فيما يبدو الا اختبار سلطاتهم على حسابى .

ـ لا تكن ظالما يا فرانز .. ان ديترشستلين مخلص لك . هو بلا شك قاس بعض الشيء ، ولكنه مقتنع بأن ما يعمله فى صالحك انا واثقة من هذا ثم هناك الامبراطورة .. وهناك أنا ..»

اسرع الأمير يمسك بيد الشابة ويرفعها الى شفتيه وهو يقول :

ـ نعم .. أنت هنا .. أنت وحدك التى تحبيننى وتفهميننى ولكن قل ما أراك .. اما الآخرون فلم يخلقوا على هذه الأرض الا لايذائى .. اما عن أساتذتى .. فلنتكلم عنهم قليلا .. هل بلغك أن أوبناوس ضربنى منذ بضعة شهور بسوط من سياط الصيد؟»

صرخت صوفى فى استنكار :

ـ ضربك ؟ .. أنت ؟ ... وهل جرؤ على ذلك ؟»

ـ ولأمر تافه .. لقد انتهز هذا النذل فرصة معارضتى له فى أمر بسيط وانهال على بالسوط كما لو كنت كلبا امامه ، انا ، ابن نابليون .. لقد كنت على وشك أن امسك بخناقه ..»

حنت صوفى رأسها وهى تقول :

ـ يجب أن يعرف المرء أحيانا كيف يكتم غيظه ويكبح جماح غضبه ..»

وهنا ، جذبها هو الى صدره وقال لها :

ـ كم أنا أنانى ؟ انى لا اتكلم الا عن نفسى ... وانت ايضا .. لست سعيدة انا اعرف ذلك . مازال زوجك على ما كان عليه من عيوب عندما كنا نلعب معا وهو فى سن الثانية عشرة ، بل ان العيوب كبرت معه ؟ فهو حقود ارعن خبيث الطوية هل مازال كما كان يغار منى ؟..»

اسرعت صوفى تضع يدها على فمه :

ـ لا تكن كثير الادعاء يا سيدى . أن زوجي يخشاني أكثر مما يرهبني ... ونحن هنا الآن لا لنتكلم عنه ... بل عنك أنت ...

ذهبت الى البيانو ، والتقطت من عليه زهرة انفرطت أوراقها ، وعصرتها بين راحتيها واقتربت بكفها من انف الدوق ، وقالت :

ـ أليس عطرا غريبا هذا العطر ؟..

ـ ان فيه رائحة جثث الموتى ...

ارتعدت صوفى لهذا الرد المفاجيء ، وارادت أن تحول مجرى الحديث :

ـ هل فكرت فى مستقبلك أحيانا ، يا فرانز ؟.

ـ كيف أجزت لنفسك أن توجهى الى هذا السؤال ، يا صوفى ؟ نعم انى أفكر فى مستقبلى ، أفكر فيه بلا انقطاع ، وخصوصا فى الليل ... واحاول استجلاء اسرار الغيب ، ولكن الغيب لا يأتينى الا برد واحد لا يتغير ... هل لى أن أتوقع من القدر شيئا : أنا الامير النمساوى الصغير الذى قصوا له اجنحته ..

ـ هل نسيت بهذه السرعة كلمات ابيك يا فرانز ؟..

ـ فى العام الماضى فى ونزبرى كنت يوما فى الصيد ، رجاء نسران يحلقان فى الجو على مقربة منى ... وانتظرت لعلهما يحومان فوق رأسى . ولكن صوت طلق نارى الجأهما الى الفرار ولم ارهما بعد ذلك أبدا .. أليس فى ذلك فال سيىء ؟ .

ـ يالك من متطير ... لا تتعجل الحظ هكذا يا فرانز ... فما زلت فى الثامنة عشرة ... هلا تعلمت التأنى والصبر ؟... أنتظر ..

ـ أنتظر ماذا ، يا صوفى ؟... انى افنى فى البطالة ... واذا لم اتحرك واذا ظللت الشاب الهادىء الذى يريدون منى ان اكونه هل سيعرف العالم ان لى وجودا ؟ .. ان كل يوم يأتينى بخيبة أمل جديدة ... منذ بضعة اشهر توقعت ان تدخل النمسا فى الحرب التى نشبت بين الروسيا وتركيا ، ولكن هاتين الدولتين تصالحتا أخيرا .. وفقدت بذلك فرصة .. أى فرصة ، يا صوفى ليس لى أن أختار الوسائل التى أعمل بها ، فهى الحرب ،

والحرب وحدها التي سوف تتيح لي فرصة البروز ، والترقي ، واظهار ما انا به جدير ...

اوقفته صوفي بحركة فيها استعطاف وقالت :

ـ صه ، يا فرانز ... كيف تتمنى الحرب لتحقق لنفسك هناءها ؟ ... ان الحرب لا تخلف الا الموت والدمار . الا تعرف ان كل ما يشيد بالحرب لا يلبث ان ينهار وسط الكوارث والمصائب العامة ...

ـ ان حديثك هذا يا صوفي يشبه حديث ديترشستاين حينما يحدثني عن ابي ...

ثم نظر الى يديه النحيفتين وقد جرت فيهما العروق بارزة !

ـ هذا هو دم نابليون يجري هنا ... ومهما قيل ، ومهما حدث ، فهو يحملني كالسيل الجارف نحو القدر الذي كتب لي ...

وعادت الشابة تقول في اصرار :

ـ لقد تغير الزمن يا فرانز ، لو استطاع ابوك أن يتكلم اليك اليوم لاوصاك بالتعقل والاعتدال ... اما تفكيرك كله فيجب أن يتجه الى فرنسا هل تعتقد أن عرشها سيكون موطد الأركان اذا ما ارتقيته بالنار والدم ؟...

ـ قطعا لا . اني لن اعود الى هناك الا اذا طلبتني الأمة جميعها لا اريد ان أعمل ضد مشيئة الأمة .. ففي ذلك ما يتعارض والواجب الذي تفرضه على ذكرى ابي .. لن أستجيب أبدا الى دسائس الدساسين .

ـ ان قرارك هذا حكيم ونبيل ...

ـ ولكنه بلا شك وهم من الاوهام . فما الذي اعرفه انا عن فرنسا ؟. لا شيء أو ما يكاد ان يكون لاشيء ... ان لي بالضرورة اصدقاء فيها ولكن هل هم بالكثرة التي تحدث عنها بارتليمي في قصيدته ؟... يجب الا نثق كثيرا في الشعراء واحلامهم .. اما الامر المحقق فهو ان ستارا كثيفا اقيم للحيلولة بيني وبين الوطن الذي ولدت فيه ... من الذي اقام هذا الستار الحاجز ؟ مترنيخ امي ، الامبراطور ، وغيرهم كثيرون ... نعم اعرف انهم يزعمون

أن ذلك في مصلحتى . وهذا الاهتمام بمصلحتى وبمستقبلى تحول مع الزمن الى صورة من أقسى صور الاضطهاد ...

ـ انت تبالغ يا فرانز . ان الجميع هنا يحبـونك ويريدون لك السعادة ...

ـ انهم يحبوننى ولكن على الصورة الفاسدة ... لقـد وهبنى ابى فى وصيته حاجياته الخاصة وكتبه ومجـوهراته . وكان على برتران ومونتولون ومارشان ان يسلمونى ذلك كله عند بلوغى سن السادسة عشرة . وهأنذا قد بلغت الثامنة عشرة ... فمـا الذى منعهم من المجىء ؟... لاشك أنهم حاولوا الحضـــور لدى : فمن الذى حال بينهم وبينى ..؟ من الذى منعـهم من أن يحضروا لى السلسلة المجدولة بشعر أبى ؟... حتى هذا الأثر أحرم منه ؟... آه يا صوفى لابد أن مترنيخ والامبراطور فرنسو كانا يرتعدان خوفا من أبى ، حتى انهما مازالا ـ بعد ثمان سنوات من موته ـ يشعران بالرهبة عند رؤية سترة من ستراته أو حذاء من أحذيته أو خصلة من شعره ...

ثم راح الدوق يسير فى الغرفة وهو فى حالة اضطراب شديدة ويقول :

ـ ولكن هل انا فى حاجة الى شىء من ذلك لأذكره واحبه؟... ألا يحدثنى عنه كل شىء فى هذه البلاد ؟... احجارها ،سماؤها أشجارها ؟ . عشرون نصرا عظيما فاز بها ابى فى ساحات الحرب النمساوية ... اوسترلتز واجرام لوباو ... وغيرها ... انخاله مازال يقطن شونبرون ، وهو مستعد اذا ما ناديتـــه أن يرد على النداء ...

اخذت صوفى تنظر اليه فى رعب ، فقـد اكتشفت فيه الآن رجلا لم تكن تعرفه من قبل ... ها هو ذا يسير هنـا وهنـاك فى عرض الغرفة وطولها وقد اختلط شعره وبرقت عيناه وبرزت اكتافه تحت تأثير الغضب .. وراح يقول :

ـ يريدون ان يجعلوا منى كولونيلا المانيا .. ها .. ها .. اى خيبة امل تنتظرهم فى النهاية ... لقد بذلوا كل ما يستطيعون من

جهد حتى لا اذكر شيئا من الماضي ... ولكنني ساذكره رغم انوفهم ان صورة ابي مرتسمة في قلبي ، واذا ارادوا انتزاعها فلابد لهم ان ينتزعوا قلبي معها ...

لم تعد صوفي تطيق كلامه هذا ، فارتمت عليه تحيطه بذراعيها وتقول :

ـ كفي يا فرانز، كفي ، اتوسل اليك ... انك تؤذي نفسك بهذا ...

كان يواجهها وهو يعلوها بارتفاع رأسه ، وقد انعدم بينهما تماما فارق السن ، وسوى بين زوجيهما نظرتهما المتشابهة للأشياء وفهمهما الواحد للعالم وما فيه ، وكانت صوفي ترفع نحوه وجهها الصبوح الذي يشع نورا ... وعينيها المرتجفتين من التأثر والانفعال ... عندئذ فقط لاحظ الشاب مقدار ما في هذا الوجه من جمال ، بما يحيطه من شعر ذهبي وما يزينه من فم رقيق وعنق دقيق أحاط به شريط حريري أسود فزاد من حلاوته وزاد من تألقه ... قالت في صوت خافت :

ـ ستصبح رجلا عظيما ، يا فرانز ، وسأكون فخورة بك ... سترقى العرش يوما ...

انحنى عليها ، وخيل اليه أن همومه وشكوكه وآلامه قد تبددت داخل تلك الابتسامة الحلوة التي تقدمها له صوفي ، احس بقوته تتضاعف وبقلبه يطمئن ويهدأ فسألها :

ـ هل تعتقدين حقيقة انني سأرتقي العرش يوما ؟...

ـ أنا متأكدة منه يا فرانز .. لي ثقة فيك عظيمة ...

هاهما يعيشان الآن تلك اللحظة الخالدة التي تتحول فيها الصداقة بين الرجل والمرأة الى حب عظيم . لقد مدت يديها وازاحت الشعر الذهبي الذي يحيط بوجه الشاب وامسكت بوجنتيه الشاحبتين وقالت بصوت وئيد كأنها تلقى قسما :

ـ احبك يا فرانز ... دعني اقبل جبينك الرائع الجميل ...

اغلق عينيه وقال في كبرياء :

ـ انه جبين أبي !!..





أول مارس ١٨٣٠ ، في قصر شونبرون ، دوق رايشستاد امام لجنة رسمية يؤدي الامتحان الذي ينهي به دراسته ، وقد حضره الامبراطور كما أصرت الامبراطورة على حضور هذا الاختبار ..

وجهت اليه اللجنة سؤالا عن التشريع العسكري ، واخذ الأمير يلقي اجابته في افاضة وفجأة استرق الامبراطور السمع وقال :

ـ كيف تدق الاجراس في هذه الساعة ؟ . . .

قالت الامبراطورة وقد امتقع لونها :

ـ انها دقات تؤذن بالخطر . . .

وفي الحال انتشر صوت المدفع يملأ الفضاء . فراح الموجودون ينظر بعضهم الى بعض وقد اصابهم الرعب والقلق . وقال الامبراطور متسائلا :

ـ ما معنى هذا ؟ . .

واذا باحد الضباط يدخل فجأة لاهثا !

ـ مولاي انه الدانوب . . . انهيار الثلوج . . . لقد تهدمت

الكبارى والجسور .. لقد فرقت الاحياء المحيطة بالمدينة واعطى الانذار بالخطر فى كل مكان .
واضاف الضابط أن كل الثلوج التى يحملها التيار ترتطم بجدران المنازل وان هناك حتى الآن عددا كبيرا من القتلى .

وقف الامبراطور وقال :
ـ هيا بنا ... يجب أن نعد الاسعافات فورا ...
وهنا قال الدوق :
ـ انى معكم ..
القى الامبراطور نظرة نحو حفيده أوقفته فى مكانه :
ـ لا يمكن ذلك ، يا فرانز ، فى الحالة التى انت عليها الآن .

ـ ولكن ، يا جدى ، لا يليق بى أن ابقى هنا فى حين يتعرض كل هؤلاء البؤساء للخطر ...
ـ انظر الى نفسك فى هذه المرآة يا بنى ... ها انت تسعل ولونك شاحب وقد خارت قواك ... لقد منعك الطبيب ستودنهايم من الرقص ولعب السلاح ... ومع ذلك تريد أن تلقى بنفسك فى الماء المثلج ..
وقالت الامبراطورة :

ـ انه لجنون من جانبك يا صغيرى فرانز ... ولن تكون النتيجة الا زيادة حالتك سوءا من غير أن تعود من ذلك فائدة على أحد ... كن عاقلا ، يا فرانز ...

حنى الدوق راسه ... انه يعز عليه كثيرا الا يعامل معاملة الرجال حتى الآن ... وانه لحانق على ضعف جسمه الذى لايمكنه من احتلال مكانة وسط الرجال ... وأخيرا قال بصوت خافت :

ـ فليكن .. سأبقى هنا .. ولكن ارجو أن تقبلوا ان افرغ بين يديكم كل ما تحتويه جيوبى .. وهو قليل بالنسبة لكل هذه المصائب ...

***

كان الدوق قد استرد صحته ، فى الظاهر ، حينما توجه فى

١٧ يونية الى بلدة جراتز فى ستيريا ليلتقى هناك بالامبراطور وبالامبراطورة وبأمه التى لم يكن قد رآها منذ وفاة نابيرج . وكانت مارى لويز قادمة من لايباخ وقد قطعت المسافة ما بين البندقية وتريستا فى سفينة بخارية الأمر الذى يعتبر حدثا عظيما فى ذلك الوقت ...

وما ان وصل الأمير الى جراتز حتى اسرع يقابل دوقة بارما فوجدها قد سمنت وثقلت حركتها وبهت لونها . ولم يكن فى لقائهما شيء من الحرارة التى عرفاها من قبل . ولم يشأ الفتى أن يشير الى الماضى ، فهو فى حاجة الى معاونة أمه اياه ليحصل على اقرار ببلوغه سن الرشد يخول له انشاء حاشية عسكرية له تتناسب ومقامه ...

وانقضت الايام الأولى فى احتفالات واعياد دينية وشعبية واستعراضات عسكرية وفى احدى الأمسيات ،وكان الدوق يشاهد إطلاق الصواريخ الملونة ، سمع صوتا يهتف من خلفه « يعيش نابليون ! .. » لقد ادخل هذا الصوت على قلبه سرورا ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكتب فى مذكراته عن ذلك اليوم : « المال الذى ينفق فى مثل هذه الاحتفالات مال يضيع ، وكان من الخير جمعه وتخصيصه لعمل من أعمال الخير أو لاحدى المؤسسات ذات النفع العام ... »

وفى يوم ٢٠ يونية ، فى اللحظة التى هم فيها الامبراطور وضيوفه أن يأخذوا اماكنهم من المائدة تقدم ضابط شاب من دوقة وايتشستاد وانحنى معلنا عن اسمه : « الفارس بروكيش فون أوستين » .

نظر اليه الدوق فوجده شابا فى الخامسة والثلاثين من عمره ، يميل جسمه الى النحافة ، له وجه جميل مستطيل ، وشفتان قويتان حليقتان وشعر طويل مجعد مفروق فى وسط الراس . أن كل شيء فى هذا الضابط يوحى بالخلق الكريم رغم حاجبيه الكثيفين العابسين .

أما بروكيش فقد سحره ما رآه فى الدوق من عينين زرقاوين وجبهة عريضة وشعر اشقر . فقد احدث هذا الجمال الارستقراطى اثرا عميقا فى نفسه . ولقد كتب فيما بعد يصف هذا اللقاء قال :

« لقد شعرت وقتئذ بما يشعر به الشاب عندما يقابل للمرة الاولى الفتاة التي يسلمها زمام قلبه للمستقبل » .

على مائدة الطعام ، كان بروكيش الى جانب الدوق وأمامهما جلس الإمبراطور والامبراطورة . وكان بين الحضور الارشيدوق جان وبعض الضباط ولم يتبادل الامير مع جاوه أي حديث في أثناء الطعام غير بعض عبارات المجاملة . ولكن بعد انصراف الامبراطور والامبراطورة سأله الدوق عن اسفاره فأجابه الضابط في حماس شديد حيث قال ان اصله من جراتز وانه قام باسفار عديدة ومهام دبلوماسية كثيرة في البلقان وآسيا الصغرى ومصر . وانه ذهب الى أزمير كرئيس لهيئة اركان حرب الاسطول النمساوي : الذي كلف بمهمة ابادة قرصان جزر الارخبيل . اما الآن فهو مندوب بلاده في اثينا ويبحث عن ملك يقيمه على عرش اليونان .

كان الدوق يستمع الى بروكيش وهو يتكلم بصوته المليء الدافيء واستطال الحديث بينهما ساعتين . وعندما افترقا مد له الأمير يده محييا وقال له والابتسامة العريضة على شفتيه : « كأني اعرفك منذ زمن بعيد ... »

وفي اليوم التالي جاء ديترشستاين الى الدوق ومعه بروكيش في بذلة رسمية كبرى . فاندفع الدوق نحوه مادا اليه يديه والسرور ملء عينيه :

ـ هذا انت ... يالها من فكرة رائعة ... قلت لك أمس كأني عرفتك وكأني احببتك منذ زمن بعيد ... وهي الحقيقة بعينها .

قال بروكيش :

ـ ان هذا شرف عظيم لي يا سيدي ...

ـ لا .. لا .. انت لا تعرف مقدار ما اسديت لي من خير ... لقد دافعت عن شرف ابي في وقت كان الجميع يتبارون في ذمه وقدحه .. لقد قرأت الدراسة التي وضعتها عن موقعة واترلو ولكي الم بدقائقها تماما ترجمتها مرتين مرة الى الفرنسية والأخرى الى الايطالية ...

ـ اني يا سيدي الأمير لم أعمل غير الاشادة بالحق . وان الاقلال

من قدر نابليون لهو بالتبعية اقلال من شأن الذين انتصروا عليه ، أن اباك فى واترلو لم ينهزم امام الرجال بقدر انهزامه امام الأشياء والظروف القاسية . ولا يقلل ذلك من عبقريته شيئا ... لقد منى بالمطر فى الوقت الذى كانت فيه جيوشه منهوكة القوى .. ثم كان هناك الخطأ الذى ارتكبه جروشى ...

وهنا تدخل ديترشستاين فى الحديث وقال :

ـ قل لى يا عزيزى بروكيش .. واترلو هذه اصبحت من الماضى . هلا تكلمنا عن المستقبل ... قص على الدوق مشروعاتك فيما يتعلق ببلاد اليونان ..

ـ انها مشروعات جد بسيطة .. انى اراها فرصة فريدة لتتاح للنمسا لتفرض سيادتها على الشرق ،ولتحبط النفوذ الروسى هناك إن اليونان تبحث عن ملك ، ولا مجال للكلام فى هذا المقام عن احد الامراء الالمان بسبب الاعتبارات الدينية ... فلماذا لا تتوجه بطلبها الى أحد الامراء النمساويين ؟.

وتوقف بروكيش لحظة يزن فيها اثر كلامه ثم عاد يقول وقد مد اصبعه فى اتجاه الأمير :

ـ اليك انت مثلا . يا سيدى ...

صرخ الدوق فى رعب :

ـ الى انا ؟ هل فكرت فى ذلك جديا ؟.

ـ نعم ، جديا ، وبعد انصرافك أمس فى المساء تحدثت فى هذا الموضوع الى سيدى الأرشيدوق جان والى الكولونيل فركلاين وزير صاحبة السمو والدتك .

وهنا لمعت عينا الأمير وقال :

ـ وماذا كان رايهما ؟.

ـ وافقا على ما اقترحته ...

ـ هل هذا ممكن ؟..

ـ بل لقد انضمت الى راينا هذا جلالة الامبراطورة وقد اشتركت معنا فى الحديث ..

ـ الامبراطورة ؟.

تملكه السرور ، ولم يدر كيف يعبر عن شكره لهذا الرجل ، الذى لم يكن يعرفه بالأمس ، والذى يعرض عليه اليوم تاجا ، يعرضه عليه فى صوت هادىء عربونا للصداقة ...

فى هذه اللحظة ، اعلن الخدم عن قدوم البرنس هوهنلوه ، فانتصب بروكيش واقفا ولكن الدوق أجلسه وقال له : « اجلس فان البرنس سيعبر المكان فقط ولا اريدك أن تتركنى الآن » .

وجاء البرنس وانصرف سريعا وعاد الحديث الى ما كان عليه وقد اداره ديترشستاين حول نابليون . فأخذ الشاب يتكلم عن أبيه فى حماس كبير وكانت كلماته تعبر عن الاعجاب الزائد والحب العميق . قال « ليس لعبقريته العسكرية مثيل فى التاريخ ... وكم وددت أن أضحى بكل شىء لاصبح مثله من كبار رجال الحرب ... »

بعد ذلك راح الرجال الثلاثة يتحدثون عن المواقع التى خاضها نابليون وخصوصا عن موقعة أوسترلتز . وكان كلام الدوق عن هذه الموقعة لا ينتهى وكأنه حضرها بنفسه .. فهو يشرح حركات الجيوش المتحاربة ويشير الى طبيعة الأرض كأنه يعرفها ، والى أسماء قواد الفرق وكأنهم من أصدقائه ... ويذكر الأخطاء التى ارتكبت واعمال البسالة التى تمت ... لقد خرج على طبيعته الهادئة وراح مندفعا فى الكلام وهو يشير بيديه وكأنه يحرك المائة والستين الف رجل ، الذين جمعتهم هذه الموقعة .. لقد أعاد تمثيل ميدان القتال تحت ناظرى بروكيش وديترشستاين .

وكان الضابط ينظر الى الدوق فى دهشة ... لقد اكتشف فى هذا الصبى رجلا لم يكن يتوقع له وجودا .. رجلا له علم بفنون القتال ودراية بشئون الحياة وصدق فى الحكم على الأمور فقال له :

ـ سيدى الأمير ، أقول لك بكل صراحة ، لست أظن انه يوجد فى حامية جراتز كلها ضابط يفوقك استعدادا للاضطلاع باحدى القيادات العليا ..

ابتسم الدوق ابتسامة حزينة وقال :

ـ فيم تفيدنى هذه المزايا التى تنسبها الى يا مسيو بروكيش ؟ كيف يتاح لى ان افيد منها وانا أعيش فى تلك العـزلة التى ترانى فيها ؟ . لا يوجـد حولى من الرجال غير الامعـات الذين لا قدرة لهم ولا شجاعة ... قوم طيبون ولكن لا حول لهم ولا طول ...وانا أريد ضباطا ذوى فطنة ممن اشتعلت فى قلوبهم النار المقدسة ...

القى الدوق نظرة سريعة نحو مربيه وقال :

ـ ليس لى من مصير يليـق بى الا أن اصـبح اعظم قائد فى النمسا . ولكن كيف يتاح لى أن استعد لهذا الدور الخطير ؟ مازلت أبحث عن رجل يستطيع ان يعلمنى أسرار الحرب العظيمة ...ولم أجد هذا الرجل بعد ... ولست اريد لمسيو ديترشـسـتاين اية اهانة اذا قلت اننى مازلت افتقـــر الى مثل هـــذا الرجل فى حاشيتى ...

ثم سكت الامير ومد يديه الى بروكيش وقال :

ـ يا صديقى ، وارجو أن تسمح لى بأن ادعوك صديقى ، أنت الرجل الذى طال انتظارى اياه .. ابق معى .. ضـحـح من اجلى بمستقبلك ... ان شعورى يحدثنى اننا انما وجدنا ليفهم كل منا الآخر ...

تأثر الضابط لهذا الكلام الذى أحس بحرارته وبصدق عبارته وقال للدوق :

ـ انت تغالى فى صفاتى يا سيدى الأمير ، وأشد ما أخشاه ان أسبب لك خيبة أمل ... انا لست من رجال الحرب .. وانما انا من رجال الدبلوماسية واهوى الاسفار والرحلات ...

ـ بل انك من فطاحل المحاربين .. لا تقلل من قدرك .. لقـد تبينت حقيقة أمرك فى كتاباتك ... الم أقل لك ان ترجمتك لحياة البرنس شوارزنبرج قد افادتنى كثيرا فى دراساتى ؟... يجب ان نعيد معا قراءة وصفك لموقعة واترلو .. لنا حديث آخـــر حول ما عرضته عليك اليوم ... كلا . ما اظن انك تستطيع الامتناع عن مساعدتى ...

قام بروكيش وقال في ادب شديد :
ـ اسمح لي يا سيدي الأمير ان انسحب الآن ... اني أريد أن اذهب لتحية الدوقة والدتكم في فيلا ماندي ...

وضع الدوق احدى يديه على كتف بروكيش وسار معه حتى اوصله الى الباب . ومنذ تلك اللحظة أصبح التقاء الشابين يتم كل يوم تقريبا . وكان ديترشستاين يشجع هذه الصداقة لما لاحظه من حسن تأثير الضابط بروكيش على تلميذه .

وكان الدوق سعيدا بهذه الصداقة ، كالمراهق الذي عرف الحب للمرة الاولى . فمنذ أن دخل بروكيش في حياته خيل له أن جدارا كبيرا من جدران السجن المحيط به قد انهار ، واصبح يرى من خلال هذه الفجوة الواسعة ، سماء لا حدود لها ، وعالما ملؤه الحرية ، واحلاما في متناول يده تحقيقها ... لقد عثر اخيرا على انسان يستطيع أن يفهمه ويستطيع هو أن يلجأ اليه ، انسان يستطيع أن يحبه وان يتعلق به ... هذا هو بروكيش الذي يكبره بخمس عشرة سنة .. انه ليس صديقا فحسب ولكنه ايضا الدليل الواعي والأخ المخلص الذي يحق له ، من غير ان يفقد من كرامته ، ان يتقبل منه النصح والتأنيب ... انه يعب من كأس الصداقة ويسكر برحيقها .

يوم ٢٨ يونيه ، قبل أن تدق الساعة الثامنة ، دخل الضابط بروكيش على الدوق ، فوجده في ثياب الفرسان وعلى استعداد للخروج في الحال ترك الامير فكرة الخروج للنزهة وقاد صديقه الى غرفته حيث كان ديترشستاين موجودا . قال بروكيش :

ـ هل فكرت يا سيدي فيما عرضته عليك منذ أيام ، بشأن عرش بلاد اليونان ؟.
فرد الدوق قائلا :
ـ ليس الرفض من جانبي . ولكن الا ترى اني مازلت بعد صغيرا ،وتنقصني بضع سنوات لكي اصلح ملكا على تلك البلاد... سيجعلون بالضرورة الى جانبي وصيا ...اني افضل الانتظار ...
وعاد بروكيش يقول :

ـ استفد اذن من هذه الفترة لتستعد للدور العظيم الذي تسعى اليه ... اقرا كثيرا ، وبنوع خاص ، تاريخ حياة نابليون الذي تنبأ بالحوادث الجارية الآن ، وكان بعيد النظر صادق الحدس . ستجد في هذه القراءة عبرة وعلما تفيد منهما كثيرا .

ابتسم الدوق ونهض الى مكتبته ففتحها واخرج منها مذكرات لاس كازيس وكتب مونتولون ، ووضعها على المنضدة وهو يقول :

ـ هذه الكتب لا تفارقني .. وهناك في شونبرون توجد مكتبة عامرة بالمؤلفات التي كتبت عن أبي ... لكن هذه الكتب جميعها لا تحتوي الا على الماضي ، اما الحاضر فلا ادري عنه شيئا . ما الذي يقوله الناس عني في فرنسا ؟ هل ما زال لي هناك اعوان وانصار ؟... يجب أن أكون على ثقة من أني واجد هناك ارضا صلبة اضع عليها قدمي .. وماذا يكون موقف أوربا مني ؟ .

حاول بروكيش أن يطمئن هذا القلق لدى الشاب وان يجمله بالصبر فقال له :

ـ بعد بضعة ايام سأقوم برحلة طويلة في انحاء سويسرا والمانيا ، وسأتقصى احوال الرأي العام حيالك واوافيك بما يكون عندي بعد عودتي ...

صاح الدوق :

ـ آه ياصديقي ، كيف اشكرك على هذا الاهتمام ، وآمل الايكون النبأ الذي تأتيني به عن ذلك مثبطا .. ربما اعتقدوا عني هناك انني عاجز .. وهم ولا شك يتهمونني بالتنكر لأصلي ومسقط رأسي ولكنك ستنير كل من يحدثك بمثل هذا الكلام . وتذكر له الحقيقة كاملة .. أليس كذلك يا بروكيش ؟..

ـ اعدك بذلك ... سيعرف القوم ، في كل مكان امر به ، ما هو الوجه الحقيقي لابن نابليون ..

اقترب الدون من بروكيش ووضع يديه على كتفيه وقال له :

ـ بروكيش ... صديقي بروكيش ... أفي هذه اللحظة التي بدأ فيها مصيري يتخذ شكلا ـ وما اظنك الا موافقي على صحة ذلك ـ أفي هذه اللحظة تفكر في تركي والابتعاد عني ؟...

ـ ولكنك لست وحيدا يا سيدي الأمير ... ان المخلصين حولك عصبة .. وهناك الاسرة الامبراطورية ..

هز الدوق رأسه ورفع نظره الى السماء وقال :

ـ ما اجهلك بهذه الاسرة الامبراطورية ، يا بروكيش .. انها لا تعرف غير الكآبة والملل والأنانية .. يا الهي ، ما اثقل هذه الجلسات التي اشعر بنفسي دائما غريبا في وسطها ... يا الهي ! ما أثقل هذه الجلسات حول مائدة الامبراطور وما احمق الاحاديث التي يجب علي أن استمع اليها خلالها . هذه الأحاديث .. اظنها لا ترقى الى مستوى ما يدور في حانات البلدة .. اخوالي وخالاتي وابناؤهم كلهم ذوو عقول ضيقة ونفوس وضيعة ... وليس من بينهم غير الأرشيدوق جان الذي يستحق التقدير والاعجاب .. فهو كبير النفس ... لاشك أن جدي يحمل لي الود .. وهو رجل عادل طيب .. ولكنه العوبة في يد مترنيخ يصنع منه ما يشاء ... أما الامبراطورة فهي ذكية ، ولكن لها قلبا قاسيا .. والارشيدوق ولي العهد مختل الادراك والشعور .. اما اخوة فرنسوا شارل فسيىء الخلق لئيم الطبع مبتذل الحديث ...

وهنا سأله بروكيش :

ـ الا يوجد انسان واحد تطمئن له وتستريح اليه ؟

احمر وجه الدوق قليلا وقال :

ـ نعم الأرشيدوقة صوفي .. ليس غيرها أحد في الأسرة يفهمني .. ان مودتها لي هي سندي الوحيد وعزائي .. كم هي طيبة القلب حلوة الطبع يا بروكيش لقد أدخلت الدفء على قلبي وآنستني يتمي ووحدتي ...

اراد الضابط ان يختبر اعماق قلب صديقه فسأله :

ـ انها عزيزة لديك .. الارشيدوقة .. اليس كذلك ؟..

ـ لقد خلق كلانا ليتفاهما . وليس الا انت وهي فقط يا بروكيش اللذان أفضيت لهما بما في قلبي وأنا مطمئن آمن .. لذلك يا صديقي ، لن تقبل ان تتركني هكذا .. وأنا في حاجة شديدة اليك .. يجب أن توافق على انضمامك الى حاشيتي

العسكرية ... سأطلب من امى أن تتدخل ليشملك الاختيار ضمن تلك الحاشية ...

ـ ولكن لا صفة لى يا سيدى الامير تؤهلنى لان اطمع فى الحصول على هذا الشرف .

ـ لا يتعلق الامر بالشرف ولكن بخدمة جليلة فى استطاعتك ان تؤديها .. هناك محاولات تبذل لابقائى فى وضع دنىء .. هل ترفض مساعدتى يا بروكيش ؟...

ـ كلا بالطبع يا سيدى الامير ... ان اخلاصى لك لا تشوبه شائبة ..

ـ انا فى حاجة الى المستشار الناصح .. هلا كنت لى هذا المستشار يا بروكيش ؟..

وهنا سار الضابط خطوة الى الوراء وارتسم الجد على وجهه وقال :

ـ انك فى العشرين من عمرك ، ولا ادرى هل ارادتك صادقة واضحة ؟ هل لى أن أعتمد كل الاعتماد عليك ؟.. يا سيدى الامير ، إن المهمة شاقة وانا لا اعرف عنك شيئا ...

شحب لون الأمير وامتلأت عيناه بالدموع وقال :

ـ قولك الحق .. لم اعمل بعد شيئا يجعلنى احظى بصداقتك وأفوز بثقتك .. آه ، لو استطعت ان تقرأ ما فى قلبى ... مهما كانت الاسباب التى تحول بينك وبين وطنك ، فليس منها ما يبرر نسيانك لهذا الوطن .. لا لم انس قط البقعة التى ولدت فيها ، لا ولا البقعة التى يبلى فيها الآن جثمان ابى... اعطنى الفرصة واختبرنى وستجدنى باذن الله جدير بأن أكون ابن نابليون . هلا جعلتنى عند حسن ظنك ؟...

تكلم الدوق وهو يشعر بأن كرامته قد مست وبان كلمات بروكيش قد جرحت منه كبرياءه . وكان فى صوته صادقا منفعلا ، فقال بروكيش :

ـ نعم يا سيدى الامير ، اقبل أن أكون لك ناصحا امينا ، ولكن بشرطين ...

وقف بروكيش وحبس الدوق انفاسه ينتظر هذين الشرطين ؟ وعاد الضابط يقول وهو يقف عند كل كلمة :

ـ بشرطين : ان يكون ذلك للحياة ... وللحياة الكبرى ..

كان الشابان واقفين كل منهما في مواجهة الآخر ، وقد لمعت عيناهما . فتح بروكيش ذراعيه فارتمى فيهما الدوق ، وهو يبكي من الفرح ، وهكذا اتصل ما بين قلبيهما ..

***

في ٣٠ من يونية حضر بروكيش ليودع دوق رايشستاد وتحدثا طويلا . وعندما افترقا تعانقا واهدى الضابط الى صديقه ميدالية عليها رسم الاسكندر الاكبر ، فتناولها الشاب ووضعها كالحجاب على قلبه الى جانب ايقونة دينية كانت هدية من صوفي .





وصلت انباء ثورة يولية فى باريس الى مترنيخ وهو فى قصره فى كونجوارت ببوهيميا . وقد اغمى عليه فى الحال واسرع من حوله يستدعون له الطبيب ـ وبعد أن افاق قال فى صوت ضعيف :

ـ هذا هو العمل الذى كرست له حياتى كلها ينهار ...

ثم انفجر يصب اللعنات على فرنسا ، التى وصفها بأنها «الدمل الذى فى جانب أوربا » وعلى شارل العاشر ، الذى وصفه بأنه « المجنون العجوز » وعلى الوزير بولينياك الذى وصفه بأنه «المتنطع الاحمق» وبعد ذلك راح يدرس الحالة فوجدها جدخطيرة ففى باريس أصبح الجيش والشعب على استعداد للمناداة بنابليون الثانى ... وكانت المسارح والاعلانات والصور والاغانى وكل شيء يجعل منه رجل الساعة المرتقب... وكان الكل يقول : « لو ظهر نابليون الشاب على الحدود قبل نهاية هذا الشهر لأصبح امبراطورا ولبات ليلته فى التويلرى ... »

راح العرق البارد يتصبب من جبين مترنيخ .. أمن أجل الوصول الى هذه النتائج ظل طوال تلك السنوات الخمس عشرة



يبذل الجهد والمكر والتدبير ؟.. ومن الذى يمكن أن يخلف شارل العاشر على العرش ؟... دوق بوردو ؟.. أم احد الاورليانيين ؟.. أم نابليون الثانى ..؟ أما عن هذا الاخير .. فلو انه استطاع أن يخنقه بيده لفعل ..

وأخذ الوزير النمساوى يتتبع تطورات الحوادث فى فرنسا بوجل وخوف .. ها هم أولاء البونارتيون الذين لا زعيم لهم يجمعهم ينقسمون على أنفسهم منذ البداية .. فينضم فريق منهم الى الاورليانيين وينحاز الفريق الآخر الى الجمهوريين. ثم ها هو لافاييت يزيد الحالة اضطرابا .. وأخيرا نودى فى ٧ أغسطس ١٨٣٠ بدوق اورليان ملكا للفرنسيين واتخذ لنفسه اسم لويس فيليب .

تنفس مترنيخ الصعداء عند سماعه هذه الأنباء . فالأمر لم يفلت بعد من يده . ودوق اورليان هذا يصلح لشغل المكان الى أن يحل محله هنرى الخامس .. وفى استطاعة النمسا أن تفرض عليه التعقل والهدوء اذا ما لوحت له على البعد بدوق رايشستاد ، كخيال المقات ينصب لارهاب العصافير .. وقد بعث الوزير بمن يهمس فى اذن « ملك المتاريس » بأن يتخلى عن حماسه وعن دعاياته الثورية والا اطلقوا عليه فرخ النسر الذى كبر الآن وأصبح نسرا قويا ... وقد اسفر التنبيه عن نتائجه المرجوة ...

أما الدوق فقد ظل فى فيينا ينتظر عبثا صوتا أو اشارة أو دلالة تنبئه بأن القوم فى فرنسا يفكرون فى أمره . وكانت آماله تتبدد مع مرور الأيام . وقد ترك فى جهل بالانباء ، يحيط به ليل كثيف بعد القلق والتوجس

وفى نهاية شهر أغسطس وصل بروكيش الى شونبرون قادما من زيوريخ . تعانق الصديقان ، واندفع الأمير يسأل القادم :

ـ قل لى ، ما رأى الناس عنى فى العالم ؟ هل هم يعتقدون اننى عاجز حقا ، كما يذيعون فى رواياتهم ؟..

ـ اطمئن .. لقد وجدت فى جميع أنحاء المانيا عطفا عظيما عليك .. ان الرأى السائد بوجه عام هناك هو انك سيد فرنسا القادم بلا منازع ...

ـ احقا هذا ، يا بروكيش ؟.. آه لو تعلم كيف تعتريني احيانا رعشة عندما افكر في أني سأرقى العرش يوما ..

ـ لم يحن هذا الوقت بعد يا سيدى الامير .. ولكن ان عاجلا أو آجلا سوف يسقط لويس فيليب .. والى أن يحل هذا الموعد ، زود عقلك بالنضج ، واملأ ذهنك بالمعارف العميقة .

أمسك الدوق بيد صديقه وقال في حزن شديد :

ـ كم يكون وجودك مفيدا ... وكم تكون نصائحك ثمينة لى في هذه المهمة ... اني حزين لانك لن تنضم الى حاشيتي العسكرية كما كنت آمل .. فقد رفض مترنيخ ان يستجيب الى طلب امى بهذا الصدد وقال لها : « اما هذا فانا بحاجة اليه لنفسى » .

وسكت الأمير وهو يضغط على كفيه ثم قال :

ـ سيأتى اليوم الذى يصبح فيه لارادتي وزن ...

ولم تهدأ ثائرة الأمير بعد ذلك ، وازداد القلق عليه ، فرؤى علاجا لهذه الحالة ، ان ينقل ، فى ٤ من سبتمبر ١٨٣٠ الى قصر نيكولسبرج حيث يقيم البرنس ديترشستاين شقيق مربيه ، وقد عاد لتوه من باريس بعد أن عاش فيها سنوات طويلة . وقد تحدث البرنس والدوق لمدة ساعتين وخرج الدوق من هذا الحديث محطم الآمال .. لقد رسم له البرنس ديترشستاين صورة قاتمة للحالة في فرنسا ، حيث أخذ عدد البونابرتيين المخلصين يتضاءل يوما بعد يوم ، وحيث لم يعد الشعب يطالب الا بالحرية والمساواة والسلام .. والحكومة القائمة تعده بكل ذلك .. حقا لقد كان نابليون الثانى ذا شعبية واسعة فى عهد لويس الثامن عشر وفى عهد شارل التاسع ، أما فى عهد لويس فيليب فهو ليس الا دوق رايشستاد الأمير النمساوى ...

بعد ذلك بأيام انتقل الدوق مع البلاط الى المجر لحضور حفل تتويج ولى العهد فى برسبورج وقد استغرقت هذه الرحلة بضعة أسابيع ولم يعد الى شونبرون الا فى أوائل شهر أكتوبر .

وفى أثناء هذه الفترة كان البلجيكيون اقتداء منهم بالفرنسيين قد قاموا هم أيضا بالثورة ، واعلنوا استقلالهم يوم ٤ من أكتوبر ، وراحوا يبحثون عن ملك يولونه عرشهم . وقد اتجه تفكيرهم فى

ذلك الى دوق رايشستاد . وهكذا عاودت الأمير الآمال، وراح يمني النفس بالتاج ، ولكن كلمة من مترنيخ بددت هذه الآمال واطاحت بهذه الاحلام : « كلا ثم كلا .. يستبعد اسمه نهائيـا من جميع العروش .... »

***

انقضى شـهر على ذلك ، وفي احدى امسيات ديسمبر دخل بروكيش حجرة صديقه يبحث عنه ، فوجده نائما فى احد المقاعد وعلى ركبتيه كتاب مفتوح . اقترب الضابط وراح ينظر طويلا الى وجه النائم فأحس بحزن شديد يعصر قلبه ان وجه الأمير شاحب، وهو يبدو مع الاستسلام للنوم اكثر نحولا واكثر ضعفا ، وكأنه قد اقترب خطوات كثيرة من الموت ... فقد اكتست العينان سوادا كاد يطغى على الصدغين وبدت الشفتان جافتين تنطلق منهما انفاس قصيرة متلاحقة وتدلت اليدان لاحراك بهما وقد اكتسـتا صفرة الشمع .

فتح الدوق عينيه وانتصب واقفا :

ـ هذا أنت يا صديقى ؟.. ما اسعدنى برؤيتك .. فأنا اشعر هذا المساء بالوحدة والانقباض .. وما من شيء أجد فيه اغراء.. ولكن عاودتنى شجاعتى كاملة حينما رأيتك أمامى ...

كان يتكلم وعيناه تلمعان لمعانا شديدا ، وهو يتوقف من وقت لآخر ليطلق سعلة من صدره .. وبعد أن اسـترد انفاسه قال لبروكيش ردا على سؤال لم يتركه يلقيه عليه :

ـ لا تخش شيئا .. انهـا مجرد حالة زكام لن تلبث أن تزول تماما بعد بضعة أيام ...

أمسك الضابط بيديه وصاح :

ـ ولكنك محموم يا فرانز .. آه يا صديقى ، انك لا تحافظ على نفسك المحافظة اللازمة .. وكل اعمالك فيها ضرر لك وايذاء بصحتك . . انك تنهك الجواد من كثرة الجرى بك ، حتى تتصبب عرقا ودون تغيير ملابسك المبتلة ، تذهب الى الاوبرا فى هذا الجو

البارد ... ثم بعد ذلك تحضر حفلات الرقص وحفلات العشاء .. حتى اذا ما عدت الى غرفتك ، رحت بدلا من أن تأوى الى فراشك وتستعيد قواك تشرب الاقداح المتتالية من القهوة ، وتسهر حتى الصباح . . . هل هذه أعمال قوم عقلاء ؟ . . .

خجل الدوق عند سماعه هذا الكلام وحنى رأسه وقال :

ـ لا تتهمنى كل هذه الاتهامات ، يا بروكيش . .

ـ ان ديترشستاين والدكتور مالفانى ، المسئولين عن صحتك ، يجأران بالشكوى منك ويبديان غضبهما عليك .. وهل من احد يلومهما فى ذلك ؟ ... انك ترفض العلاج بل وتتصرف على عكس ما يقدم لك من نصح .. لماذا كل هذا التشبث بأن تطلب من عقلك ومن جسدك اكثر مما يستطيعان ؟ ...

رد الدوق همسا وفى صوت حزين :

ـ اسمع يا بروكيش .. منذ بضعة شهور وأنا أرى أحلامى تتبدد الواحد بعد الآخر .. وكانت فرنسا أول ما أفلت من يدى ثم تبعتها بلجيكا .. وها هو تاج بولندا يتلاشى أمام عينى الآن .. ومع ذلك مازالت ترن فى اذنى الكلمات التى قالها لى جدى فى برسبورج فى شهر سبتمبر الماضى : « اذا اراد الشعب الفرنسى واذا وافق الحلفاء على هذا ، فلن اعترض على ارتقائك عرش فرنسا ... » هل كان صادقا فى قوله هذا ؟ ... أم لعله كان يكذبنى الحديث شفقة بى ورحمة ؟ آه يا صديقى .. ما أقسى القدر الذى يتعنت فى محاربتى .. من الذى يستطيع أن ينبئنى عما اذا كان الناس فى فرنسا مازالوا يفكرون فى ، وعما اذا كان لى هناك اصدقاء يعملون من أجل قضيتى ..

واندفع الأمير فى تفكيره وقد رأى بروكيش وسط هذا الحيز المظلم الذى يتقلب فيه صديقه شبحا خفيا متربصا ، هو شبح مترنيخ وكأنه العنكبوت الرابض وسط نسجه .

حقا لقد عرفت النمسا كيف تقيم حول ابن نابليون سياجا من الصمت والكتمان . ولقد ظل البونابرتيون فى فرنسا ثلاثة عشر عاما متوالية يحاولون فى كل سنة تقريبا اثارة المؤامرات وتدبير

الفتن . قاموا فى كل مكان باعمالهم هذه فى بوردو وفى ليون سنة ١٨٢١ وفى كولمان سنة ١٨٢٢ وعلى نهر البداسوا فى سنة ١٨٢٣ وقد حاولوا اثارة الجيش على أمل اعادة نابليون الثانى الى عرش أبيه . ولكن تلك المحاولات جميعها فشلت .. وفى كل مرة كانت تجرى المحاكمات الرنانة وتصدر احكام الاعدام ، تقضى على المتآمرين من غير ان تنال من جراتهم وشجاعتهم .. ولم تصل انباء هذه المآسى ولا انباء الضحايا التى ذهبت فيهـا الى علم دوق رايشستاد او تمنعه ..

او لم يحدث اخيرا ، فى نهاية نوفمبر ، ان ارســـل جوزيف بونابرت من ملجئه فى بوتيت بريز بالولايات المتحدة ، بالرسائل التى حملها ابن فوشيه الى مترنيخ والى الامبراطور ، يطلب اليهـما ان يعهدا اليه بابن اخيه ؟.. الم يقل فى هذه الرســائل انه يكفى ان يظهر نابليون الثانى بمفرده متشحا بالشريط ذى الألوان الثلاثة لتتم مبايعته فى الحال ؟.. ولكن جوزيف بونابرت لم يتلق على رسائله ردا . ولقــد حاول لوسيان بونابرت محاولة مماثلة ولم تفــز هى الاخرى بطائل كذلك قام مونتولون بنفس الشيء وفشــل ... ولم يصل نبأ اى من هذه المساعى والمحاولات الى علم دوق راشستاد.

التقط الأمير الكتاب الذى نام عنه والذى ســقط من فوق ركبتيه الى الارض. انه مذكرات انطومارشى . وفتحه عفوا فانفتح على وصية نابليون . فأغلق الشـاب عينيه وراح يتلو البند الرابع من الوصية وكأنه يتلو صلاة محفوظة : « اوصى ابنى بألا ينسى ابدا أنه انما ولد اميرا فرنسيا .. أوصيه بألا يصبح ابدا اداة فى يد الثالوث الذى يستعبد شعوب اوربا .. يجب عليه الا يحارب فرنسا ابدا والا يضر أبدا بمصالحها فى اى صورة كان الضرر . يجب عليه أن يتبع المثل الذى احتذيته دائما وهو « كل شيء من أجل الشعب الفرنسى » .

التقط انفاسه وقال لبروكيش :

ـ ها هى صلاتى التى أكررها كل يوم ... هذا هو مبدئى فى الحياة ... نعم ... مهما حدث لى ، سأبقى دائما اميرا فرنسيا ، واستجيب لما فرضه على القدر ...

وقع بروكيش على الأمير نظرة عتب على ما قال ، ولكن الأمير عاجله بقوله :

ـ لا تنظر الى هذه النظرة .. انى أعرف ما يدور في خلدك .. انك تنظر الى الحالة التى تنشب فيها الحرب بين فرنسا والنمسا أليس كذلك .. بربك لا تثر امامى هذا الاحتمال القاتل .. فهو احتمال لن نواجهه أبدا ولا أريد أن أضع نفسى فى موضع الخيار على انى قد اخترت فعلا .. فأنا أحس أن دم بونابرت فى عروقى أعلى صوتا من دم هابزبورج .. الم يحضر الى منذ ايام فى شونبرون ضابطان بروسيان طلبا مقابلتى فلم أسمح لهما بالمقابلة ؟ انهما من مواطنى بلوخر .. لقد مررت أمامهما من غير أن احييهما .. آه يابروكيش ، انت تعرف أشياء كثيرة ، هلا قلت لي كم من الوقت يجب أن أنتظر ؟.

ـ اصبر ، يا فرانز ، تمهل واستعد ، ستبلغ سن الرشد بعد سنتين ..

ـ بعد سنتين ؟.. من يدرى أين سيكون مقرى ؟ .

نظر الدوق الى زيه العسكرى وقال فى مرارة :

ـ لقد عينونى حديثا قائدا لفرقة ناساو .. ومما لا شك فيه أن هذه البذلة لن ترى الحرب أبدا .. ولكننى سوف أطلب فى وصيتى أن يحمل تابوتى وسط اول معركة حتى تنال عظامى الشىء الذى طالما تمنيته ، وهو أن اسمع صفير الرصاص من حولى ...

ابتسم بروكيش لهذا الكلام الصبيانى وقال :

ـ لا تغال يا فرانز . كن هادئا كما كان أبوك فى الليالى السابقة على انتصاراته الخالدة .. والى أن يحل اليوم المعهود سنعمل كلانا معا ، وسأعلمك كيف تكتسب الصبر وكيف تكتسب القوة ...

ارتمى الدوق وهو يبكى بين ذراعى بروكيش وقال :

ـ لا يوجد غيرك من أثق فيه ...ماذا كنت اصبح لولا وجودك الى جانبى ؟ لا تتركنى أبدا .. انت صديقى الوحيد ..

اخذ بروكيش يطيب خاطره ، وهو يفكر فى العصفور الصغير

يختبر اجنحته على الطيران،فاذا ما سقط على الأرض سقطة قاسية شك في قدرته على التحليق ... واستسلم لليأس ..

في أوائل فبراير انتشر نبأ ملأ القصر الامبراطورى فى فيينـا ذعرا وغضبا ، لقد اخذت الشعوب تثور فى كل مكان فى ايطاليـا وهبت ريح الثورة على امارات شـبه الجـزيرة تلفحها الواحدة بعد الأخرى .. وراحت التيجان تتدحرج وكأنها من سقط المتـاع الذى يلقى به بين المهملات .. وقفت فرنسا تشاهد فى فرح ظاهر انتصار حركة التحرير التى أيدتها سرا من قبل ، والتى تستعد لمساندتها علنا اليوم .

تحرك مترنيخ فورا وبقوة،وارسل الى الحكومة الفرنسية يقول لها أن عليها أن تلتزم مكانها والا فلديه الوسيلة التى يحمل بها لويس فيليب على التعقل وكان يقصد بذلك دوق رايشستاد .

يوم ١٩ من فبراير جاءت الأنباء المذهلة تقول أن بارما قد ثارت هى الأخرى وأن مارى لويز قد اضطرت الى الفرار فى الليلة مابين ١٤ و ١٥ من فبراير بعد ان هاجمها الشعب ، وانها التجـأت الى كريمونا أولا ثم الى بليزنسا . عندئذ طلب دوق رايشستاد أن يخف الى مساعدة أمه . ولقد كان الامبراطور على استعداد للسماح للأمير بما طلب لولا مترنيخ الذى ارتعدت فرائصه لمجرد التفكير فى احتمال ظهور الدوق فى وادى نهر البو . ولقد قال الوزير وهو يعترض على ذلك لدى الامبراطور : « حتى يجعلوا منه ملكا هناك ؟.. أمن أجل هذا تبعث به يا مولاى ؟ كى يسير على نهج أبيه ؟.. »

ولم يتمسك الامبراطور برأيه أمام هذه الاعتراضـات وراح الأمير يبكى من الغيظ ويقول : « ما أتعسنى واشقانى .. كم كنت أود ان أجرد سلاحى للمرة الأولى اكراما لأمى .. أليس من واجبى أن ادافع عنها واحميها ؟ » .

وكان الأمير ثائرا مضطربا وقد كتب الى مارى لويز يقول : « هذه هى المرة الأولى التى أطيع فيها الامبراطور كارها » وازدادت ثورته ولم يفلح بروكيش فى تهدئة أعصابه فكان يقـول له : « ان الوقت جد قصير .. وهو يمر مسرعا ، ومن الخطل أن نتركه يضيع هكذا ... »

وضاعت الفرصة فعلا ، اذ لم تلبث الجيوش النمساوية أن أعادت النظام فى المدن الايطالية . وظل الامبراطور يمنى حفيده بالعبارات المعسولة التى لا طائل وراءها . وكان يقول : « ... عندما تهل بطلعتك على جسر سترازبورج لن يظل دوق دورليان طويلا فى باريس .. آه يا فرانز ، لو كنت أكبر مما أنت ببضع سنين » .

بعد فترة الأحلام هذه عاد الأمير الى حالة الجمود التى كان يحياها من قبل .. لقد دار حول أسوار السجن المحيط به ولم يجد فيها منفذا يستطيع النظر منه الى الخارج .. فأخذ يرقب الحوادث ويصغى الى الأخبار التى ترد من وراء الحدود ، ويفكر فى الهرب .

ولم يثنه عن عزمه هذا ويحوله عن همومه وأحزانه ، غير ابتسامة امرأة ... فلقد كان للدوق زملاء ثلاثة هم رفاق الليل، وأصدقاء اللهو .. أولهم جوستاف نايبرج ، وثانيهم موريس استرهازى وهو دبلوماسى شاب يكبر الأمير قليلا ، وثالثهم ميجل وهو شاب سكير عربيد مغرم بالنساء . وكان الشبان الأربعة يترددون على الأوساط العليا فى فيينا ويتابعون أعياد المساخر « الكارنفال » التى امتازت هذا العام بالنشاط والجمال ولم يكن الأمير يتخلف عن حلبات الرقص جريا وراء الكونتيسة ناندين كارولى ، احدى زهرات المجتمع ، ومن نجومه اللامعة ، وكان موريس استرهازى قد قدمها له من قبل . ومنذ ذلك اليوم أصبحت الكونتيسة كل شيء فى حياة الدوق لا يراقص الا وهى ولا ينظر الا لها ، يعد البسمات التى توجهها له كما يعد البخيل قطعه الذهبية .

ولقد حاول بروكيش أن يقيه شر الاندفاع فى مثل هذا الغرام وكان يقول له :

ـ انها طائشة متقلبة سريعة التحول .. وستسبب لك آلاما.

فى احدى امسيات شهر فبراير حضر دوق رايشستاد ومعه كونت استرهازى ، وهما فى ثياب المساخر ، احدى حفلات الرقص التنكرية . وكانت ناندين فى الحملة ولكنها غادرتها مبكره نتحيى

حفلة أخرى اقامتها في قصرها الخاص . وقد تبعهـــا الدوق واسترهازى الى هناك بعد أن أخفيا وجهيهما وراء قناع، واختلطا بالمدعـوين الذين لم يفطنوا لشخصيتهما . وراح الدوق طـوال الليل يراقص ناندين لم يتركها لحظة ، وجلس الى جوارها على مائدة العشاء وشرب النبيذ المعتق من كأسها ، وظل نشوان من الموسيقى والعطر والحب حتى الصباح .

وعندما أراد الدوق الاستئذان في الانصراف ، شـاء القدر أن يكون هو والكونتيسة فى الغرفة بمفردهما وقد سادت العتمة. وفجأة أحس الدوق بيدين تمسكان برأسه وبأصابع طويلة تسرح بعصبية فى شعره المبتل من عرق الرقص ، فتخلخلت ركبتاه وانهار ، وأحس بدمائه كلها تمتص من جسـمه ، فـراح يتمتم باسـمها « ناندين .. ناندين .. » بينما انفلتت هى من قبضـة ذراعيـه واختفت بعيداً عنه .

وكان النهار قد ملأ الكون عندما غادر قصر ناندين ، وعاد الى هوفبورج وهو يتوجس خوفا . ما الذى سوف يقوله القوم هناك عن غيابه الليل كله ؟. ولكن أحداً لم يتنبه الى هذا الغياب ... أسرع الدوق يروى القصة الى بروكيش بعد أن أخفى عنه خاتمتها . ثم قال له :

ـ لقد اكتشفت اليوم اكتشافا ثمينا يا صـــديقى .. اذا ما عزمت على الفرار يوما من هذا المكان ، فلن يتنبه أحد الى غيابى الا فى اليوم التالى .. وفى اثناء هذه الفترة اكون قد ابتعدت كثيرا ولا يستطيع أحد اللحاق بى ..

وكان بروكيش يحارب فى صديقه كل اتجاه نحو فكرة الهرب. ولذلك اجتهد في تحويل الحديث وجهة أخرى . واخـذ يؤنب صديقه على هذا التهور فى الحب ولكن الدوق أخذ يدافع عن نفسه قائلا :

ـ أليس من حقى ان أحب وان احب ؟. الم يعـرف ابى هو الآخر الغرام والحب ؟. ان جدى لم يمنعنى من ذلك وانما اكتفى بتحذيرى من أخطار الزنا فقط .

ـ اعلم يا فرانز ، ان الكونتيسة ليست المرأة التى تصلح لك ، فانت ما زلت صغيرا لا تقوى على الاقتراب من أخطار مخلوقة كهذه .. على ان الحياة ما زالت أمامك طويلة .. ويجدر بك الا تفكر الآن الا فى التعليم وفى تنمية الذهن وفى توسيع نطاق معلوماتك ..

ثم نظر الى الدوق وقال له :

ـ انك ملك للتاريخ ، يا فرانز ، فلا يليق بك أن تجعل من حياتك قصة .

وعد الدوق بمباعدة زياراته لناندين . ولكنه لم يف بالوعد وظل يقابلها ويكاتبها . ولكن حدث فى شهر أبريل ان بعث استرهازى الى نابولى ليشغل فيها وظيفة دبلوماسية فحرم بذلك الدوق من الصديق الذى كان يدبر له المقابلات مع الكونتيسة ، فكف عن الذهاب اليها ، وان كان لم يكف عن مكاتبتها سرا . وكان صديقه استرهازى يسهل له تبادل الرسائل معها ، بعيدا عن رقابة المشرفين وكان يكتب له : « ما الذى يحول بينك وبين أن تسعد وتهنأ ؟ . لا تتردد .. اقدم .. انها تهواك .. » ولكن الرقابة على الأمير الشاب كانت مشددة ولم يكن يقابل ناندين الا فى الاجتماعات العامة ـ وفى أواخر ابريل كتب لصديقه يقول انه لم يستطع تخطى عتبة الدار التى قدر له « ان يذوق فيها كل الهناء .. » .

وعلى الرغم من الاحتياطات التى اتخذت والتكتم الذى احاط بهذه العلاقة انتهى الأمر بالكونت ديترشستاين الى الشك فى وجودها . وفى احدى أمسيات شهر يونية فاجأ الشاب الكونت ديترشستاين وهو يفتش فى أدراج مكتبه فثار لهذا العمل المهين وقال له :

ـ عما تبحث هنا يا سيدى ؟.

كان ديترشستاين قد وصل الى احد الأدراج فوجده مقفلا بالمفتاح فقال :

ـ ما الذى يحتويه هذا الدرج ؟.

ـ خطابات ، ذكريات ، أشياء لا تعنى أحدا غيرى ...

ـ إفتحه ...

ـ كلا يا سيدى لن أفتحه ..

ـ انني سأنادي أحد النجارين ، والا سأحطم هذا الدرج ..

وارتفع النقاش بينهما ، وأخيرا خضع الدوق وفتح الدرج ، فأخذ منه ديترشستاين رزمة الرسائل .. انها الرسائل المتبادلة مع استرهازي .. وراح المربى يقرؤها وفجأة لفتت نظره كلمة وردت فى احداها : « نعم أقابل الصينى .. لم أتلق أخبارا من الصين ... » فعبس وقال غاضبا :

ـ من هو هذا الصينى ؟. امرأة ؟. أليس كذلك ؟.

امتقع لون الدوق وشد على أسنانه ولم يجب بشىء وكان ديترشستاين قد عرف السر فاستشاط غضبا وقال :

ـ ما شاء الله .. هأنتذا تكتب رسائل الغرام الآن .. ؟

وأجاب الشاب ببرود :

ـ طبعا .. وهل تدرى لمن أكتب ؟.

ـ أتكتب لها مباشرة ..

ـ كلا .

ـ اذن تكتب لها عن طريق وسيط . هل أعرفه ؟.

سكت الدوق وازداد غيظ المربى لعجزه عن التغلب على عناد تلميذه فراح يلقى بألفاظ التهديد والشتائم وارتفع صراخه وما أحدثه من ضجيج حتى امتلأت الحجرة بالخدم فقال الدوق :

ـ بالله عليك .. اهدأ .. الا ترى اننا لسنا بمفردنا ؟ . انهم يسمعون ما نقول . سأقدم لك هذه الرسائل قريبا .. انى أعدك بذلك ..

استعاد ديترشستاين هدوءه . وبعد برهة من الزمن كان يمسك بالرسائل التى قدمها له الشاب . فألقى بها فى المدفأة وأوقد فيها النار .. وارتفع اللهيب عاليا ...

نظر دوق رايشستاد الى الأوراق وهى تتلوى وسط النار ، وكأنما تحاول عبثا الفرار من المصير المحتوم . نظر اليها وامتلأت عيناه بالدموع ، هذا هو حبه الأول ، لم يبق منه غير حفنة من الرماد ، يتصاعد منها دخان رقيق لم يلبث أن تبدد من غير أن يترك أثرا ...





٣١

وقف دوق رايشستاد ينظر من النافذة المفتوحة على حدائق قصر شونبرون وقد كساها الربيع ، واشاع الخضرة فوق الخمائل والربى وحول أحواض المياه ونشر النضرة فى أوراق الحور والكافور ومختلف الأشجار . ولكن قلب الأمير لم يطب لهذا المنظر الرائع الممتد امام عينيه .. وراح يتثاءب ويتمطى ولم تكن المنضدة التى يجلس اليها عادة محملة بالكتب والأوراق المبعثرة ، وانما كان كل ما عليها مصفوفا .. الأوراق والكتب التى قرأها أخيرا مع بروكيش .

تنهد الشاب وقال :

ـ لشد ما أوحشنى بروكيش .

لقد اخذ يشكو الملل منذ أن فارقه بروكيش .. لقد انقضى الشتاء وهما لا يفترقان حتى ساعة متقدمة من الليل فى القراءة والدرس وتوثقت بذلك الصداقة بينهما .. ولكن هذه الصداقة اثارت شكوك مترنيخ .. انه يخشى أن يدفع بروكيش بصديقه الى التهور ، فيأتى عملا يفسد السياسة التى رسمها . فسعى جاهدا الى التفريق بين الصديقين ..

كان أول شىء فعله مترنيخ هو رفض الطلب الذى تقدم به

بروكيش للتصريح له بالسفر الى باريس . لقد ادرك مترنيخ أن الغرض من هذه الرحلة هو الحصول على المعلومات التى تطمئن الدوق الى قوة البونابرتيين هناك .

أراد بروكيش بعد ذلك أن يحافظ على الوعد الذى قطعه للدوق بألا يتركه والا يبتعد عنه ، فطلب العودة الى خدمة الجيش ولكن مترنيخ أصم اذنيه عن هذا الطلب، وقال لمن جاءه يسعى اليه:

ـ ان بروكيش هذا رجل غريب الأطوار واسع الاطماع ...

واخيرا قــرر الوزير التخلص نهائيا من بروكيش فأرسله فى مارس ١٨٣١ الى بولونيا كممثل للنمسا لدى اوبتروني مندوب الفاتيكان . وكان معنى ذلك أن يفترق الصديقان لمدة اشهر كثيرة.

وكان حزن رايشســتاد لهذا الفراق عميقا . وفى يوم ٣١ مارس كان الوداع وتبادل الصديقان التذكارات فقدم بروكيش الى الأمير بندقية البانية وقدم الأمير الى صديقه ســاعته ومعها رسالة قال فيها : « هى اول ساعة كانت لى ، ولم تفارقنى منذ أن كان عمرى ست سنوات .. ارجو أن تجد فيها ما ينبئك عن اللحظة التى تدق فيها ساعة المجد .. »

انقضى شهر منذ أن ســافر بروكيش ولم يتلق منه الدوق انباء بعد .. فاستسلم الى اليأس والقنوط .. انسان واحد فقط هو القادر على بث شىء من الدفء فى هذه الحياة الباردة .. وهذا الانسان هو صوفى .. انه فى كل يوم ينتظر بصبر فارغ اللحظة التى يتمكن فيها من الذهاب اليها .. كأنه التلميذ الذى يتحرق فى انتظار ساعة الانطلاق ..

دقت الســاعة العاشرة فالتفت الدوق والقى نظـرة فى المرآة اطمأن منها الى دقة ربطة الرقبة والى انسجام الشعر ، ثم توجه الى حيث تقيم الأرشيدوقة فى الطابق الأسفل .. وقد سلك اليها سلما داخليا يتيح له الوصول بعيدا عن أعين الحراس والخدم والوصيفات ..

دخل عليها فى الصالون فوجدها على البيانو تحاول فك رموز

احدى المقطوعات الايطالية .. اقترب منها وداعبها بأن أحاطها بذراعيه ، فتملصت وقالت :

ـ هلا تركتني حتى انتهي على الأقل من هذه المقطوعة ؟ .

فطبع على جبينها قبلة وقال :

ـ كلا . كلا ..

ـ انت انسان متوحش ، لا تطرب الا لدقات الطبول وصوت النفير .. اما حفلات الموسيقى الراقية فيغلب عليك النعاس فيها.

ـ لن أغزو العالم بصوناتا موزار ..

وقفت في مواجهته ، ونظر اليها في وضح النهار ، جميلة رقيقة في ثوبها المهفهف ذي الالوان الهادئة ، فبدت وكأنها روح الربيع التي تتراقص فوق خمائل الحديقة .

ابتسم لها وقال :

ـ ما أن انظر اليك حتى أحس بالراحة والهدوء ؟ وكأنما القى بأحزاني وهمومي عند باب هذه الغرفة قبل أن أدخل اليك .. يا حبذا لو ظللنا هكذا لا افترق عنك ابدا .

تفحصته في اهتمام ، فوجدته حسن الهندام كثير التأنق في ملبسه فزمت شفتيها اشمئزازا وقالت :

ـ أنك مزوق كأنك الفتى الفندور ..

ـ وهل لي غير الزواق عمل .. ان شغلي الشاغل الآن هو اللبس .. ها هو ذا ابن نابليون يصبح ملك ربطات العنق والعصي والمناديل ..

أمسكت بذقنه وسددت في عينيه نظرها وقالت :

ـ أرني عينيك .. لقد ابتعدت عن الرزانة والتعقل .. ها هو رأسك قد امتلأ مرة اخرى بالافكار المجنونة .

ـ لو لم أكن وحيدا كما انا لما عمرت راسي بكل هذه الأفكار التي تذكرينها .. وانت أدرى الناس بذلك ، يا صوفي .. تعلمين كيف نشأت بلا عطف ولا حنان ، بلا رفيق ولا زميل .. ان ذكرى

أبي كانت تبعد الناس من حولي كأنني اجرب .. وأخيرا كان لي صديق واحد مخلص ، بروكيش ، حرموني منه ..

ـ اصبر .. سيعود لك بروكيش ..

ولكن الدوق لم يكن يستمع اليها وانما استمر يقول :

ـ ما من صديق واحد اركن اليه .. هل قضي علي بالا يكون لي أحد .. حتى انت ياصوفي .. انت ملك لغيري .. انت زوجة رجل آخر .. والعطف الذي تقدمينه لي ليس الا عطفا مسروقا سرقته من غيري لتعطيه اياي .. هكذا كان حالي دائما .. لقد انتزعوا مني تاجي وملكي ، وحرموني من اسمي ومن وطني الحقيقي ومن أبي .. وعوضوني عن ذلك كله .. بماذا ؟ .. بأراض لن اضع يدي عليها أبدا ، وبلقب قد لا يصلح الا لأبناء المحظيات »

قالت الشابة :

ـ لا تكن ظالما ، يا فرانز .

ـ حقا ، لقد احاطتني عائلة امي بالبذخ والرعاية .. وهي بذلك قد تبدو ذات منة علي وفضل .. وكم يراني الناس حانثا جاحدا اذا ما انقلبت عليها يوما وانكرت يدها ؟ .. ولكن هل يكون السجن الا سجنا مهما طليت جدرانه بالذهب ؟ أنت ياصوفي ؟ تفهمين قولي هذا .. انت تدركين ما يجول في خاطري .. اي حياة تلك التي يعيش فيها الانسان تحت رقابة دائمة وتجسس لاينتهي ؟ لا تنسي يا صوفي انه في الوقت الذي أغلق فيه عيني لأنام يسارع خدمي الى تفتيش جيوبي وتهرع العيون الى البحث في أوراقي واشيائي .. لم يعد لي شيء أملكه حقيقة الا افكاري وما يدور في راسي ومع ذلك يحاول القوم كشف هذه الافكار والوصول الى مافي داخل رأسي .. اني في حاجة الى الانطلاق .. الى الحرية أنشدها كما ينشد الجائع الطعام وكما ينشد الظامىء قطرة الماء .. اني اختنق هنا ياصوفي أريد أن افر .. أريد ان اهرب »

انتفضت صوفي عند سماعها هذا الكلام ونظرت اليه في رعب وقالت :

ـ هل انت تفكر في ذلك جديا ؟.

ـ وهل ترين انى أمزح ؟ . لم أعد أستطيع الحياة في هذه الظروف .. يجب أن انجو بنفسي .

ـ انها فكرة طائشة .. ومترنيخ ؟ .. هلا حسبت له حسابا ؟.

ـ لم أعد احتمل اضطهاده لى .. خصوصا منذ أن اخذت زوجته تستثيره ضدى .. سوف أعرف كيف افلت من قبضة يده وابعد عن متناوله ، ثم بعد ذلك نصفى الحساب .. لو أن بروكيش أطاعنى لكان الأمر قد تم منذ زمن بعيد .. ولكنه فضل الانتظار الى أن تحين الفرصة المناسبة .

قالت صوفى :

ـ ولماذا لا تفضى بهواجسك هذه الى الامبراطور ؟ . أليست من بين حفدته جميعا اقربهم الى قلبه ؟.

ـ جدى .. حينما أكون معه يعدنى بكل ما اريد . بل ويوحى الى بالآراء التى لم تكن لتخطر لى على بال قط .. لقد طالما قال لى أنه لو تعلق الامر به وحده لكنت منذ زمن بعيد متربعا على عرش فرنسا .. فاذا ما اطل مترنيخ براسه انهارت الوعود وامحى كل شيء وقرر عكس ماسبق أن تعهد به .

ضمت صوفى يديها وقالت :

ـ لست انا التى ألومك على ما تفكر فيه ، يافرانز .. انت تعلم ما اكنه لك من عاطفة .. ولكننى ارتعد كلما تصورتك وسط هذه المغامرة القاسية .. فكر جيدا ، يا صديقى .

ـ لم أعد اطيق هذه الأوضاع .. أن حركاتى كلها موضوعة تحت المراقبة تصورى .. لقد وبخنى ديترشستاين منذ ايام توبيخا شديدا لأنه رآنى ادخن بجوار النافذة .. لقد منعنى مرة أخرى من ركوب الخيل .

وهنا أمسكته صوفى من كتفيه وهزته هزا عنيفا وهى تقول :

ـ أما هذه المرة فأنا أوافقه كل الموافقة .. يبدو انك فاخرت باقدامك على اجتياز ثلاثة فراسخ في مدى اربعين دقيقة .. الا

تعتبر ذلك من قبيل الجنون .. لقد رافقك البارون مولى فى هذه المغامرة وقتل جواده من شدة الاجهاد .

ــ لقد دفع له ثمن الجواد .

ــ ولكن هذا لا يبرر خطأك ولا يزيل شططك .. ما فائدة هذا التهور وهذا الاندفاع ؟ .. ما فائدته يا صديقى ؟.

ــ ان أقوى جسمى واستعد .

أخذت الشابة تفكر لحظة ثم قالت :

ــ يبدو لى انك تغيرت كثيرا ، يا فرانز ، منذ أن تقابلت مع المارشال مارمون ..

فأجابها الدوق فى أنفعال :

ــ لا تظنى ياصوفى أنى شعرت بأية عاطفة مفاجئة نحو هذا الرجل الذى خان ابى وتنكر له . لقد توصلت فى الحال الى فهم حقيقة نواياه ، وهو لم يوح الى قط بشىء لا بالثقة ولا بالمودة ... انه رجل طموح .. وهو يحاول أن يتعلق بأذيالى .. ولكن اذا أرتقيت العرش يوما فسأتركه يهوى فى الحضيض .. وهو على كل حال من أولئك الذين يحسن بالمرء الا يربط اقداره باقدارهم لأنه لم ينجح فى شىء قط .. فهو منحوس يجلب النحس لمن معه .

هزت صوفى رأسها وقالت :

ــ كان مترنيخ يأمل أن يكون لمارمون عليك سلطان وتأثير حسن .

ــ ها قد خابت آماله .. لقد استفدت من مارمون معرفة أوفى بفرنسا وبالفرنسيين .. لقد سلبت عقل الجاسوس ، وعرفت كيف استخرج الكلام من بين شفتيه .. وكان كلما استرسل فى الكلام انتظمت الحوادث فى الماضى ، واحتل الأشخاص مراكزهم الحقيقية الصحيحة وسط الحوادث والأشياء .. وبذلك تمكنت من سبر عمق الهوة التى فصلت ما بين ملك روما ودوق رايتشستاد .

ها هو قد انتقل فجأة من الضعف واليأس الى الحماس والاندفاع . أصبح شخصا آخر مملوء بالحياة وقال :

ـ صوفي ، يا صديقتي الطيبة ، أنا عـلى ثقة من أن ساعتي سوف تدق يوما .. سأظهر يوما على ضفاف الراين . فتقوم فرنسا كلها قومة رجل واحد وتهب لمقـابلتي سأسير والجيش يتقدمني والشعب يحيط بي .. ومهما حاول لويس فيليب أن يبعث بجنوده في مواجهتي فسيتبدد هؤلاء الجنـود أمام البريق المنطلق من كوكبي . وسيطير متنقلا بين أبراج الكنائس قافزا من برج الى برج حتى يصل الى نوتردام في قلب باريس .

أعجبت صوفي بهذا الكلام الحماسي ايما اعجاب وراحت تصفق بيديها :

ـ نعم يا عزيزي فرانز . أنا اتصـور ذلك أيضا .. وسيكون لي يوما عظيما .

ـ سوف اطـير الى باريس مرتديا بذلة رماة الحـرس .. وسيكونون جميعهم هناك وسيتعرفون عـلي ويصيحون « ها هو ذا . ابنه » وسيكون هنـاك بوتران ومونتولون ، ومارشان ، كل أولئك الذين أحبوه .. كل اولئك الذين لم يتنكروا له ولم يخونوه وسـوف يقدم جنود الحرس تحية السلاح ، وتعزف الموسـيقى سلام المارسييز .. وسوف يبـكي جنود الحـرس من الفرح ويضحكون من بين شـواربهم الرمادية والبيضـاء .. سأقف في وسطهم .. في وسـط رجـال أبي .. وأنادي القيصر وأنادي الامبراطور فرنسـوا وأنادي ملك بروسيا وأنـادي اوربا باسرها : « والآن .. تعالوا الي اذا استطعتم .. وخذوني » .

نظرت اليه صوفي وقد غلبها الحمـاس هي الأخرى .. لقد غلا الدم النابليوني في عروقه وتغلب على دمـاء هابزبورج . كما يتغلب النهر الطـافي على الجدول العكر فيطمس معالمه .. كان جميلا .. وكان الحلم العظيم يلمع ويتلألأ جبينه .. ويدفع ذراعية في انطلاقة كبرى كأنما يمسك بالوهم ليجعله حقيقة .

قامت صوفي واقفة وأخذته بين ذراعيها وقالت :

ـ سـترتقي العرش يا فرانز .. سـترتقيه .. وسأفقـدك عندئذ .. ولكنك سـتكون سعيدا .. وسوف تتقدم بي السـنون وأنا أقول لنفسي انني ساهمت بقدر في أعطائك الى فرنسا .





كان الدوق يتنزه مع صـــوفى كلّ يوم فى حدائق شونبرون المخصصة للاسرة الامبراطورية ، أو يمتطيان الجياد ويسلكان معا طريقا وسط الحقول ينتهى بهما الى الغابات الكثيفة أو الى الروابى المشمسة أو الى المروج الخضراء . وكانت الساعات التى يقضيانها معا سائرين متجاورين من أســـعد الساعات التى تمر فى سرعة الاحـــلام .

وكان الدوق وصوفى فى ذلك الصباح ، يسيران بخطى بطيئة فى طرقات الحديقة وكان سبتمبر فى نهايته والسماء فى زرقة زاهية والريح لا يحركها نسيم ، وهناك على البعد ضوء رقيق يرسم حدود الأفق فى وضوح . لقد كان الصيف فى فيينا يلفظ أنفاسه الأخيرة فى هدوء وسلام .

وكان الدوق يمسك بيده فرنسوا جوزيف الصغير ، ابن صوفى وقد تقدمت المرأة الشابة فى ثوبها الهفهاف الرقيق والقت على كتفيها شالا من شيلان الهند ذات الألوان الزاهية .. سألت صوفى صـــديقها :

ـ هل لديك أنباء من صديقك بروكيش ؟

ـ كلا .. في رسالته الأخيرة التي وصلتني مع ، لم يذكر شيئا عن عودته أتمنى أن تنتهي مهمته بسرعة وان يعود . أني ارتعد خوفا لمجرد التفكير في امكان قضاء الشتاء بدونه ، وفي مصاحبة هارتمان وستاندايسكي ومول .

ـ حقا انها لصحبة سيئة يافرانز مع هارتمان وستاندايسكي .

ـ انهم أناس ضيقو الأفق حمقى . ومع أن ديترشستاين كان قاسيا ومدققا الا أنه كان يحبني على طريقته ، وكان يفكر حقا في مستقبلي . أما هؤلاء فهم كالديدبان ، لديهم أوامر ينفذونها وليس لهم عقل بوجههم . لقد كان بروكيش عـــلى حق حينما قال انني بينهم كالجواد العربي الأصيـــل وسط حصانين من خيـــول الجر البوهيمية وحصان ايطالي مما يعلق في العربات .

في هذه اللحظة صرخ الطفل فرنسوا جوزيف وتوقف عن السير فقالت صوفي :

ـ لقد تعب من السير ..

فتناوله الدوق بين يديه والقى به جملة مرات في الهواء فعاد الطفل يضحك ويداعب ساعة الدوق وسلسلته ويحاول الامساك بهما فصاح فرانز .

ـ يا لك من طموح ... ها أنت تهوى منـــذ الآن كل ما هو براق .. لا شك انك خلقت لتصبح امبراطورا .

ثم التفت الى صوفي فوجد على وجهها نظرة جادة ، عجب لها فســـألها :

ـ فيم تفكرين ؟ .

نظرت اليه نظرة طويلة بعينيها الصافيتين اللتين زادهما الحب بريقا وقالت :

ـ بي شوق لأن يكون لي ابن يشبهك .

حتى جبهته ، فقد فهم الحلم الذى جال بخاطرها حينما رأته يداعب هذا الصغير ، لقد تمنت لو انهما كانا مرتبطين ارتباطا دائما وبينهما طفل من لحمهما ودمهما .

وصلا الى المبنى الصغير الذى به نبع شونبرون ، الذى سمى القصر باسمه ، .. وكان على النبع تمثال مرمرى لجنية من جنيات الماء ممسكة بجرة تتدفق منها المياه أشار الدوق الى التمثال وقال :

ـ ما أجمل هذا الجسم .. ما أروع الانحناءة .

عبس وجه صوفى وهى تقول :

ـ أتقول هذا لانها تشبه صديقتك الراقصة .

ـ صديقتي الراقصة ؟.

ـ نعم ، فانى السلر .

ـ ماذا تعنين من كلامك هذا ؟.

ـ انها جميلة ، ممشوقة القوام .. أليس كذلك ؟ .

ـ هل بك غيرة ؟.

ردت عليه الشابة وهى تكتم غيظها :

ـ هل من حقى أن أغار عليك ؟ .. أنت حر .. لك أن تفعل ما تشاء .. يقال أن هذه الراقصة خليلة لك .. فليكن ماتريد .. ولكن الذى يؤلمني هو انحدارك الى هذا الدرك .

نظر الامير الى الارشيدوقة في فزع وقال :

ـ ماهذه الفكرة الجنونية التي وضعت فى رأسك ياصوفى ؟. هذا كذب .. كذب .. أنا لا أعرف فانى السلر .. ولم أوجه اليها الحديث في حيـــاتى ابدا .. حقا ، لقد ذهبت مرارا الى الاوبرا لأشاهدها وهي تؤدى رقصاتها .. ولا شك انها جميلة .. وانها تعجبنى جدا كفنانة ، وفيما عدا هذا فهى لاشىء بالنسبة لى لاشىء بالمرة .. أقسم لك .. ولكن ، ما السبب الذى حملك على محادثتى في هذا الأمر الآن .. فى حين قد مضى على شــهران لم أضــع فيهما قدمى داخل احد المسارح ؟.

احست صوفى بالحرج فاحمرت وجنتها وقالت :

ـ بالأمس قال لى أحد أبناء خئولتنا ـ لا تسألنى من هو فلن أبوح لك باسمه أبدا ـ ان خادمك شوهد وهو يحمل رسالة غرام الى بيت فانى السلر .

وهنا رفع الدوق ذراعية الى السماء وهو يصيح !
ـ الآن فهمت كل شيء .. لقد كان ذلك منذ ستة اشهر مضت حينما كان بروكيش ما زال موجودا في فيينا .. كان يذهب كل مساء للعمل في صحبة جنتز عند مادموازيل السلر . فاذا أردت ان إبلغه رسالة عاجلة كنت أبعث اليه بخادمي عند الراقصة ومعه الرسالة .. وكان الخادم بطبيعة الحال يتخفى لكيلا يكشف جواسيس مترنيخ أمره ..

ـ هل ماترويه لي الآن صحيح ؟.

ـ وهل تظنين في الكذب ؟.. على ان فاني السلر ليست في حاجة الى .. انها خليلة جنتز . وهو يغار عليها جدا ويغمرها بالذهب ..

ثم أراد ان يطمئن خاطر صوفى تماما فقال لها :

ـ هل تعتقدين حقيقة ، ياصوفى ، أنى أستطيع ، بالمائة فلورين التى تعطى لى كل شهر مصروفى الخاص ، ان أنفق على راقصة مثل فانى السلر ؟.

هزت صوفي قواقع شعرها الجميل التى تحيط بوجهها وقالت :

ـ وهل أنت فى حاجة الى المال ، يافرانز ، لتفوز بحب .. النساء ؟ انهن يطلبنك لنفسك .. مثل تلك الراهبة البولونية .

ـ هذه البولونية جملة بلاشك ولكنها خرقاء .. فلا اخطو خطوة في الحديقة الا ووجدتها أمامي .. اظنها مجنونة بعض الشيء ...

ـ انها مجنونة بك ، يافرانز .. وتكتب الك الرسائل ...

ـ التى لا أتلقاها .. ان ستاندايسكى يقوم فى هذه الناحية بعمله كجاسوس على خير وجه .. سأهنئه على نجاحه هذا ..

ـ منذ أيام وصلت احدى هذه الرسائل الى يدالامبراطور الذى أراها لشقيقتى وقد حدثتنى هذه عنها .. انها تشبهك فيه بالنسر الذى ربى فى حظيرة الدجاج ..

ـ أنه تشبيه صادق ، أليس كذلك ؟.

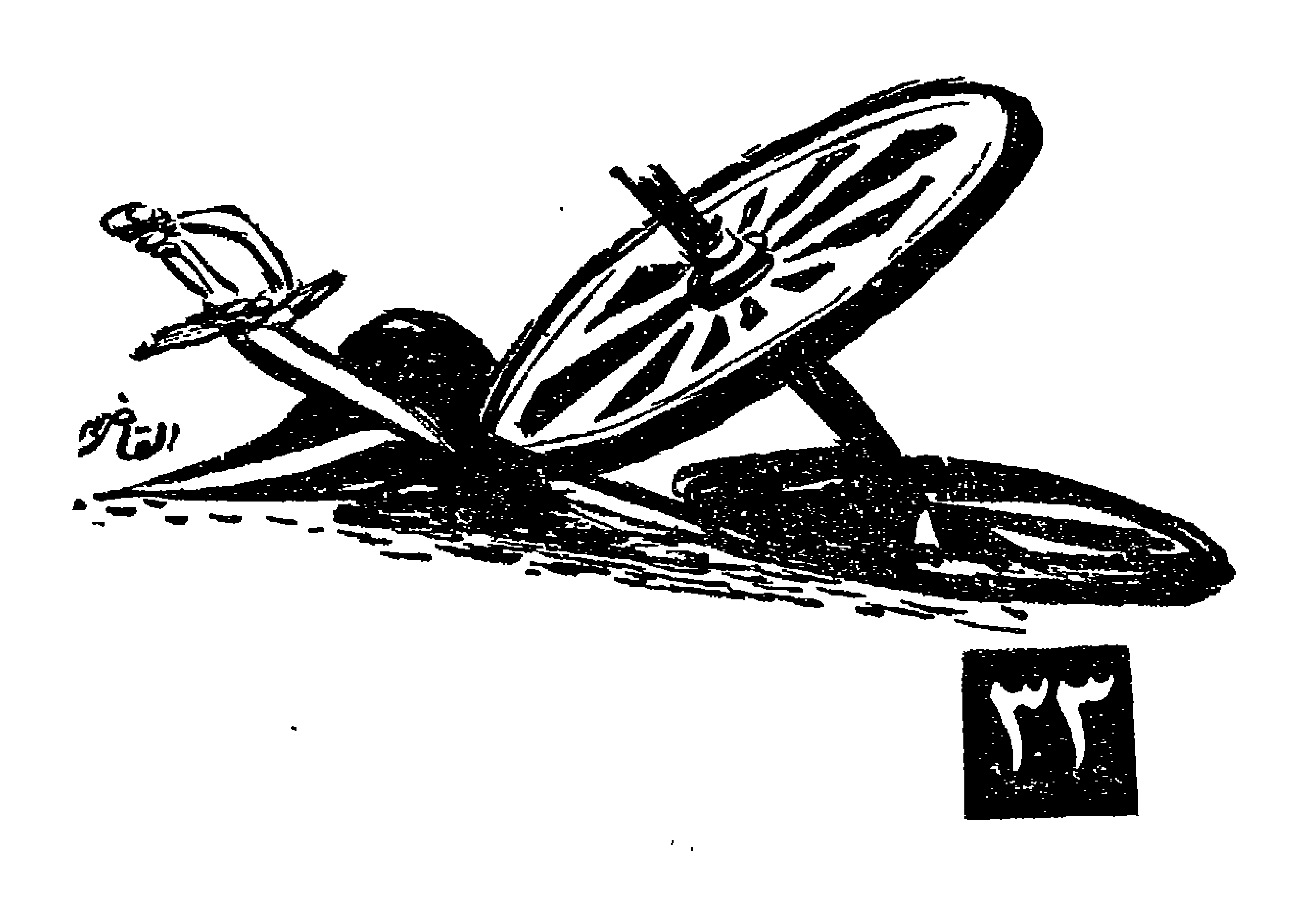
دقت صوفى الأرض بقدمها غضبا وهي تقول :

ـ يكفي أن تنظر اليهن وانت تتكلم .. كلهن سواء .. ان عيونهن تشع ضوءا كالنجوم اللامعة ..

تنهد الدوق وقال فى سخرية مريرة :

ـ جمال وبؤس .. هل من امرأة تستطيع أن تقاوم كل هذا السحر ؟ .

جلسا الى مقعد متجاورين وراح الطفل يلهو عند أقدامهما فى الرمل .. وماء النبع يغنى أغنيته التى لاتنتهى .. وبدت أشعة الشمس وكأنها قاربت مابين رأسيهما ..



٢٣

في نهاية شهر سبتمبر ، تلقى دوق رايشستاد مفاجأة سارة. فقد نبىء فى احدى الأمسيات أن هناك من يستأذن فى الدخول عليه . واذا به يرى أمامه بروكيش .. تعانق الصديقان طويلا .

ـ مستحيل .. هذا انت هنا ؟ .. ماكنت أتوقع ان اراك الآن .

وراح الأمير يسأل القادم عن الحالة فى ايطاليا وفى فرنسا. هل سيلتقى قريبا بلويس فيليب بعيدا عن العرش ؟ . ماذا يقول الناس عن نابليون الثانى هل هناك ماينبىء عن استعداد انصاره لدعوته الى الحضور ؟ ..

وكان بروكيش يحاول جاهدا تهدئة هذا الحماس الذى لااساس له خوفا من أن تصدم الحقيقة قلب صديقه المندفع فيصيبه من الصدمة أذى .. لالم يكن حقيقيا ماأبلغ الى الامير من انه يكفى ان يظهر بطلعته فى ايطاليا لتثور ايطاليا كلها. لا ، وليس حقيقيا ان لويس فيليب فى فرنسا يجلس على القتاد والشوك .. لايمكن التفكير فى امكان عزل لويس فيليب قبل سنتين أو ثلاث سنوات ، والى ان يحل هذا الأجل يجب على الامير ان يبقى هادئا ويداوم الاستعداد .

ولكن بروكيش استطاع الحصول على بعض الدلائل ذات المغزى لقد لاحظ ان الشعب الفرنسي ينقسم الى جمهوريين وبونابرتيين .. وقد حدث منذ بضعة شهور أن سار عشرة آلاف عامل فى شوارع باريس وهم يهتفون : « يحيا نابليون الثانى » أما فى القرى فالكل يصلى من أجله ، واما فى المدن فالكل يذكر اسمه فى تأثر ظاهر ..

كان الدوق يستمع الى حديث صديقه وكأنه يستمع الى هذه الملايين المجهولة من القلوب تدق من اجله والى هذه الأصوات الصديقة تناديه ..

ولكن الحماس الذى أثارته فيه عودة بروكيش لم يدم طويلا .. اذ راح أفراد حاشيته عن طريق الأنباء التى ينقلونها اليه يصورون له الوضع فى صورة يائسة قاتمة .. لقد فوت عليه مترنيخ كل الفرص وسيعمل على استمرار حرمانه من كل شىء .. لقد أخمدت الثورة التى نشبت فى بولندا ، وهزم الوطنيون فى ايطاليا وكفوا عن حركاتهم واختارت بلجيكا ملكا لها الأمير ليوبولد ساكس كوبورج ؟ أما عن لويس فيليب فان مركزه يزداد كل يوم صلابة ومتانة على عرش فرنسا ..

لقد عرف لويس فيليب ، الذى أطلق عليه اسم « ملك المتاريس » كيف يهدىء من ثائرة البونابرتيين ويتقى شرهم .. وكان فى ذلك ماهرا . أعاد اقامة تمثال نابليون فى وسط ميدان فاندوم فى باريس وبذلت حكومته العون والتشجيع لكل من قام يمجد العهد النابليونى بالغناء أو التصوير أو الأدب .. وهكذا دخل الامبراطور الى عالم السيرة والقصص ، ففقد القدرة على الارهاب ، وزال عنه كل ماكان يوحى به من خطر .

واذا كان نابليون الثانى ما زال باقيا ، فقد تكفلت الصحافة وتكفل المسرح بالعمل على تجريده من كل اعتبار فى نظر الشعب ان الصورة التى تذاع عنه هى صورة انسان ضعيف عاجز ، صورة أمير المانى فاقد الشهامة والكرامة ولا يرجى منه نفع لفرنسا ..

وكان الدوق يطلع على كل هذه الأوصاف فى جرائد باريس التى تصل الى يده . ولم يكن يدرى أن فى تلك الفترة عاد مونتولون

انما عاد عماه جيرون وجوزيف بونابرت يسمون عبثا لدى مترنيخ لاطلاق سراح النسر الصغير واخراجه من القفص .

وفي احدى زياراته اليومية لاحظ بروكيش الانقباض المخيم على الدوق واليأس المستولي على تفكيره فسأله :

ـ ماخطبك ؟..

ـ لقد وقفت في النهاية على حقيقة مايدور في خلد الناس في فرنسا عني .. لقد وجدت اليوم فوق منضدتي هذا الكتاب.. انه من تأليف مسيو تيير ويتحدث عن ملكية يولية .. أقرا هذه الفقرة يا بروكيش ..

اخذ بروكيش يقرأ :

« لم يكن نابليون الثاني يحظى الا ببعض الذكريات المبعثرة هنا وهناك بين مدننا وقرانا ! والمجد الهائل الذى أحرزه أبوه لم يعد اليوم غير قوة تصورية في الخيال .. وليست تحكم البلاد بمثل هذه الأدوات الواهية .. التي لا يمكن أن تجد قبولا لدى أحد .. » .

سأله الأمير بعد أن انتهى من القراءة :

ـ مارأيك ؟.

نظر اليه بروكيش فوجده في حالة من اليأس والقنوط لا يمكن الرضا عنها ، فأراد أن يحرك فيه الحماس والأمل قال :

ـ ماهذا يافرانز ؟.. وما الذى غيرك الى هذا الحد ؟ أين الشعلة المقدسة الجميلة التي طالما حركتك في الماضي ؟ كيف ؟ .. اهكذا تنهار سريعا أمام بضع كلمات كتبها رجل من رؤساء الأحزاب لخدمة أغراضه السياسية ؟ هل هذه هي الطريقة التي سوف تفرض بها ارادتك على القدر ؟ .. اما انا فقد أحضرت لك كتابا ظهر حديثا من تأليف مسيو دي شاتوبريان ..

فاعترض الدوق قائلا :

ـ شاتوبريان ؟.. انه مازال الخصم العنيد الذى يهاجم أبي ..

انه متطرف حقا ، ولكنه مع ذلك لايخلو من دوافع العدل والشرف . اسمع ياعزيزى فرانز ، هناك مشروع قانون مقدم الى

مجلس النواب بنفى البوربونيين والبونابرتيين خارج البلاد .. وانت رأس البونابرتيين .. فهل يعنى ذلك انك منسي تماما في فرنسا ؟.. هل يدل ذلك على ان لويس فيليب لايخشاك ولا يحسب لك حسابا؟ اسمع ما كتبه شاتوبريان ..

وفتح بروكيش الكتاب وراح يقرأ :

« ان الشرف الذى أضفاه الأجداد على دوق بوردو قد استمده دوق رايشستاد من اسم أبيه ومن مجده ، وهكذا حقق نابليون بمفرده كل ما كدسته الأجيال المتعاقبة من أمجاد وشرف » .

ثم قال بروكيش :

ـ واسمع مايقوله شاتو بريان عنك « لقد أخذ الماضي عن أمه واخذ المستقبل عن أبيه .. وكانت الأجيال الكثيرة تملأ فرنسا كلها ممن اقسموا بالولاء لنابليون الأول . . فما كانت مبايعتهم لنابليون الثاني الا استجابة لايمانهم التى ادوها من قبل . . وكان الجيش تواقا الى ابن البطل ، فخورا بأن يرحب بين صفوفه بسليل النصر .. » استمع الدوق الى ماقرأه صديقه ورأى فرنسا كلها تنصت اليه فعادت اليه أنفاسه فجأة طليقة قوية ، واحس بالدماء تسرى فى عروقه حاملة الثقة والايمان الى قلبه وعادت أحلام الجرأة والاقدام تعمر راسه . . قال :

ـ ماأعظم ماطمأنت قلبى وارحتنى ياصديقى ..

ـ اقرأ هذا الكتاب من أوله الى آخره يافرانز . اقرأه بتمعن وستجد بين دفتيه نصائح غالية تفيدك وتفيد دوق بوردو أيضا .

وأخذ بروكيش يواصل حديثه برهة . ولكنه لاحظ فجأة أن الدوق لم يكن يصغى لما يقول وانما شرد تفكيره ، وشخصت عيناه وراح يقلب فى صفحات الكتاب بلا انتباه . . نظر اليه بروكيش فى قلق ، فكثيرا ما ينتقل الدوق فجأة من الحماس والاندفاع الى الخمول واليأس القاتل ، فيكون ذلك ايذانا بالعلة فتوقف وقال :

ـ فيم تفكر ، يافرانز ؟.

تنبه الدوق فجأة على صوت صديقه وقال :

ـ افكر فيما كتبه شاتوبريان عن ماري لويز « أخذ الماضي عن أمه » حقا انى لم آخذ منها غير الماضى ، وا أسفاه . انى أقارن بين هذه الكلمات وبين ما قاله نابليون أمام لاس كازيس فى احد أيام الآحاد من شهر مايو سنة ١٨١٦ : « لو أننى رزقت بولد من جوزفين لكان لى هذا الولد نفع كبير وهنـــاء عميم .. ولكنت حتى اليوم متربعا عـــلى العرش .. لأن الفرنسيين كانوا سيتعلقون به كما تعلقوا بملك روما ، ولما سعيت بظلفى الى تلك الهاوية المهلكة التى أضاعتنى بما نصب عليها من فخاخ مزوقة بالزهور » .

ومسح الدوق ببطء على جبهته وعاد يقول :

ـ أى شعور تريدنى أن احمله لماري لويز ؟ .. لو أن جوزفين كانت أمي لما كان ابى اليوم مدفونا فى سانت هيلانة . ولما كنت انا الآن فى فيينا .. آه ، أن ماري لويز طيبة القلب حقـــا ، ولكنها ضعيفة .. لا ، لم تكن الزوجة التى يستحقها .

وفجأة انخرط فى البكاء وارتمى بين ذراعى بروكيش يدفن فى صدره وجهه المبلل بالدموع ، وشعر بروكيش بالاحراج ولم يدر ماذا يقول ليهدىء من روعه . وفجأة تراجع الامير الى الوراء ووضع يديه على كتفى صديقه ونظر اليه محدقا وقال :

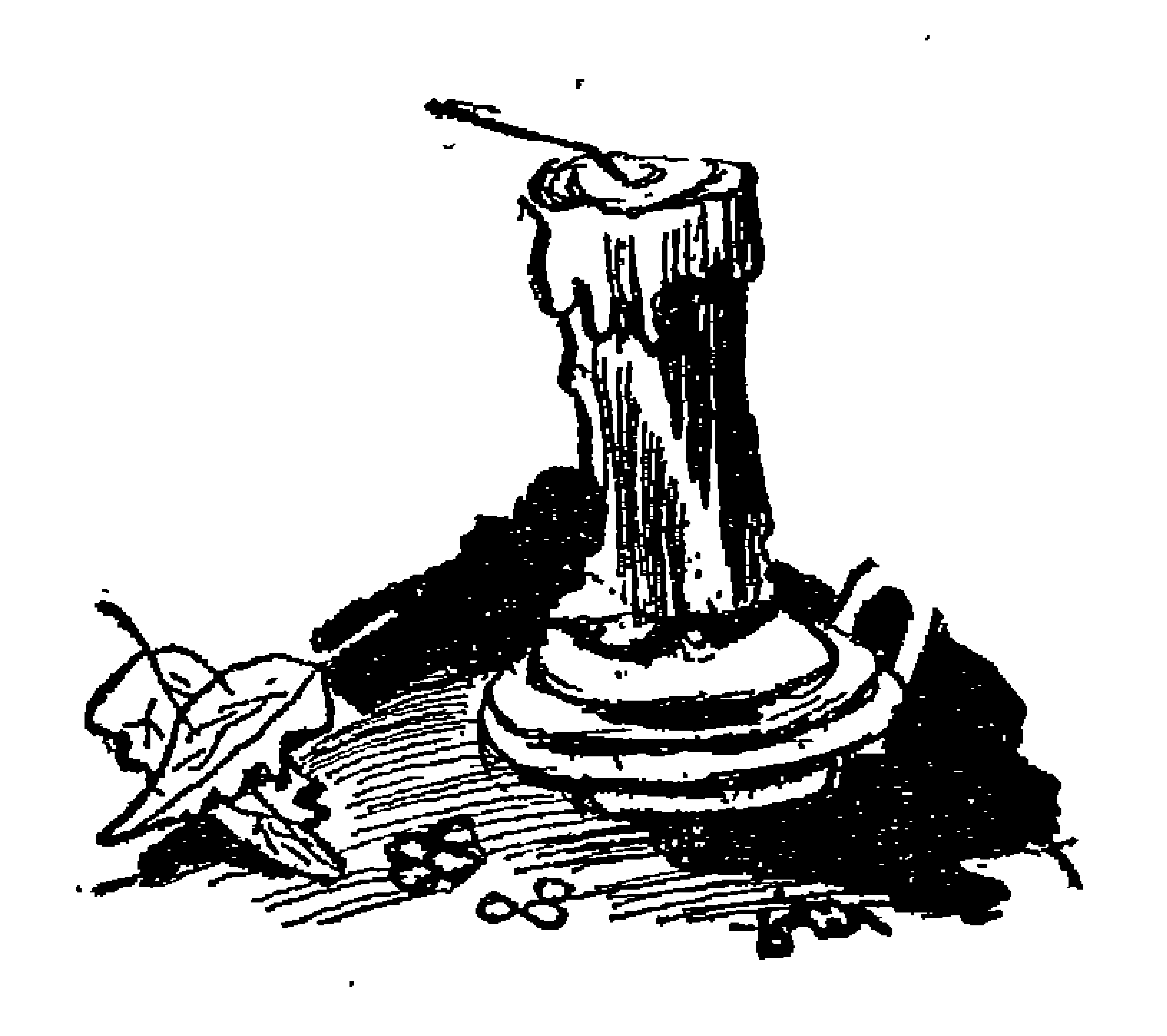
ـ قل لى ، أليس صحيحا أنك لا تكن لها احتراما ولا تقديرا ؟ .

احرج هذا السؤال بروكيش فراح يتمتم قائلا :

ـ لقد قدر لها ما كان .. حقا انها لم تكن الزوجة التى تليق به .. ولكنه هو الذى اختارها .. وهى .. على كل حال .. أمك ..

وساد صمت طويل واخيرا قال الدوق بصوت مكتوم :

ـ صحيح .. انها أمى .. ولقـــد كنت أود لو استطعت أن أحبه كما احببت أبى .. ولكننى لم استطع .. لا .. لم استطع .





٣٤

١٦ من نوفمبر ١٨٣١ ، ترك دوق رايشستاد قصر شونبرون وعاد الى فيينا لقضاء الشتاء فيها . انه يسعل ويبدو منهوك القوى لقد أصر على المشاركة فى جميع حفلات الصيد التى أقامها البلاط وكان يصحو قبل شروق الشمس ويلقى بنفسه وسط الضباب البارد غير مبال برئتيه الضعيفتين . وكان يستمر فى مطاردة الفريسة حتى تخور قواه وتعاوده الحمى .. ولكن خوفه من تأجيل موعد خدمته كان يحمله دائما على الادعاء بأن صحته على خير ما يمكن أن تكون .

وعاد فى هوفبورج الى حياته الرتيبة ، فى مواجهة آماله العاثرة ومستقبلة المجهول . وكانت الساعات تتوالى متشابهة لا يبهجه فيها الا ما توفره له المقابلات القليلة المتباعدة مع صوفى ، وأمسيات الدرس والاستذكار مع بروكيش .

ولقد ازدادت حاجته الى صديقه ، .. غير أن حاشيته أخذت تثير فى قلبه الشكوك والتوجس من ناحيته ، وتدخل فى روعه أن بروكيش ليس الا جاسوسا فى خدمة مترنيخ .. ولكنه لم يكن يصغى الى هذه الدسائس .. فقد كان واثقا من صديقه وكان يستقبله مادا اليه ذراعية وهو يقول :

ـ ان هؤلاء القوم لا يعرفونك .. أما أنا فاعرف من أنت جيدا
آه .. يا صديقي لو علمت كيف يؤلمني أن أسمع عنك هذه النميمة القذرة .

وكان بروكيش يهز رأسه ويقول في هدوء وكبرياء :
ـ لا يعنيني ما يتقول به هؤلاء الاوغاد ، يا فرانز ، اننا نعرف لانفسنا حقيقة اقدارها .

كانا يحلقان معا بعيدا عن هذا الطين ، في جو من المودة الصافية ، والصداقة الطاهرة . ينظر كل منهما الى عيني صديقه فيكشف عما يدور في قرارة نفسه .

وكان الدوق كثير الشكوى من جهل أفراد حاشيته العسكرية وعدم كفايتهم وكان كل يوم يمر يأتي بدليل جديد على ضعف الضباط المحيطين به فيقول لبروكيش :

ـ هل رأيت اصناف الرجال الذين من حولي ؟ أهؤلاء هم الذين يقدمون الى المثل الذي احتذيه ؟ .

واذا رآه بروكيش على هذه الحال من الأضطراب واليأس ، رأى أن يشغله بشيء يصرف عنه هذا الانطواء . ولم يجد غير الحب كفيلا بأن يخفف شيئا من الآم صديقه . ولكن الاختيار لم يكن ميسرا .. اذ المرجو هو العثور على امرأة ذات ذكاء وفطنة قليلة الاطماع والطموح ، يستطيع الدوق أن يجد الى جوارها شيئا من النسيان .

وقد كان الدوق في هذه الفترة كثير التردد على دار الاوبرا حيث لفتت نظره فنانة شابة كانت في بداية عهدها بالتمثيل . وكان اسمها تيريز بيش .. وكانت جميلة منسقة القوام ذات سمعة لم يتقول عنها أحد . وقبل أن يقوم بروكيش بالمسعى اللازم لديها زارها الدوق وبصحبته نايبرج ، فكان في استقبالها اياه وترحيبها به عن التكلف والتصنع والزلفى ما جعله يعتقد أنه وقع في فخ نصب له .. فانصرف عن الممثلة الجميلة ولم يعد اليها بعد ذلك أبدا .
وفي هذه الفترة أحس الدوق بعاطفة قوية نحو الكونتيسة بيزاني ذات البشرة العاجية والعيون السوداء . وكان يقال أن

زوجها اشتراها وهى صغيرة السن من احدى قبائل الغجر الرحل ونشأها تنشئة القصور ليتزوجها عند بلوغها سن السادسة عشرة . فقد كانت جميلة محاطة بالاسرار . وقد رآها رايشستاد مرات وراقصها أحيانا . وكان الناس ينظرون اليهما وهما يرقصان معا الفالس فى انسجام بديع . وقد رأى الكونت بيزانى ، زوج الحسناء ان من الخير له أن يلتمس لنفسه مهمة يقوم بها فى خارج البلاد . وفى احدى السهرات لم يجدها الدوق كالعادة ، واذ سأل عنها وعلم برحيلها مع زوجها ، اكتفى بأن هز رأسه وقال فى حزن ومرارة : « هل كتب على أن يفلت دائما من يدى كل ما أود الابقاء عليه » ؟.

لقد اصبح الدوق يكاد لا يلتقى بجده على انفراد كما كان يفعل من قبل فلم يعد لدى اى منهما ما يسر به الى الآخر . وقد أخذت الهوة التى تفصل بينهما تتسع يوما بعد يوم .

وقد قال رايشستاد يوما للامبراطور :

ـ لو كان أبى على قيد الحياة الآن ، لعملت كل مافى وسعى لاعادته الى فرنسا ..

فرد عليه الجد قائلا :

ـ ويكون الحق كله بيدك يا بنى .. وربما كنت عاونتك بالمال .. لا أقول علنا .. ولكن فى الخفاء ..

وكانت هذه الكلمات تظهر بجلاء مافى روح هذا الشيخ الهرم من جبن وتقاعس .. وكان الدوق رايشستاد يعلم تمام العلم أن لا شىء يمكن أن يأتيه من جده ولا من أسرته النمساوية كلها . ولم يعد أمامه غير منفذ واحد .. الفرار ..

وبعد لأى قبل بروكيش أن يصحبه فى مغامرته. استعدا للامر ولم يعودا ينتظران غير الفرصة المواتية ، يقدمها لهما حدث خارجى مأمون . وكان بروكيش يقول :

ـ ننطلق فى احدى الامسيات ، ونخترق التيرول ، ونذهب الى روما لنحتمى عند أم نابليون مدام لوتيتيا .

وظل الدوق يتفقد الأفق بحثا عن الفرصة المناسبة للانطلاق إلى المغامرة الكبرى .

***

امسك بيدى صوفى وقال لها وفى عينيه ذلك البريق المعين :
ـ هل علمت أنى سأتقدم يوم ٩ من يناير لاجراء الكشف فى هوفبورج ، من أجل استلام العمل فى فرقة الحرس .
وكان بادى السرور للنصر الذى حققه بعد أن حاصر جده محاصرة عنيفة حتى حصـــل منه على الأذن له بالعودة الى العمل برتبة كولونيل فى فرقـــة فازا . وكان يتحرق شوقا الى ارتداء بذلته العسكرية والظهور بها .. قال لصوفى :
ـ هل ستأتين لمشاهدتى ؟.
ـ أعدك بذلك .
ثم انتقل الحديث بينهما الى رحلتها القـادمة الى المجر فى صحبة زوجها . وقد حاولت أن تكتم شعورها نحو هذا الفراق ، وأن تخفف من وقعه على قلبه ، ولكنه قال لها فى حزن وأسى :
ـ ستتركيننى هنا .. ماذا يكون حالى فى أثناء غيبتك .. وانا وحيد فى هذا القصر ، الذى يشبه السجن الكبير ؟.
ـ ستكون عودتى فى الربيع القادم .. ثم .. سيـكون معك بروكيش .
ـ صحيح .. ولكن أنت هل أجد من يعوضنى عنك ؟.
انه يشعر فى هذه الفترة بالحاجة الملحة الى المراة والى الصديق ليساعداه على الحياة .. واخيرا ارادت أن تعيد اليه الثقـة فى نفسه فأسرت له قائلة :
ـ انى انتظر مولودا .
فاحمر وجهه وقال :
ـ متى يكون مجيئه الى هذا العالم ؟ .
فابتسمت لما بدا منه من تعجل وقالت :
ـ فى خلال شهر يولية .. أعتقد .

ظل لحظة فى تفكير عميق ثم تمتم قائلا :

ـ من يدرى أين سأكون وقتئذ ؟

ـ ربما كنت متربعا على أحد العروش .

وقد برت صوفى بوعدها فحضرت يوم ٩ يناير حفل استعراض الدوق لفرقته في فناء الهوفبورج . وكانت فى احدى النوافذ مع البارونة شتور مفدور ، وكان البرد قارصا والثلج يتساقط . وقد أعجبت صوفى بصديقها وهو يخطر فوق صهوة جواده الأدهم ، مرتفع الراس بارز الصدر فى السترة البيضاء .. ما اقربه شبها باله الحرب الشاب ، ولكن ما أشد شحوب وجهه وما أكثر هزال جسمه .

وفى لحظة معينة رفع الدوق راسه الى اعلى يبحث عن صوفى واذ رآها رفع سيفه يحييها ، فأخــذت تصفق بيديها سرورا ، وارسلت له قبلة تلقاها كالزهرة المهــداة وهو يغمز جانب جواده وينطلق كالسهم المارق ، بينما الكابتن مول يكاد يعجز عن اللحاق به .

***

لم تلبث الحــوادث أن أثبتت أن الدوق قد تجنى على قواه عندما تشبث بطلب العودة الى الخدمة ففى يوم ١٦ من يناير ١٨٣٢ أراد ان يحضر مع فرقته جنازة الجنرال زيجنتال . وقد اضطر الى البقاء ساعات طويلة لا يتحرك على رأس جنــوده تحت سماء معتمة وفى جو شديد البرودة .. وحينما بدأ سير الجنازة بعد ذلك والتفت الى الجنود يلقى اليهم بأمر التحرك ، لم يخرج الصوت من حلقه ، وانحبس النداء فى صدره ، واحس بدوار . تقلوه الى الفراش وهو فريسة الحمى وظل اسبوعا يمزق السعال صدره .

أخذ مالفاتى يعالجه من حالة التهاب فى المرارة . ولكنه رفض فى أصرار تناول الدواء وهو يعتقــد ان الطبيب قد اخطـأ فى تشخيص الداء الذى يشكو منه وكان يقول له : « لا . لا . يادكتور انا شاعر بما فى . انا مصاب بنفس ما أصيب به أبي من قبل .. لن يقتلنى الا سرطان المعدة » .

وكان مالفاتي يحاول قدر طاقته القضاء على هذه الفكرة الخبيثة التي تسلطت على ذهنه والتي انتقلت اليه من مذكرات انطومارشي واخيرا توصل الى اقناعه بأن سبب مرضه هو سرعة النمو والتضخم في الكبد . وكان ينصحه بقوله : « اياك والحركة العنيفة ، وتجنب الكلام ما استطعت لتريح حلقك . واتبع نظام الغذاء الموصوف لك وعندما يحل فصل الصيف ستذهب الى عيون المياه في اسكي وهناك لن تنتظر الشفاء طويلا مع حمامات الملح والابخرة والهواء النقي .. »

اخذ الأمير يسترد صحته ببطء شديد . وقد أفاده الاعتكاف من جهة أخرى اذ يسر له رفض دعوة وجهت اليه من المارشال ميزون لحضور حفلة راقصة تحييها سفارة فرنسا . وقد قال عن ذلك : « حتى لو كنت في صحتي لرفضتها والا لكان حضوري بمثابة اعتراف بمغتصب عرش ، وبالحكومة التي انكرتني » .

بعد ذلك بأيام تحققت للامير أمنية اسعدته اذ نجح في السعي لدى كوتشيرا ولدى الامبراطور في الحصول لصديقه بروكيش على رتبة الجنرال ، وقد اثارت هذه الترقية مخاوف الوزير العجوز مترنيخ ، الذي علم من عيونه وجواسيسه بالشائعات التي تدور حول مشروعات الصديقين . فرأى ضرورة الاسراع في التفريق بينهما .

ففي أوائل شهر فبراير ، استدعى الوزير بروكيش وكلفه بمهمة عاجلة في ايطاليا حيث قامت الاضطرابات من جديد . ولم يكن في استطاعة بروكيش ان يرفض التكليف .

وكان الفراق قاسيا . ولم يقو الدوق على تحمل هذه الطعنة التي لم يكن يتوقعها . فراح يبكي وضم صديقه الى صدره ، وغاص في أفكاره اليائسة . وكان بروكيش يحاول ادخال الطمانينة الى قلبه فيقول له :

ـ لن تكون رحلتي هذه سدى يافرانز . فاذا ماوصلت الى روما فسأذهب للقاء مدام لوتيتيا وابنة عمتك كاميراتا والبابا الذي سأحاول اكتسابه الى صفنا .. ساجتهد في اعداد العدة لانجاح

هربك الذى يجب ان يتم قريبا ، لأن لويس فيليب فى رأيى لن يبقى طويلا حيث هو الآن .

وكان الدوق يتألم لعجزه عن عمل شيء يفيد به قضيته . فقال لبروكيش :

ـ اتوسل اليك يابروكيش ، ان تدافع عنى بشجاعة فى كل مكان حللت فيه .

وقدم الدوق لصديقه سيفه هدية وقد حفر عليه اسمه وقدم له بروكيش سترة مزركشة كان قد حصل عليها من رحلته الى مصر وفى اللحظة الاخيرة بكى الدوق وهو يقول :

ـ اذهب يا صديقى . ان ثقتى كلها مركزة فيك . ليس فى قلبك ولا فى قلبى مكان للشك أو الخوف ...

خرج بروكيش من الغرفة وراح الدوق يستمع الى خطواته ترن مبتعدة فى طرقات القصر العتيق ، ثم توجه الى النافذة حيث رأى بروكيش بعد برهة يخرج الى الساحة الكبرى . وبعد أن مشى بضع خطوات التفت بروكيش ورفع رأسه فى اتجاه حجرة الامير وحرك ذراعه علامة الوداع . ولم يلتق الصديقان بعد ذلك أبدا .

* * *

انقضت الأيام فى البرد والملل والوحدة ، وليس حول الدوق غير اناس لا يجد فى مجاورتهم له راحة ولا هناء . لقد سافرت صوفى الى المجر وسافر بروكيش الى ايطاليا ، وانقطعت اخبارهما عنه . انه يتنقل طوال الساعات فى حجرته من نافذة الى أخرى هائما .. وفجأة انتابته نوبة عنيفة من السعال قصمت ظهره ؛ فتوقف عن السير وراتمى على احدى الارائك ، لا يلتقط انفاسه الا عسرا . ظل هكذا مهدود القوى مفكك الاعضاء ، مغلق العينين لا يتحرك ، حتى اذا ما فتح جفنيه وجد أمامه صورة أبيه واحس بنظرة ثقيلة منه تلقى عليه .. نظرة فيها ما ينبىء عن الفهم والادراك ..

لقد فقد القدرة على كل شيء على الحياة ... وما هى هذه الحياة؟ . انه يقوم من نومه فى العاشرة ، ويرتدى ملابسه ويقوم

بنزهة قصيرة ثم يتناول الغداء وفي المساء يذهب الى المسرح . اما باقي وقته فيقضيه في الاستماع الى ثرثرة من حوله من السخفاء لقد فقد شهية الطعام وفقد النوم الهادىء واذا ما أقبل الليل سرت الحمى في أوصاله . واشتعلت النار في عينيه وفي جسده .. وامتنع عليه النوم الا لماما ، وظل صدره يصفر ثم لا يلبث أن يهب ناهضا ضيق الأنفاس ، غارقا في بحر من العرق البارد .

واذا ما سئل عن صحته ، أكد على الرغم من ذلك أنه في صحة جيدة ، واندفع في تأكيده هذا حتى يقتنع محدثه ، وكيف لا يفعل ذلك وقد بلغه أن كوتشيرا قال عنه أنه كالحمل الوديع مدلل كالنساء ربات الخدور ؟. فليثبت لهذا الوزير ولكل من يحيط به أنه ليس كما يتوهمون . ها هو ذا يخرج غير مبال بالطقس سواء أكان ممطرا أم مثلجا أم ضبابا .. ثم يعود غارقا في عرقه ، ويرتد خارجا من غير ان يستبدل ملابسه المبتلة بغيرها جافة .. انه يتحدى الموت في كل لحظة وكان الذين من حوله من المشرفين عليه والمسئولين عنه لا يجرءون على تنبيهه الى ما يتعرض له من أخطـار .. أو لعلهم يجرءون ولكن أمره لم يكن يهمهم كثيرا .

وفي أصيل أحد أيام شهر مارس ، قام كعادته بنزهته الطويلة العنيفة على صهوة جواده ، ثم عاد منهوك القوى ، وأمر لتـوه باعداد عربته المكشوفة للتجول بها في حدائق البراتير .. وكان المساء قد حل حينما راح يستقبل بصدره الرياح الباردة القادمة من سهول المجر ، وهو يرتعد في عربته التي لا يغطيها شيء .

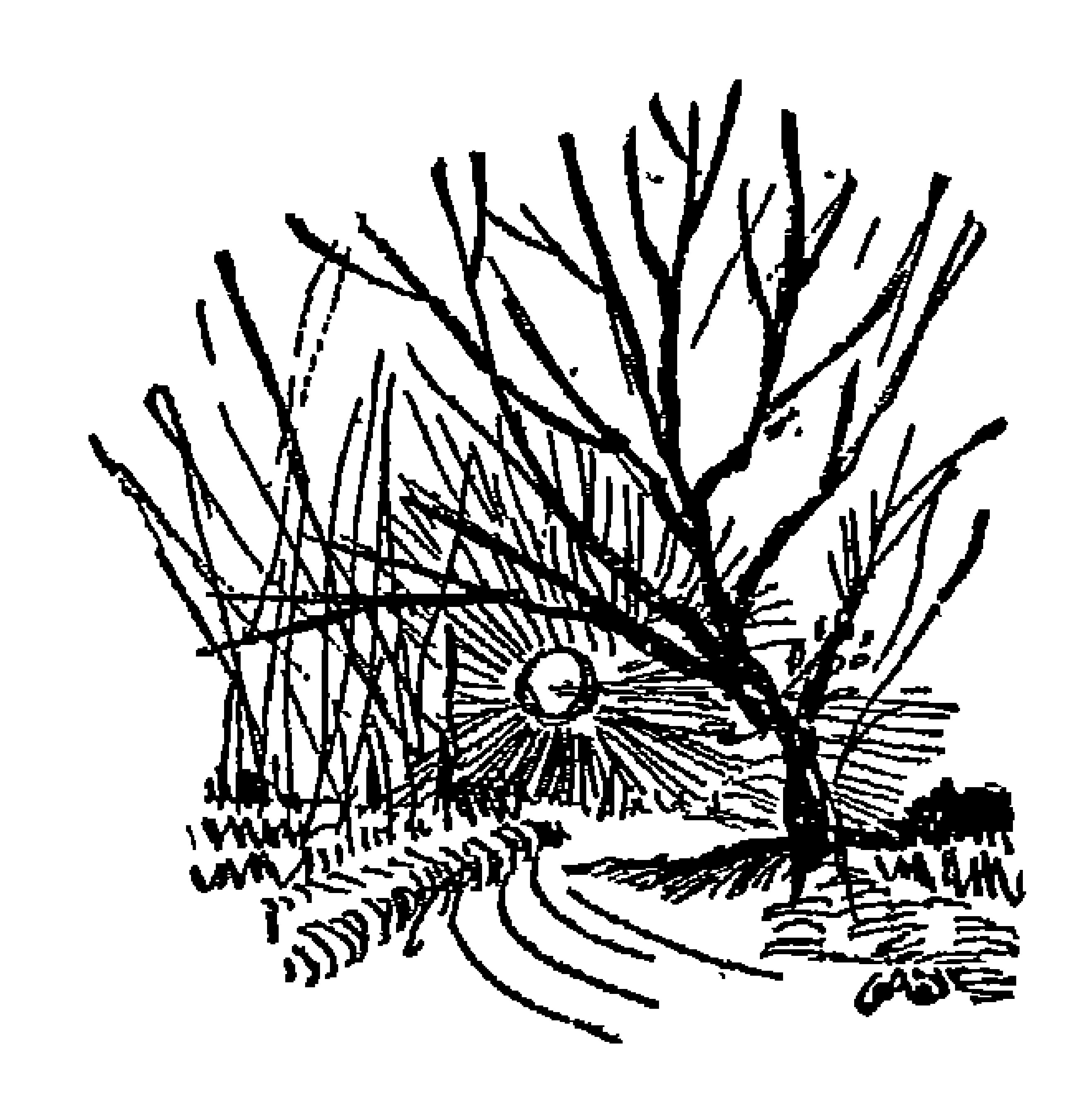
وفجأة مالت العربة على جانبها وقد انكسرت احدى عجلاتها فقفز الأمير من العربة المنهـارة من غير أن يصيبه أذى . وأراد أن يعود سائرا على قدميه . ولكنه لم يخط الا بضع خطوات لم يقو بعدها على المشي وأعاده مول الى هوفبورج فاقد الوعي تقريبا .

وفي أثناء الليل ارتفعت حدة الحمى ، وفقد المريض السمع بأذنه اليسرى وكانت نوبات السعال لا تنقطع . وقد شعر الطبيب مالفاتي بخطورة الحالة فاستدعى للاستشـــــارة ثلاثة من نطس الأطباء . وأجمع الأربعة على وجود حالة التهـــــاب رئوي حادة

وخطيرة . وصفوا الادوية اللازمة وقرروا أن انقاذ المريض لن يكون الا عن طريق اقامته مدة طويلة فى بلد دافىء مثل ايطاليا . بل لقد قال اكثر هؤلاء الأطباء تشاؤما ان من الخير اخطار الأم بحالة ابنها .

* * *

وفى بارما ، لم تكن مارى لويز ، وهي غارقة في الحفـــلات والزهور ، لتشعر بأن ابنها قد وصل الى هذه الحالة الخطيرة من المرض .. فلديها من المشاغل ما يصرفها عن هذا الاهتمام ... صحتها تقلقها كما يقلقها انتشار وباء الكوليرا فى ضواحى المدينة.. ليس هذا هو الوقت المناسب للسفر من أجل رؤية ابنها المريض انها تقضي أيامها في الاستعراضات والمرور امام الجند المصطفة على صهوة جوادها وسط القواد ، واقامة الولائم الفاخرة ، والظهور فى المسارح بكامل زينتها ، وافتتاح حلبات الرقص .. لا .. ان وقت الارشيدوقة لا يسمح لها بالسفر ... والا فمن الذى يقوم بتلك المهام الجسيمة كلها ؟ . ومن الذى يتولى مهمـة مواساة سيدات بلاطها ، وقد شاع وسطهن الذعر وانتشر فيهن الأسى لقرب رحيل الفرقة التى يقودها استرهازى وعودتها الى النمســـا .. كيف تترك وصيفاتها الرقيقات وصـديقاتها المرهفات وهن فى شـدة الانزعاج كل منهن تردد فى حسرة : « يا الهى .. أى مصير ينتظرنا بعد رحيل هؤلاء الضباط ؟ . مع من سنرقص ؟ . وهل يوجد أمهر منهم أحد فى الرقص ؟ . »





لم يبد مترنيخ أى اعتراض على سفر الدوق الى ايطاليا .. وكان فى ذلك كمن يتبرع بما لا يكلفه شيئا . فقد استشار الطبيب المعالج وعرف منه الحقيقة .. الحقيقة المجردة : ان رايشستاد مقضى عليه ولا أمل فى انقاذه .. وكل ما بقى له فى الحياة لا يتعدى بضعة شهور أو لعلها بضعة أسابيع ..

ولكن الدوق بدا وكأنه يسترد شيئا من صحته . فقد عادت صوفى فجأة وبعودتها أعطتـــه أكثر مما يعطيه الدواء . فما أن ظهرت أمامه حتى أحس بالعافية تدب فى عروقه . ولكنها وجدته فى حالة بعثت الأسى الى قلبها ، فأسرعت تنفـرد بنفسها لتبكي ما شاء لها البكاء .

وعلى الرغم من تقدم حملها أصرت على أن ترعاه بنفســها ، وتسهر على تمريضه فلم تفارقه لحظة .. وكانت تخصه بالنظرة الحلوة والوجه الباسم وكلمة التشجيع والأمل .. وتســـــقيه المنقوعات الدافئة ، ولبن الحمير المخلوط بماء مارينباد المعدنى ، وكان هو يصر على الا يعنى به أحد غيرها والا يقرأ له الى جــوار فراشه صوت غير صوتها العذب .



هاهو ذا جالس في سريره تحيط به الكتب والخرائط التي جاءت له بها لتساعده على المضي في أحلامه وخيالاته .. وقد برقت عيناه وتوردت وجنتاه قليلا ، وراح يشرح ما يجول في ذهنه من مشروعات !

ـ سأذهب أولا الى شونبرون .. ومتى أصبحت قادرا على تحمل مشاق السفر ، فسأذهب الى ايطاليا ؟ ..

ـ نعم ، ولكن يجب أن تكون حريصا وان تنتظر الى أن يتم شفاؤك فالرحلة طويلة وشاقة ..

ابتسم لصوفى وقال لها يطمئنها :

ـ لقد أعدوا لى عربة خاصة ، كبيرة ومريحة جدا ؟ وفي استطاعتي أن أتمدد في داخلها كما أتمدد في سريري ..وسأجعل السفر على مراحل قصيرة .. وبعد اسبوعين أو ثلاثة اذا لزم الحال سأصل الى نابولي ...

ورفع نحوها جبينه وظهرت على وجهه علامات السرور !

ـ سأرى البحر لأول مرة في حياتي .. وسماء غير هذه السماء .. وأناسا لا يعرفونني ويعتبرونني رجلا كسائر الرجال ..

ثم استسلم الى أحلامه واستعاد الذكريات التي اختزنها من قراءاته وراح يبني لنفسه عالما جديدا ، هو الذي يأمل أن يعيش فيه :

ـ سأقيم في فيلا جميلة بيضاء فوق احدى الربى التي تكسوها اشجار الزيتون والبرتقال ؟ في مواجهة الخليج الأزرق .. وستختلط في هذه الزرقة أشرعة القوارب وأجنحة الطيور المائية .. سأنظر من شرفتي فأرى أمامي جزيرة كابري والفيزوف .. وفي المساء يمتلىء النسيم بأريج الليمون والتين ؟ .... ويعزفون تحت نافذتي اغنيات السيرينادا على أنغام الجيتار .. ستكسو الشمس يدي من الصباح الى المساء ؟ وسيمتلىء جسدي دفئا ؟ لن أشعر بالألم كلما التقطت أنفاسي ... و ....

وهنا توقف الحديث في فمه تحت تأثير نوبة سعال شديدة ..

وانتشرت رجفة طويلة في جميع أجزاء جسمه الهزيل ، وسمعت صوفي صفير رئتيه والحشرجة الخشنة في حاقه فقالت له :

ـ كفي .. لا تتكلم .. لا تجهد نفسك في الكلام .

ومدت احدى يديها ترفع بها خصلات شعره وبالأخرى راحت تمسح له جبهته المبللة . واذ مرت اصابعها بالقرب من شفتيه الصق بهما قبلة عابرة وقال :

ـ لاشيء .. ليس بي شيء ... انتهت الأزمة كما ترين .. أنا أحسن حالا ... ستشفيني اقامتي هناك ، ستشفيني تماما .. وبعد أن يتم شفائي سأذهب الى روما لأرى جدتي لوتيتيا واعمامي وعماتي واسرتي ... سألقى هناك بروكيش كم سنكون سعداء معا ايطاليا هي الأرض التي فاز فيها أبي بانتصاراته الأولى .. سأصطحب بروكيش ونذهب معا لزيارة ميادين القتال التي كانت مسرحا لمجد نابليون في شبابه : اركول ، ريفولي ، ميلليزيمو ، لودي ، مارنجو .

وكان يود صوفي ان تسد اذنيها فلا تسمع منه هذه الامال العراض التي قد لا يتحقق منها شيء .. ولكنها أصغت الى الأحلام التي يتلوها ، وهي تعض على نواجذها حتى لا تنفلت العبرات من عينيها ، ولا تنطلق الزفرات من صدرها .

بعد اسبوعين من هذا العلاج استطاع أن يقوم من فراشه ؛ واراد أن يتنفس قليلا من الهواء فركب في اصيل أحد الايام عربة مغلقة سارت به الهوينى .

وكان أهل فيينا يتلفتون ويلقون بأبصارهم داخل العربة فيرونه ممددا فيها وسط الوسائد ، تحيط به الأغطية السمكية ، وقد أحاط بعينيه السواد ، وبرزت عظام الفك في وجهه وهزل جسمه حتى صار خيالا . وكان الناس يدهشون : أهذا هو الشاب الجميل الذي يكن له الجميع ودا وتقديرا ؟ . وكانت النساء تتمتمن بالصلوات وترفعن أيديهن الى صدورهن وجباههن كما يفعلن عند مرور الجنائز .

* * *

كان هارتمان يوالى الامبراطور ، الذى غادر فيينا ، بتقارير يومية عن صحة حفيده . ولم يكن التحسن الذى طرأ الا عابرا ، وفى يوم ١٨ مايو حدثت نكسة وكان الأمير فى حالة ضعف لم تسمح له حتى بالكتابة الى جده ليشكره على رتبة الكولونيل التى منحها له فى أثناء مرضه .

وفى يوم ٢٢ مايو نقل الأمير الى شونبرون . وكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يدخل فيها قصر مارى تيريز العتيد بواجهته الصفراء ونوافذه الخضراء وساحته الواسعة .. وكانت الشمس حامية والخضرة فى كل مكان والطيور تغرد فى انحاء الحديقة .

وقد خصص له سكن آخر فى القصر تكثر فيه أشعة الشمس ، واختير له الجناح الكبير فى الطابق الأرضى بحجراته الواسعة التى اقام فيها نابليون من قبل مرتين بعد اوسترليتز وواجرام .

وكانت غرفته ذات نافذتين مكسوة بالحرير الاخضر ، وعلى احدى حوائطها لوحة كبيرة من الجوبلان الثمين ، وفوق عتبات الابواب رسوم تمثل مناظر ريفية . وقد احتلت صورة الامبراطور فرنسوا الأول مكانا ظاهرا فى صدر الغرفة . وقد رفض الدوق الرقاد فى السرير الفخم المنصوب فى وسط الحجرة وطلب أن يقام له فى أحد أركانها سرير صغير من أسرة الميدان .

هذه الغرفة تتصل من جهة بالحجرة الخزفيــة ذات اللونين الأزرق والأبيض ، ومن الجهة الأخرى بالصالون الاثرى البديع الذى تختلط فى زخرفته الالوان السوداء والذهبية والقرمزية ، والذى اتخذ منه نابليون مكتبا لشهور عدة كان يحكم منه العالم بأسره .

فى نهاية الأسبوع الأول الذى قضاه الدوق فى شونبرون بدا وكأن تحسنا قد حدث له ، فقد هبطت الحمى وقل بصاقه ، واستراح قليلا فى نومه ، وكان فى كل صباح يستقل عربته ويتوجه بها الى قرية كانشنبرج ليستقى هناك لبن البقر ولبن الحمير طازجا وكان يمد نزهته أحيانا حتى يصل الى بادن . وفى ساحة الهلننتال كان يأمر بتخفيف سير الخيل ويلقى نظرة على

تلك الأماكن التي شيد فيها وسط العذاب والآلام مستقبلا لنفسه من الأحلام والأوهام .

ولكن لم تكد تمضي بضعة أيام حتى عاد ارتفاع النبض واشتداد الحمى .. وود لو استطاع الافلات من الليالى الطويلة المملوءة بالعذاب والعرق والأحلام السيئة . ورأى الأطباء أن يعلقوا له العلق على صدغه مع اللصقات الساخنة ، وأوقفوا لبن الحمير الذى كان يحدث له اضطرابات معوية شديدة .

ها هو ذا الآن يقوم بنزهات قصيرة جدا فى صحبة صوفى داخل حديقة القصر — وعلى الرغم من اكتمال حملها فقد اصرت صوفى على الا تتخلى عنه . وكان يسير خطوات الى جوارها مقوس الظهر ثقيل الجسم كأنه شيخ هرم .. واذا ما أحس بالتعب امرت الخدم فحملوه في محفة الى كشك صغير فى حديقتها الخاصة ، يزين سقفه نسر ممدد الجناحين ، وتنتشر أمامه الخضرة والمياه الجارية وسط الأشجار الباسقة التى تحجبه عما يحيط به .

وفى هذا الكشك يتمدد الدوق على مقعد طويل مرتديا ثوبا من الصوف الثقيل ، ويستمع الى القراءات التى تقرؤها له صوفى أو يلاعب الطفل فرنسوا جوزيف حينما يكون معها . وكان الطفل يحس بغريزته ان صديقه مريض يتألم فكان يبكى أحيانا حينما يراه .

وكانت الأمسيات تنقضى هادئة كأنها النهر الجارى تسيل مياهه ، وكثيرا ما كان الدوق ينظر الى يديه ، وقد تجلد لحمهما وأخذت الحياة تفلت منهما ثم يتنهد ويقول :

— هل يقدر لهذه اليد أن ترفع السيف يوما مرة أخرى ؟ .

ولطالما حاولت صوفى أن تعيد اليه شيئا من الأمل فكانت تحدثه عن لويس فيليب وعما تقوله الشائعات من أن ظروفه تسوء يوما بعد يوم . فكان يهز رأسه يأسا من المستقبل ويقول :

— ليس فى استطاعتى أن أرقى عرش فرنسا ، يا صوفى ، ولذلك لم تعد بى رغبة فى الحياة .

وبعد لحظة كان يروح فى سبات عميق ، فيسود صمت

لا يقطعه غير أزيز الحشرات وصفير الريح في الأغصان ، وكانت صوفى تنظر اليه وهو على هذا الوضع فيتقطع قلبها ... لم يعد يكسو عظمه غير غلالة من الحياة تتضاءل كل يوم . وكان منظر المرض المرتسم بكل بشاعته على وجه الشاب يملؤها رعبا .

وفجأة تنتابه نوبة سعال توقظه من نومه ، وينحنى ممسكا جنبه بكلتا يديه ، ثم حلقه ، وكأنه يحاول أن يقتلع من جسده ذلك الوحش الذى يمتص منه الحياة . وكانت انفاسه تضطرب وعيناه تبرزان من محجريهما . وكانت صوفى ترى عظام كتفيه ناتئة من تحت ثوبه السميك . وما بقى من عضلات عنقه ينتفخ وينكمش . ها هو يعود بعد برهة فيسترد أنفاسه قليلا ، ويرفع الى شفتيه منديلا لا يلبث أن يصبغه باللون الأحمر . وكانت صوفى تشعر عند رؤية هذا الدم وكأن خنجرا قد غاص فى صدرها . ولكنها لم تكن لذلك تتحول عن الابتسامة التى تواجهه بها . وكان يسرع هو الآخر الى اخفاء المنديل الملوث ، ويجتهد فى أن يواجهها بثغر باسم ويقول لها :

ـ هل رأيت ؟.. لقد مرت النوبة بسلام ..

وكانت تجيبه وهى تكذب على نفسها وعليه معا :

ـ استرح ، ستتحسن حالتك كثيرا .. انى أرى لك اليوم وجها أنضر من وجه الأمس ..

وكانت تحيطه بذراعيها فيلتصق بصدرها . وكانت تحس فى جسدها رنين ضربات قلبه المتلاحقة .. ذلك القلب الذى يكافح قوى الشر المتحالفة عليه من كل مكان . ولكم ودت لو أنها منحته حياتها .. وكانت تميل عليه وتطبع القبلات على جفنيه فيفتحهما واذا بعينيه فى مقابلة عينيها تمتلئان من نور السماء ويحس وكأنها قد أعادت الى جسمه الحياة .

***

١٢ يونيه ، ظن الدوق أن فى استطاعته القيام بنزهة فى عربة فتوجه الى بادن ، ومن هناك مد السير حتى قصر لاكسنبورج . واذ وصل اليه نزل من العربة وراح يتحدث برهة مع ضباط الحرس . ثم رجع الى عربته وعاد أدراجه . وفى طريق العودة

هبت زوبعة شديدة وكانت العربة مكشوفة ، فلم تنقض بضع دقائق الا وكان الدوق عائما فى ثيابه المبتلة . فأعيد الى شونبرون فى حالة يرثى لها .

وفى المساء لزمته الحمى وعاد الصفير الى صدره وحلقه ، وكان يشكو من الم شديد فى جنبه الأيمن وكان سعاله لا ينقطع .

وفى اثناء الليل انتابته نوبة سعال أقوى من الأخريات لفظ على اثرها كميات كبيرة من الدم سالت على يدى مول الذى كان ممسكا بالوعاء امامه .

وفى اليوم التالى قرر الأطباء أن خراجا قد انفجر فى الرئة ورأى مالفاتى الا يكتم الحالة عن صوفى فقال لها

ـ انه مقضى عليه .. بضعة أسابيع على الأكثر ...

شحب لون الشابة ، اذ تمثلت امامها الحقيقة البشعة التى أرادت حتى اليوم أن تنكرها على نفسها وأحست بفداحة خسارتها فى فقد هذا الشاب العزيز عليها فقالت للطبيب تستعطفه :

ـ الم يعد هناك شىء تعمله ؟..

ـ لا شىء مع شديد الأسف .. لقد أضاعوا وقتا طويلا ، وكان يجب أن يبعث به الى ايطاليا منذ عام مضى ..

لم تهتم صوفى بتجفيف الدموع من على وجهها وقالت :

ـ والآن ... ؟

أحرج مالفاتى من النظرة الحزينة المسلطة عليه ، فادار وجهه وقال :

ـ يجدر بنا أن نبلغ الأسقف واجنر ليعده لتلقى الواجبات الدينية الأخيرة ...

رفعت صوفى يديها ، وكأنها تبعد عن عينيها منظرا كريها وقالت :

ـ الواجبات الدينية الاخيرة ؟. هل تريد ان تعرض امام عينى هذا الفتى منظر الموت وما يتخذ له من استعدادات ؟.. انك بهذا تلقى فى نفسه بأقسى ألوان الرعب .. لا .. لا .. أريد أن يظل جاهلا داءه حتى النهاية ...

ـ ولكنك يا سيدتي لا تستطيعين أن تتركيه هكذا يموت من غير ان يتمم امور دينه ؟.

فكرت الشابة لحظة ثم قالت :

ـ لقد هجرته أمه ، وهجره جده ، وهجرته أسرته جميعا .. ولم يعد أحد غيري يعنى به .. سأدبر للأمر بنفسي ...

وقد استطاعت صوفي بما في قلبها من حب لهذا الشاب المريض أن تدبر للامر فعلا . فقد ذهبت اليه تقول :

ـ يا فرانز ، لي رجاء لديك .. بودي لو انك داومت في هذه الأيام على الصلاة معي .. فنجمع ما بين دعواتنا ، لنحصل على شفائك أولا ، ثم على بركة من الله بعد ذلك يسبلها على المولود الذي سوف أرزق به قريبا .. هل ترفض لي هذا الطلب ، يا فرانز ؟.

وما كان فرانز بالذي يرفض لصوفي طلبا ، فكل ما تعرضه عليه يقبله بثقة وتسليم .. ثم اقبل في سرور على ما طلبته منه .. وراحت صوفي تستعد في ايمان عميق لهذه الرابطة التعبدية .. لهذا الزواج العذري .. وقد خيل لها أن ميثاقا وحيا قد جمع الى الأبد بينها وبين هذا الرجل المريض الذي احبته .

يوم ٢٠ من يونية أدى رايشستاد سر الاعتراف في الساعة العاشرة وسر المناولة عند الظهر وأجريت الحفلة الدينية تحت أستار صلاة أقيمت في غرفة المريض . وسار أمامه موكب صامت طويل يتقدمه الأمراء والأميرات الموجودون في قصر شونبرون . وقد طلب الجميع ـ حتى خدم القصر وخادماته ـ أن يشاركوا في هذا الموكب الحزين .

كان النظام المتبع يقضي بأن يتلقى المريض القربان المقدس في حضرة أشخاص البلاط مجتمعين .. ولكن رئي الخروج على هذه القاعدة ولم يسمح الا للقس ومعاونه بالدخول عليه . أما باقي الموجودين فقد تجمعوا في صمت وهدوء في الحجرة المجاورة .

كان فرانز مسجى في سريره وقد ركعت صوفي الى جواره تبتسم له . ولم يكن يرى غيرها .. تليت الصلوات بصوت خافت

وقام القس واجنر بمهمته مسرعا ثم انصرف وتركهما معا . فأخذ الشاب يدى صوفى واقترب بهما من شفتيه وتمتم قائلا :
ـ يبدو انى أحسن حالا ...

***

حرص مترنيخ وهارتمان على ابلاغ الامبراطور ، الذى كان فى تريستا بتطورات المرض .. ولم يكن الوزير يشير فى تفاريره المتعددة الى أى أمل ، وكانت عبارتة المتكررة هى : « لا ارى أقل بادرة للشفاء .. » أما مارى لويز فلم تكن تسلم بأن ابنها مريض الى حد الخطورة .. لقد حضرت الى جوار ابيها ولكنها ترددت فى القيام بالرحلة الى فيينا ، خوفا على صحتها من مشاق السفر وطول الشقة .. وكانت خائرة القوى تصحبها رعدة وحمى من جراء اعصابها التالفة .

ولكن الناس فى فيينا أخذتهم الدهشة لعدم اسراع الأم بالقدوم الى جانب فراش ابنها ، واغلظوا فى الحكم عليها واتهموها بالجحود والقسوة . وكان الشعب يتتبع باهتمام زائد تطورات المرض ويتجمع أفراده كل صباح حول أسوار قصر شونبرون لتسقط الأخبار . وكانت طريقتهم الى ذلك هى سؤال الخدم عند خروجهم من القصر ، فاذا ماقيل لهم أنه قضى ليلة هادئة انصرفوا الى أعمالهم شاكرين مسرورين .

وكان الامبراطور ملما بحالة المريض أكثر من أم المريض نفسها . فأصدر لها الأمر بالرحيل فورا .. ولكنها أرجأت السفر لبضعة أيام ، واخيرا قامت تقطع المسافة على مراحل صغيرة ، حتى وصلت الى شونبرون يوم ٢٤ يونية .. لقد مضى أسبوع كامل على المريض وهو يطلب أمه الى جواره . ولطالما استشاطت صوفى غضبا مكتوما فى نفسها وهى تقول : « سيسبق السيف العزل » .

واذ علم الأمير بقدوم أمه ، أراد أن يستقبلها واقفا ويسرع الى لقائها ، ولكن خانته قواه ، واضطر بعد المحاولات اليائسة الى الارتماء عاجزا فى فراشه .

واخيرا جاءت اليه مارى لويز يحف بها الجنرال هارتمان والطبيب مالفاتى . وتعانق الابن والأم . ثم جلست الدوقة الى

بجوار فراش المريض ، وهى تتحاشى النظر اليه . ان قلبها يتقطع .. أهذا هو ابنها ؟ . ابنها الذى تركته منذ سنتين مضتا .. أكثر ما يكون جمالا ورواء ، وأشد ما يكون اقبالا على الحياة ومتعها ؟ .. لا انها لم تعرفه .. لم يبق من جسمه الممدد ، وقد بدا مفرطا فى الطول ، غير هيكل .. هيكل له وجه التصق فيه الجلد بالعظم ، وعينين غائرتين ، وشعر أشعث خشن .. لقد تحول لون الجسم الى لون التراب الذى سيضمه بعد قليل .

أراد الدوق أن يتكلم ولكن نوبة سعال القت به على الوسائد ، وفاضت من شفتيه رغوة وردية اللون .. ولم تقو مارى لويز على تحمل هذا المشهد الرهيب فاسرعت تختفى فى الحجرة المجاورة حيث انفجرت تبكى وتنتحب .

وبعد أن بللت وجهها بمزيد من العبرات ارتسمت على ملامحها أمارات التأثر والحزن ، ثم عادت الى حجرة المريض الذى ابتسم ، وأشار لها بأن تقترب منه .. أوراق كثيرة مبعثرة على السرير وباقات البنفسج هنا وهناك فوق المناضد . أشار بيده وهو يقول : « ما أطيب أهل فيينا .. وما أكثر حدبهم على .. انهم يبعثون الى بكثير من الزهور وبجميع أصناف الوصفات التى فيها شفائى » .

وتكلم بعد ذلك عن الآمال الواسعة التى رتبها من قبل لرحلته الى ايطاليا وكانت امه تصغى اليه مطأطئة الراس لاتجرؤ على النظر اليه .. ولا تطمئن الى صوته الأجش المتحشرج كأنه صوت رجل عجوز . وكانت تكتفى باشارة من رأسها علامة الايجاب ، وبالضغط على يده بين يديها . ولكنها بزينتها الزاهية ، بوجنتيها المحمرتين وباكداس اللحم المتراكمة على أكتافها ، وبمظهر الصحة الذى يتبعث من كيانها ، كانت تبدو كمن ضل طريقه الى هذه الغرفة ، التى نفذ اليها الموت وانشب أظافره فى ساكنها .. وكانت اذا أصغت الى ضميرها سمعت صوتا بعيدا يهمس فى أذنها قائلا :

« هذه جنايتك .. جنايتك .. منعت عنه حبك .. فذبل ومات . »





٣٦

انقضى اسبوعان ازداد خلالهما دوق وايشستاد ضعفا ، واصبح لا يفارق الفراش ، واذا فارقه يستند الى ذراعي مول حتى يصل الى الشرفة ، حيث يجلس في الشمس ، متدثرا بالأغطية الثقيلة وملقيا برأسه فى ظل احدى الخيام .

وكان يقضي على هذا الوضع ساعات طويلة فيما يشبه الغيبوبة واذا ما فتح عينيه رأى أمامه منظر الحديقة الذى طالما رآه من قبل .. الديدبان تحت مظلته والخمائل المنتشرة هنا وهناك بلونها الأخضر القاتم .. تتخللها التماثيل المرمرية البيضاء ، والطرقات المتعرجة وسط ساحات العشب النضير ، واحواض المياه المتفجرة وعلى البعد الأسوار التى يكسوها النبات .

واذا ما رفع السائرون فى الحديقة نظرهم الى الشرفة ورأوا قلنسوته التى تنساب من حوافيها خصلات شعره الاشقر الغزير ، تمتموا بالدعوات ، وانطلقوا فى طريقهم فرحين .

ولم يعد فى الوجود شيء يغرى الأمير المريض ، حتى القراءة نفسها أصبحت تؤذيه وتتعبه . وقد رفض الطعام وابى تناول

الدواء ، وأصبح من شدة ما به عصبى المزاج سريع الانفعال . وكان فورستى وأوبناوس يأتيان مرات عديدة كل أسبوع للاستفسار عن صحته ، فاصبح يرفض مقابلتهما ، واذ حضر المارشال مارمون يوما لزيارته امر خادمه : « قل للمارشال انى نائم فلا أريد أن يرانى فيما انا فيه من بؤس » .

وكان ديترشستاين ، مربيه ، قد جاء قبل ذلك مستاذنا فى السفر الى ميونيخ للحاق بابنته هناك . كما زاره مترنيخ ولكن الامير لم يستمع لما قاله له الوزير واشاح بوجهه عنه . ولم يهتم الوزير لهذا الاعراض : فقد كان غرضه الوقوف على حالة الدوق ها هى مهمته قد اسفرت عن نجاح باهر .. فهل هو مكتف بذلك ؟ وتارك الأمير المسكين لشأنه ؟ . كلا .. لن يتركه حتى حافة القبر .. لقد بذل كل من لويس بونابرت ومارشال ومونتولون وجورجو محاولات يائسة لنقل الأمير المريض أو للاتصال به . ولكن مترنيخ أفسد جميع محاولاتهم .. لقد حكم على ابن نابليون بأن يموت أميرا نمساويا ..

حرصت مارى لويز على الذهاب لزيارته ساعة بعد ظهر كل يوم . وكانت تجلس الى جوار سريره ويتحادثان . وكان يبدو سعيدا بوجودها بالقرب منه ، ويبتسم لها ، وهو يقص عليها احلامه ومشروعاته .. وكانت سرعان ما تنصرف عنه .. فلا قبل لها على النظر طويلا الى تلك الحياة التى تتلاشى كل يوم من غير ابقاء عليها . وكانت صوفى تحل محلها الى جواره .. فهى لا تريد أن تبتعد عن حبيبها المريض على الرغم من اقتراب ميعاد وضعها .. انها تتشبث بالبقاء معه اعتقادا منها أن الموت لن يقترب منه مادامت هى الى جواره ..

وفى يوم ٥ يوليه افتقدها الأمير فسأل عنها . قيل له انها ملازمة للفراش وقد جاءها المخاض . فكان طول اليوم يبعث بخادمه لامير للاستفسار عن حالتها .. وكان قلقا عليها يخيل اليه انه يسمع صراخها وبكاءها . وفى اليوم التالى جاءت اليه مارى لويز تنبئه أن صوفى قد وضعت صبيا أسمته فردينان

ماكسيمليان تهدأ لتوه وأخذ يتمتم مرات : « ابنى .. ابنى .. » وانحدرت من عينيه دمعتان كبيرتان .

ساعدت حرارة الجو المتزايدة على سرعة انهاك قوى المريض الذى لم تكن الحمى تفارقه لحظة واحدة . وكان لا يلقى النوم وانما يقضى الليل وهو يكافح القوى الخبيثة التى تمنع الهواء من الوصول الى رئتيه . وكان العرق المتصبب من جسمه النحيل يبلل فراشه فيضطر خدمه الى تغيير الفراش مرات كل ليلة .. وقد سرى الورم فى ساقيه ، واخذ الدم ينسحب منهما ، واصبحتا وكأنهما أشبه بكتلتين من الحجر علقتا بجسمه .. وعجز الدواء وفشلت الأشربة فى وقف نوبات السعال التى تركته محطم الصدر منهوك القوى .. وكان ما يلفظه بعد كل نوبة ينشر فى الحجرة رائحة خبيثة .

أنه يجتهد أن يخفى مابه كلما كانت أمه الى جواره .. بل أنه يعلن شعوره بتحسن كبير ، وأمله فى قرب برئه وابلاله .. ولكنها ما أن تغادر حجرته حتى يعود الى آلامه وكأنه يغوص فى أعماق بركة آسنة ، وكان يحس احيانا بقرب الأجل ، فيقول لمول : « ميلادى ثم موتى .. هذه حياتى كلها .. ولن تكون المسافة بعيدة بين المهد واللحد » .

ان ما به من آلام ينوء به الجسم البشرى . وانه ليتساءل هل إسم نابليون ، الذى هو اسمه وان لم يحمله ، قد ثقل على كتفيه فاناخهما ؟ وكثيرا ما يشطح فكره فى أوقات نومه القصيرة فيذهب باحثا عن ذكريات أبيه متذرعا بذلك الأحساس الخفى الذى يحس به من كان على حافة الموت ، فيقضى على الماضى وعلى الحاضر وعلى المستقبل فى ذهنه ، ولا يترك له غير عالم مبهم فيه الأشياء والأشخاص تلتقى وتمتزج وتتوحد .

هذه الحجرة التى عاش فيها نابليون فترة ، استسلم خلالها للحلم العظيم .. الحلم الذى ولد منه ملك روما .. ها هى الآن لا يسكنها غير الأشباح .. فهناك عند الباب تمدد شبح مفترشا الأرض متغلفا فى فروة دب .. أنه رستم ، مملوك نابليون ، الذى

لازم الابن بعد موت الاب .. ولكن هناك شبحا آخر يتحرك فى الغرفة ، وقد حنى رأسه وعقد يديه خلف ظهره .. شبحا يجرى خفيفا صامتا على خشب الأرض اللامع .. ثم يقف ويعود يجرى مقوس الظهر .. ثم فجأة يلتفت نحو المريض فيعرف فيه المريض إياه نابليون ، الذى وقف ينظر اليه وقد ارتسمت فى عينيه تلك النظرة الحزينة ، التى صورها جيرار فى لوحته .. وكان الشبح الحائر يحرك شفتيه بكلمة يكررها ، كلمة واحدة لم يكن الدوق يسمعها وان كان يفهم معناها ويعى مرماها .. كلمة واحدة تقول : اغفرلى ..

***

لقد مضت على الأمير المريض أيام لم يتناول فيها غير بضع ملاعق من مغلى الشعير ، ولما رأى مالفاتى أن حلقه لم يعد يساعده على ابتلاع شىء من الاطعمة احضر له احدى المراضع لتغذيه من ثديها ..

هاهو الآن يتداعى من ساعة الى ساعة .. وقد حل الصيف حارا قاتلا .. وفى يوم ٢١ يوليه ، أقبلت من جميع انحاء الافق عواصف تجمعت كلها فوق قصر شونبرون ، فجعل البرق فوقه اكليلا من النار .. وفجأة انفجرت السماء بقوة شديدة وانقضت الصاعقة فحطمت أحد النسرين المقامين فوق العمد الرخامية الحمراء عند مدخل القصر .

نظر سكان القصر بعضهم الى بعض مذعورين . لقد تحقق لهم إن القدر قال كلمته ، وان ملك الموت قد هبط بينهم . وكان الدوق يتقلب فى فراشه على أحر من الجمر ، ويحس بالنيران تأكل صدره فيتضرع الى طبيبه مالفاتى قائلا :

— كم اتألم ، يادكتور ... ليت حياتى هذه القاسية تنتهى .. واخلص مما انا فيه ..

تفوه الطبيب ببعض كلمات الأمل التى لا تغنى شيئا .. وفى هذه اللحظة دخلت مارى لويز ، واذ رآها المريض التفت نحوها وابتسم :

ـ كيف حالك اليوم ياولدى ؟».
ـ لا بأس بى يا أماه ، لا بأس بى ».
ثم فكر لحظة وقال وهو يتوقف عند كل كلمة كما لو كان خجلان مما يقـــول :
ـ على كل حال .. اذا .. ســاءت الحالة .. اكثر مما هى سيئة .. فعدينى يا أمى أن تعطى بروكيش كتبى وسيفى .
ادارت مارى لويز وجهها الشاحب وقالت :
ـ نعم يا فرانز ، أعدك بما تطلب ! .
وانصرفت مارى لويز وصاحبها مالفاتى الى الحجرة المجاورة وقال لها فى صوت خافت :
ـ تشجعى ياسيدتى لم يبق الآن غير ساعات .
***
فى ذلك اليوم وصل بروكيش الى روما ، الى ميدان البندقية أمام قصر ريتوتشينى ، الذى تسكنه مدام لوتيتيا . لم ينس الموعد الذى قطعــه على نفســه أمام رايشستاد بأن يزور السيدة التى اطلقوا عليها اسم « أم الملوك » ولكنه لم يجد الفرصة المواتية للقيام بهذه الزيارة .. الى ان سنحت تلك الفرصة .. فقد تعرف الى الأمير الضابط بومبيى جابريللى الذى تزوج من شارلوت ابنة لوسيان بونابرت . وقد نقلت اليه زوجة صــديقه أن مدام لوتيتيا تود أن تقابل صديق حفيدها .
وتحددت المقابلة ليوم ٢١ من يوليه عــلى أن تتولى الأميرة شارلوت تقديم بروكيش الى ام نابليون .
وصل الضابط الى القصر فى الموعد ، ثم اخذ ينظر الى الجدران العالية والشرفات البارزة التى تجعل من المبنى شيئا يشبه قلاع العصور الوسطى ، ثم دخل تقوده الأميرة شارلوت . ومنذ الخطوات الأولى بدا له وكانه ينفذ الى عالم الصمت . سارا فى دهليز طويل اكسيت ارضه بالحجارة وفى نهايته دفعت الشابة بابا ثم دخلا قاعة واسعة انتشرت فى ارجائها موجات من العتمة والرطوبة ، وقد غطيت النوافذ بستائر كثيفة لا يخترقها الا ضوء خافت .. وكانت عينا بروكيش مازالتا فى غشاوة من ضوء النهار فى الخارج

فلم تميز الصور المعلقة على الحوائط ولا قطع الأثاث الثمينة التى تبعث بريقها الخافت فى زوايا الغرفة .

وبعد ان استراحت عيناه الى الضوء القليل ، رأى بروكيش سيدة عجوزا فى ثياب سوداء تجللها من رأسها الى اخمص قدميها وقد قامت من فوق الأريكة التى تمددت عليها . كانت فاقدة البصر او تكاد مصابة بشلل نصفى . استندت الى ذراع الأمير شارلوت بيد والى عصا بيد اخرى ، وتقدمت نحو الزائر خطوات قليلة ثم حيته ودعته الى الجلوس بجوارها وقالت له :

ـ يسرنى جدا أن اراك يامسيو بروكيش ، نعم يسرنى جدا .. فأنت أول انسان ممن يحيطون بحفيدى أتمكن من التحدث معه قليلا عنه .. هل عاشرته عن قرب ؟ .. هل عشت معه ؟ .. أنت بلا شك اسعد منى حظا .

وكانت تتكلم بصوت عذب ، فى لغة فرنسية غير سليمة تتخير عباراتها . وفجأة انهالت على بروكيش بالاسئلة : هل يبذل له العلاج الصحيح ؟ هل هو محاط بالرعاية الكاملة ؟ .. هل حوله اناس مخلصون له ؟.

فأخذ يهدىء من روعها ويؤكد لها أن الدوق يلقى كل الرعاية وكل الاعتبار اللائقين به . فتنهدت وكأن كابوسا انزاح عن صدرها وقالت :

ـ الحمد لله .. كنت أخشى الا يكون الأمر كذلك .. ولكننى أصدقك لما أعلمه من أنه وضع فيك كل ثقته ، وانك بهذه الثقة جدير .

ثم راحت تسترسل فى الحديث مستعيدة ذكريات الماضى ، واجدة كثيرا من التشابة بين طباع دوق رايشستاد وطباع ابيه .

ـ لم يكن نابليون فى طفولته متوقد الذهن . وكان المعلمون دائمى الشكوى منه وكان هو دائم الحزن لذلك ، ولكنه لم ييأس وظل يبذل الجهد طلبا للنجاح . وفى أحد الأيام عاد الى المنزل حاملا شهادة حسنة ، فوضع الشهادة على أحد المقاعد وجلس فوقها كما يجلس الفازى فوق عربة النصر .

وعادت تتقصى الأنباء عن صحة حفيدها ، فقد جاء في الصحف أنه جد مريض . وكان بروكيش محرجا اذ لا يعلـــم عن الامير الا ما تناقلته الصحف وما يردده اولئك الذين يزعمون العلم ببواطن الامور . واولئك وهؤلاء لا يركن الى اقوالهم . لقد حرص منذ أن غادر فيينا على الامتناع عن الكتابة للدوق حتى لا يثير الشبهات . ولكن الانباء التى ترددت عن شدة مرضه لم يكن ليتقبلها بسهولة وكان يقول :

ـ لا تصدقي كل ما تذكره الصحف ، ياسيدتى، فهناك كثيرون من مصلحتهم اذاعة الأنبـــاء الكاذبة عن الدوق .. حقا أن الأمير يشكو من ضعف الصدر وسبب ذلك سرعة نموه الفائقة .. ولكنه فى رعاية أعظم أطباء فيينا . وسوف تتغلب طبيعته الممتازة على هذا الضعف قريبا .

وكانت المرأة العمياء تصغى الى هذا الحديث وقد مالت برأسها جانبا لتحسن الســمع ، وقد شبكت فوق ثيابها الســوداء يديها الناحلتين المكسوتين بالتجاعيد وراحت تروى الذكريات .

ـ هذا الطفل الحبيب .. لابد أنه كبر كثيرا .. أليس كذلك ؟ قيل لى أن طوله متر وستة وثمانون .. أشبه بعمـــلاق .. انى أتصوره جيدا .. يا الهى .. عندما فارقته فى المرة الأخيرة .. كان ذلك فى بلوا سنة ١٨١٤ .. وكان عمره ثلاث ســنوات .. ومازالت صورته فى ذهنى بخصلات شعره الشقراء وبذلته الصغيرة الزرقاء ... ما أشد غضبته حينما أرادوا أخذه من التويلرى .. كم صرخ وتشبث فى ذلك اليوم .. ولم يكن غيره على حق ، وكأنه الوحيد الذى كان يحس بما ينتظره ... ما كان أجمله فى ذلك الوقت وما أعظم الآمال التى كان يوحى بها .

ثم انشرخ صوتها وتبعثرت الـكلمات من فمها كحبات العقد المتناثرة ثم سكتت ، واحترم بروكيش صمتها . وبعد لحظة عادت تقول فى عزم :

ـ ما الذى سيحدث له ؟ .. أن لى من العمر أربعا وثمانين عاما وبلغت من السن عتيا .. لن اراه ولكننى عـلى ثقة من أنه سوف

يرتقى عرش فرنسا ثانية .. أن خط السير المفروض عليه اتباعه مرسوم له فى وصية ابيه .. فليحترم رغبات ابيه وستأتى فرصته يوما ما ..

ـ لاتخشى شيئا من هذه الناحية ، ياسيدتى ؟ انه يحفظ عن ظهر قلب وصية الامبراطور .. انها بالنسبة له فى مقام الانجيل تمـاما .

ارتسم السرور على وجه مدام لوتيتيا وظهر عليها الاطمئنـان وانتصبت واقفة وهى تقول :

ـ تعال معى ، وسأريك أننا لم ننسه هو الآخر ، ولم يغب عن ذاكرتنا على الرغم من أننى لم أره منذ سبعة عشر عاما .. ولم أتلق منه شيئا .

وتقدمت مستندة الى ذراع الأميرة شارلوت والى عصاها .. واقتادت بروكيش الى غرفة صغيرة انتشرت فى جوها عتمة كعتمة الكنائس ، واذا به يرى على طول الجدران مجموعة من التمـاثيل النصفية لأبنـائها جميعا .. وكان تمثـال نابليون وتمثـال دوق دايشستاد متجاورين .. فاشارت مدام لوتيتيا الى تمثال حفيدها وقالت :

ـ هذاهو التمثال الذى كان يحتفظ به الامبراطور فى لونجوود .

ولقد اختلس بروكيش النظرات ، وراح يتفحص السيدة العجوز إن لها جسما رقيقا نحيلا ، ورأسا مازال منتصبا عاليا على الرغم من السن ؟ ووجها صافيا رائق التقاطيع كأنه ميدالية اثرية عتيقة ، وان كان ستار كثيف قد امتد على العينين السـوداوين فحجب عنهما النور والرؤية ..

ومرت الجدة أمام تماثيل ابنائها الآخرين ، وتوقفت أمام تمثالى لوسيان وجوزيف وتمتمت ببضع كلمات ثم ذكرت اسم مارى لويز فى مرارة وقالت :

« انها سبب مصائبنا كلها ، سامحها الله » .

عادت مع بروكيش الى الصالون وأخذت تبحث عن خصـلة

من شعر نابليون تريد أن يحملها الزائر الى دوق رايشستاد ولكنها لم تجدها فقالت له :

ـ سأرسل اليك هذا المساء صورتى لتحملها معك الى حفيدى العزيز وسيجد فى ظهرها خصلة من شعر ابيه ..

واضافت انها سترسل له صورا أخرى دقيقة منها صورة لبونابرت أيام أن كان قنصلا ، وأخرى لكارولين ، وعلبة بها ادوات لبعض ألعاب التسلية مصنوعة من العاج وعليها شعار نابليون :

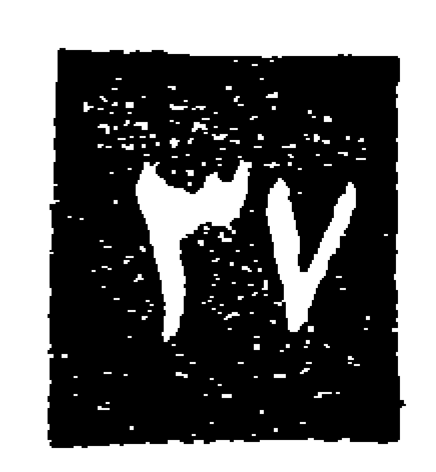
ـ قل له أن أباه تسلى بهذه الأدوات أيام أن كان فى سانت هيلانة .

احس بروكيش بأن ميعاد الانصراف قد أزف . فقام مستأذنا وانحنى على يد مدام لوتيتيا فقبلها .. وعندئذ تحاملت الأم العجوز على نفسها ، وانتصبت واقفة فبدا عليها الجلال . رفعت فى الهواء يديها المرتعشتين كما يرتعش جسمها كله ، وبعد أن تحسست الهواء لحظة وضعتهما على رأس بروكيش الذى انحنى أمامها راكعا على ركبة واحدة فقالت :

ـ مادمت لا استطيع الوصول اليه ، فلتنزل على رأسك أنت بركات جدته التى ستغادر هذا العالم قريبا . سأكون معه بصلواتى ودموعى ودعواتى حتى اللحظة الأخيرة من حياتى ..احمل له عنى البركات التى وضعتها على رأسك . والدعوات التى استودعتها قلبك ..

وكانت الأميرة شارلوت تسندها .. ووقف بروكيش فمدت له ذراعيها واحتضنته وابقته على صدرها لحظة وقد رفعت نحو السماء عينيها تكسوهما الغمامة البيضاء .





الصباح الأخير .. فى الخارج الشمس زاهية والطيور تغنى والنساء فى ثيابهن الزاهية يتنقلن فى أنحاء الحديقة ، وفى الداخل الدوق فى سريره يلهث فاغرا فاه ، كل زفرة منه تحز فى صدره كأنها سكين . والحمى لاتنحسر عنه .. انها النار المتأججة فى أعضائه وبدأ الاحتضار ، وراح المريض يتلوى غارقا فى عرق كثيف .. انه يضطرب من وقت لآخر ويصيح :

— الجموا الخيل .. أعدوها .. أريد أن أذهب لملاقاة أبى ..

وكانت عيناه التائهتان تدوران من حوله تبحثان عن وجوه أولئك الذين أحبوه حبا حقيقيا .. أين هو الكونت ديترشستاين ؟.. وأين جده ؟. وأين صوفى ؟ بروكيش هو الآخر بعيد .. بروكيش صديقه الوحيد .. بروكيش الذى أحبه كأخيه ، لماذا تخلف عنه فى هذه اللحظة ؟ . لا . انه وحيد مهمل ، لا أحد حوله يحميه من الموت الذى هم به ليختطفه .. وفجأة رآه فى احدى المرايا .. رأى الموت ماثلا أمامه ، بوجهه الكريه ، وعينيه الغائرتين المحجبتين بالسواد ...

انه الموت .. يقترب منه .. يريد الامساك به فيحاول الفرار منه ؟ ويلقى بيديه فى يأس الى الأمام ، ولكن الضوء يعود قليلا الى عينيه، وينقشع الضباب فاذا به يرى فى المرآة .. وجه مترنيخ .. لقد جاء الوزير يسترق النظر من خلف الباب ويتسقط الأنباء وينتظر ما تأتى به الساعات ....

ولم يلبث المريض أن انتابته أزمة أخرى ، وكان الألم ينتزع من شفتيه ومن يديه كلمات واشارات كلها يأس وضـــياع : « اطلب الموت .. أريد أن أموت .. لم يعد لى من نجاة الا بالموت » .

ثم يفيق لحظة ، فيجد مالفاتى الى جواره ، يبلل صدغيه بماء الكولونيا فيقول له :

ـ شكرا .. شكرا .. انى الآن احسن حالا ..

وانقضى الصباح . زارته فيه أمه . ثم زاره الأرشـــيدوق فرنسوا . ثم أخذته سنة من النوم . وعند الظهر عاوده السعال عنيفا قاسيا .. ولم يستطع لفظ ما فى فمه من بصاق .. فأخذ مول بخرقة وعود صغير ينظف بهما حلقه ولسانه مما علق بهما من قيح .. وكانت رائحة هذا القيح خبيثة اشمأز منها مول وتنبه الدوق الى اشمئزازه فقال له معتذرا : « ما الذى يحملك عـلى هذا يا عزيزى مول ؟ .. ما اقسى الأيام التى تقضيها الى جوارى؟»

وقد تمالك الكابتن مول نفسه وابتسم وهو يقول فى لهجـة المداعبة : « سوف لن تذكر شيئا من ذلك بعد أن تصل الى نابولى قريبا .... »

وانقضت فترة المساء فى سبات ويقظة .. وراح مول يقرأ للمريض بعض الكتب وتقدم لامبير من سيده يعرض عليه منقـوع الشعير والماء المحلى ، ولكنه رفض تناول شىء ..

ثم جاءت مارى لويز ، وجاء الجنرال مارشال معها . وبقيت بعض الوقت واذ أقبل المســــاء عاودت المريض الأزمة ، وبدا على مالفاتى القلق ، فقد كان النبض فى ضعف متزايد . وقال الطبيب لمن حـــول المريض : « اذا حدث اختنـــاق .. فعليكم بالحجر واللصقات ... »

وعندما أراد مول أن يعد للدوق فراشه للنوم سأله الدوق :

- وعربتي البرلين ؟ . هل هي جاهزة ؟ .

- ما اظنها جاهزة .. ان كولر لم ينته من عمله فيها بعد ..

وعندئذ ثار المريض وراح يضرب الفراش بيديه ويقول : « يجب أن ترسل .. احدا .. الى كولر .. ليقول له .. أن يتعجل انهاء .. هذه العربة .. سأكون في حاجة اليها .. قريبا .. ولا أريد أن أتعطل .. بسببها .. » .

وكانت الكلمات تخرج بصعوبة من حلقه .. وحمل الخادم لامبير السراج وابتعد به في أحد اركان الغرفة ، وانتقل مول ونيكير ، الطبيب المشرف في تلك الليلة ، الى الحجرة المجاورة التي ظل بابها مفتوحا .. وكانت أنفاس المريض تزداد صعوبة وحشرجته تملأ الأرجاء . ولكنه يبدو هادئا . وعند منتصف الليل قال مول للامبير : « أظنه سيعيش حتى الغد ، وفي هذه الحالة لن يكون من نصيبنا نحن أن نتلقى آخر انفاسه ... »

ثم ذهب مول الى احدى الأرائك وارتمى عليها منهوكا . وراح لتوه في نوم عميق .. وما ان قاربت الساعة الرابعة حتى أيقظه لامبير فجأة : « قم يا سيدي .. أسرع .. أسرع »

قفز مول الى جوار الدوق فوجده يتململ في فراشه ويصيح : « اني اموت .. اني أموت .. » فتعاون الرجلان على اجلاس المريض في فراشه وقد فغر فاه وبرزت عيناه ، وأخذ يردد : « استدعوا أمي .. استدعوا أمي ... »

استوقف مول الخادم عند الباب ، على أمل أن تنقضي الأزمة سريعا ولكن المريض ظل يتقلب بعنف في فراشه الى أن ارتطمت رأسه برخام المنضدة المجاورة للسرير . فصاح : « ارفعوا هذه المنضدة .. فلم أعد بحاجة الى شيء ما .. »

وكانت التشنجات العنيفة تغير من ملامحه ، وفجأة اتكأ على ظهره وتصلبت ملامح وجهه واصبحت عيناه وكأنهما من زجاج .. فخرج مول مسرعا لاخطار الأسرة ومالفاتي وهارتمان . ثم عاد

فخيل له أن المريض غدا يتنفس في شيء من اليسر بعد أن أراحت اللصقات صدره .. وما لبثت ماري لويز أن جاءت وقد استندت الى ذراع مول ثم وقفت الى جوار الفراش واذ نظر الأمير اليهـا وعرفها ابتسم لها ابتسامة من عينيه .

ثم جاء الآخرون بعد ذلك متتابعين .. وادخل مول القس الى غرفة الدوق ليمده بالأسرار الدينية الأخيرة ، وكان قسا شـابا يقوم بهذا العمل للمرة الاولى فكان بادى التأثر والارتباك ، وسـأل هل يقرأ الصلوات قراءة صامتة أم يتلوها بصوت مرتفع فأشار اليه الامير انه يفضل التلاوة بالصوت المرتفع .

وخر الجميع ركعا واستندت ماري لويز الى احد المقاعد بينما استند الأرشيدوق فرنسوا الى حافة السرير وركع باقي الحاضرين خلفهما ، والخدم في الغرفة المجاورة وفى اثناء الصلاة سمع صوت انهيار على البساط لم يشعر به الحاضرون ..انها ماري لويز وقد أغمى عليها ... أسرع اليهـا مالفـاتي فأعادها الى حالتهـا والى ما كانت عليه .

وكان الأمير ينحدر قليلا قليلا خارج الحياة .. وبدا وكأنه لم يعد يشعر بالألم .. ها هو الموت يترفق به ، ويقترب منه في حلم وهدوء . وكانت الشموع في وضح النهار مضـاءة في كل مكان فتزيد الجو اختناقا . ودقت الساعة الخامسة . ثم بعد ذلك بقليل أشاح الأمير برأسه مرتين من اليمين الى اليسار ثم فجأة تصلبت شفتاه وانحنى مول ومالفاتي على الأمير ، ووضع الطبيب يده على جبينه وقال في صوت خافت : « ان البرودة بدات تنتشر فيه » .

واذ سمعت ماري لويز هذا الهمس من فم الطبيب ، ارادت أن تقف على قدميها ولكن قواها خانتها مرة أخرى وعادت اليها حالة الاغماء فحملها هارتمان ومارشال الى حجرتها .

وكان الميت في فراشه ممددا ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما وقد اضطر مالفاتي أن يعيد الكرة مرتين قبل أن يغلقهما الى الأبد .

الثقافة والإرشاد القومي

الدار القومية للطباعة والنشر



يصدر عنها

روايات عالمية
الكتاب الماسي
مذاهب وشخصيات
كتب سياسية
كتب قومية
اخترنا للجندي
دراسات اشتراكية

مكتبات الدار

نيويورك
لندن
الجزائر
بيروت
طرابلس
بغداد
الخرطوم
الإسكندرية
القاهرة

مجلة الإذاعة والتليفزيون
مجلة بناء الوطن
ARAB OBSERVER
L'OBSERVATEUR ARABE
The Scribe ARAB REVIEW
Le Scribe LA REVUE ARABE
El Escriba LA REVISTA ARABE
Der Schreiber DIE ARABISCHE RUNDSCHAU